

دارفور .. من أشعل الحريق ؟

حسن مكى - أليكس دى وال

من الحداثة إلى ما بعدها .. عصر النهايات

عبد الوهاب المسيرى

الحل « الكروى » للطموحات الإسلامية

فرانكلين فوير

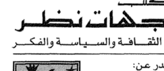
دروب لا تفضى إلى شىء ..

سلامة أحمد سلامة

فن الأكل

السنة السادسة
العدد الثامن والستون
سبتمبر ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد السيد النجار.. خبير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام
- أليكس دى وال.. مدير منظمة Justice Africa
- إنجريد د. رولاند.. محاضرة فى تاريخ الفن والدراسات الكلاسيكية.
- أندرو سيمز.. مدير السياسات فى مؤسسة الاقتصاد الحديث.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جيمس مان.. كاتب صحفى بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن.
- حسن مكى.. عميد مركز البحوث الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم.
- سعد القرش.. صحفى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة.
- فرانكلين فوير.. صحفى أمريكى.
- مات رينديل.. صحفى.
- محمد يحيى جمال.. مترجم مصرى مقيم بأستراليا ومدرس الترجمة بمعهد سيدنى للتكنولوجيا.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- معتز خورشيد.. نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاته - أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

" نــون "

مـن العـزلـة إلـى الاعـتـزال

■■ تستطيع أن تخترق دروب الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة، صعوداً وهبوطاً، سعداً وشقاءً، نجاحاً وفشلاً حتى يفضى بك العمر إلى فراغ يصعب تحديده أو تعريفه.. كل منا يسلك طريقه الخاص به، وقد تبدو هذه الطرق متشابهة متوازية مبهمة المعالم. ولكن يظل فى النهاية لكل منا طريق خاص، يشعر بأنه من صنعه ومن أعماق تجربته التى تنسجها التفاصيل الصغيرة والكبيرة لحياته. ومع ذلك فما إن يصل المرء إلى هذه اللحظة الفارقة التى يخيل إليه أن الحياة قد أفضت به إلى لا شىء، إلى لا مكان، إلى نقطة الفراغ فى لحظة من لحظات العمر حتى تتحول مسألة الوجود إلى سؤال كبير يقرع الوعى، ويستثير كل ما تجاهله المرء من شكوك وأوهام. ولا تقع هذه النقطة الجوفاء أو الثقب الأسود فى حياة الإنسان إلا فى لحظات الضعف والمرض والاقتراب من النهاية، حين يصبح الوجود المادى والعقلى للإنسان على شفا الانهيار الكامل، قبل لحظات النهاية بقليل.

وقد وجدت نفسى فجأة فى قلب هذه النقطة، داخل ثقب أسود لا يفضى إلى شىء، مربوطاً إلى عشرات الأنابيب والمحاليل وأجهزة الأشعة وقياس الضغط والسكر والنبض وغيرها من المعدات والآلات التى تملأ المكان وتملأ النفس شعوراً بالرهبة والخوف والضياع أمام المجهول.. تنتقل من طمأنينة غرفتك فى المنزل أو المكتب وما تعود عليه المرء من شخوص وأقوام ترضى عنهم أو تسخط عليهم، وما تخلعه عليك الألفة من سكينة، إلى عالم آخر تماماً فى غرفة المستشفى.. وأنت لا تعرف على وجه التحديد أين تفضى بك الخطوة القادمة.. أين ينتهى الدرب.. أين تبدأ المسيرة نحو المجهول، وأين تتوقف، بل ومتى يتحول المرء إلى نقطة صغيرة سابحة فى هذا الوجود اللانهائى مع ملايين الملايين من الأرواح والكائنات والذرات غير المرئية فى ملكوت الله؟

هل هى النهاية؟ هل يقف الإنسان فى قلب هذا البرزخ الفاصل بين الحياة والموت فى انتظار القاطرة التى تقله إلى عالم الغيب؟

تجربة المرض الشديد الذى يضع المرء على الحافة بين الحياة والموت من أعمق وأقسى التجارب الإنسانية. كثيرون قد لا يمرون بها وتنتهى حياتهم فجأة بسكتة قلبية أو سكتة دماغية، وهى نهاية مريحة بكل المقاييس، لا تضع صاحبها موضع الاختبار والمعاناة وانتظار المجهول. فالمرء فى هذه الحالة يظل على قدميه يسعى فى أرجاء الحياة حتى يسقط معلناً النهاية لنفسه ولمن حوله.

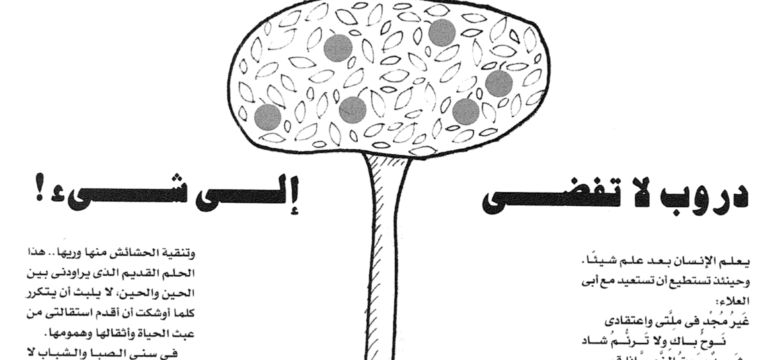


لا شىء فى حياة الإنسان يساوى تلك اللحظات أو الأيام التى يقدر له فيها أن تختزل عمره فى حالة من العجز الكامل. يشعر المرء بعجزه تحت وطأة المرض وما ينشره فى جسم الإنسان من ضعف ووهن وغياب القدرة على التحكم فيما كان يملك السيطرة عليه والتحكم فيه من أعضاء جسمه وعضلاته.. وتدريجياً تهرب المدركات والأشياء من الوعى ومن القدرة على التمييز والاستبصار والرغبة فى التفكير. تختلط الحقائق وتتموه الظلال. ويصبح التعرف على أقرب الناس إليك مسألة خاضعة لأسرار ومعطيات فى وظائف مخ الإنسان. تأتى وتذهب دون ضابط أو رابط.

العجز الإنسانى بكل أشكاله هو العنوان الذى يدمغ هذه الحالة الدرامية التى تستعصى على فهم الإنسان حين تفاجئه، فلا تترك له فرصة الإدراك والقبول. والعجز درجة من درجات الذل، بل لعله أصبح محورها وأكثرها مهانة لكرامة الإنسان. فالعاجز لا يكون قادراً إلا بغيره.. وفى حضيض المرض والوهن، يصبح الاعتماد على الممرضة أو الطبيب أو القريب هو المصدر الوحيد للقدرة أياً كان نوعها.. القدرة على المشى والقدرة على الحركة.. حتى القدرة على أن تذهب إلى دورة المياه. أو تأكل أو تشرب، أو تتقلب فى سريرك. يرقد الإنسان مثل نبات يتنفس ولكنه بغير إرادة أو قدرة على الحركة.. فى انتظار من يعيد ترتيب أعضائه وأوراقه، وإروائه بالمحاليل والسوائل إبقاء على نفثة من نفثات الحياة فى كيانه.



يطرق المرء دروب الحياة المختلفة ولكنه يصل عند هذه النقطة التى تتقطع به فيها السبل، مثل طرق الغابة الكثيفة التى يخطئ العابرون اكتشاف مسالكها. تأخذهم الحيرة كل مأخذ، وقد وصلوا إلى مفترق طرق، لا يحمل أية معالم، ولا يشى بأى اتجاه ولا ينبئ عن أى مسار أو عنوان. تشابهت الطرق وتقاربت، وازدوجت وتعادلت، فما يعرف المرء أين بدايتها أو نهايتها. وتراوحت آثار أقدام الذين سبقوا بالسير فيها فى اتجاهات متباينة، فلا تدرى أأنت ذاهب فى اتجاه الشمال أم الجنوب، إلى الغرب أم إلى الشرق؟ إلى لحظات الميلاد الأولى أم إلى لحظات الموت والفناء والنهاية. وحينئذ فلا



دروب لا تفضى إلى شىء!

يعلم الإنسان بعد علم شيئًا. وحينئذ تستطيع أن تستعيد مع أبى العلاء:

غيرُ مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى
نَوحُ باكٍ ولا تَرنُّمُ شادِ
وشَبيهٌ صَوتُ النَّعىِّ إذا قِيـ
سَ بصَوت البشيرِ فى كلِّ نادِ
أبَكَت تلكمُ الحمامةُ أم غَنَّـ
ت على فَرعِ غُصنها المَيَّادِ
وقَبيحٌ بنا وإن بَعُدَ الـ
عَهدُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ
تَعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعـ
جَبُ إلا من راغبٍ فى ازديادِ
إنَّ حُزنًا فى ساعةِ الموتِ أضعافُ
سرورٍ فى ساعةِ الميلادِ

ربما يستعيد المرء بعض وعيه. فيستيقظ فى ساعات باكرة على أصوات حركة تأتى من بعيد، علامة على أن الحياة لم تتوقف ومازالت تسرى فى شرايين الوجود، وفى عروق المرض، تبعث الأمل وتجدد أسرار الحياة وتروى ظمأ الإنسانية إلى البقاء والخلود. وتعيد طرح الأسئلة التى أنهكت عقل الإنسان منذ الأزل: هل نحن كائنات عبثية تأتى إلى الوجود وتذهب دون علة، أم أن ثمة حكمة لهذا الوجود نحن جزء منه ولبنة فى بنائه.. كينونة الوجود الإنسانى ووعى الإنسان بذاته، دالة من دلائل الوجود الكلى المحيط بنا، فمهما غيب المرض والوهن وعى الإنسان عن نفسه وعما حوله، تبقى إرادة الحياة مثل شعاع من الضوء، وتبقى إرادة الوجود وخالقه، صورة من صور الإعجاز الإلهى. والعجز الإنسانى عن الإحاطة بأسرار الوجود.

أوقات كثيرة تضيع من عمر الإنسان، ولا يستطيع أن يسترجعها.. ولكنه فى مثل هذه اللحظات حين يرقب فى ذلة وانكسار أمام القدرة الإلهية مطلع الشمس وهى تمد أسلاكها الذهبية فوق الأشجار والأغصان المحيطة، مؤذنة بدورة جديدة للحياة، لا يملك المرء إلا أن ينتصر لمعنى الحياة.. يتعلق بأهدابها، طمعًا فى استعادة ما ضاع من العمر. ولكن كيف يكون ذلك؟ فما ذهب يكون قد ذهب وانقضى. وتبقى معجزة الحياة أكبر من قدرة الإنسان على إدراكها والإحاطة بها.

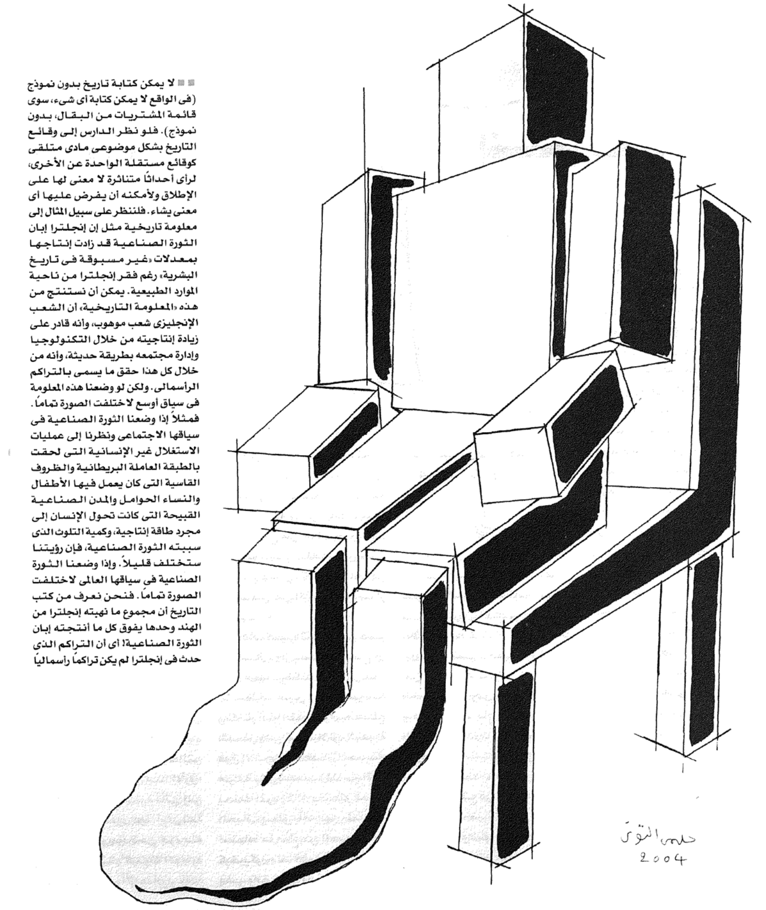


بين اليقظة والحلم.. بين هلوسات المرض ولحظات الوعى.. بين المخزون القابع فى دنيا اللاشعور ولحظات الانتباه.. بين ما كان المرء يتمنى تحقيقه وما عجز عن تحقيقه، تتراءى لى بعين الخيال قطعة أرض صغيرة خضراء. يحيط بها سياج من الخوص أو العشب. تناثرت فيها شجيرات مورقة لفواكه كنت أرقبها وأستمتع بها حين كنا نذهب إلى القرية ونحن أطفال.. ترتفع فى أرجاء الحديقة الصغيرة بعض أشجار النخيل، وتفترش جوانبها نباتات اللوبيا والطماطم والخيار وشجيرات الفلفل.. وقد عكفت على العناية بها وتنقية الحشائش منها وريها.. هذا الحلم القديم الذى يراودنى بين الحين والحين، لا يلبث أن يتكرر كلما أوشكت أن أقدم استقالتى من عبث الحياة وأثقالها وهمومها.

فى سنى الصبا والشباب لا يتوقف المرء طويلاً أمام أحلامه الصغيرة وأمنياته البسيطة، أمام شجرة رمان كان يعشقها أو جديلة كرم كان يأوى لها وقت الظهيرة، أو سويعات من اللعب والجرى مع رفاق الصبا كانت تملأ عليه حياته.. هذه أيام من العمر ذهبت. يمتد البصر إليها عبر السنين والأمكنة والأزمنة. ثم يرتد خاسئًا إلى تلك الطرق الموحشة فى قلب غابات كثيفة من مسالك الحياة الملتوية حوله. تفضى به المسيرة إلى ذلك «الثقب الأسود» مرة أخرى.. يتحدث الإنسان إلى نفسه: هل آن أوان الذهاب إلى عزلة الشيخوخة والوقوف عند السياج؟ إنها فى كل الأحوال علامة قاطعة على أن تعب الحياة قد تجمع وتراكم عند نقطة فاصلة.. حقَّ على المرء فيها أن يستمتع بما بقى فى العمر من لحظات قبل أن يدق جرس الانصراف.. يرقب أبناءه وأحفاده. يطوف العالم، يفعل كما يفعل ألوف اليابانيين والأوروبيين الذين يقضون ما بقى من حياة حافلة مع سن الشيخوخة دون ندم على ما فات أو انتظار لما هو آت. ■

سلامة أحمد سلامة

من الحداثة إلى ما بعد الحداثة



لا يمكن كتابة تاريخ بدون نموذج (فى الواقع لا يمكن كتابة أى شىء، سوى قائمة المشتريات من البقال، بدون نموذج). فلو نظر الدارس إلى وقائع التاريخ بشكل موضوعى مادى متلقى كوقائع مستقلة الواحدة عن الأخرى، لرأى أحداثًا متناثرة لا معنى لها على الإطلاق ولأمكنه أن يفرض عليها أى معنى يشاء. فلننظر على سبيل المثال إلى معلومة تاريخية مثل إن إنجلترا إبان الثورة الصناعية قد زادت إنتاجها بمعدلات «غير مسبوقة فى تاريخ البشرية» رغم فقر إنجلترا من ناحية الموارد الطبيعية. يمكن أن نستنتج من هذه «المعلومة التاريخية» أن الشعب الإنجليزى شعب موهوب، وأنه قادر على زيادة إنتاجيته من خلال التكنولوجيا وإدارة مجتمعه بطريقة حديثة، وأنه من خلال كل هذا حقق ما يسمى بالتراكم الرأسمالى. ولكن لو وضعنا هذه المعلومة فى سياق أوسع لاختلفت الصورة تماماً. فمثلاً إذا وضعنا الثورة الصناعية فى سياقها الاجتماعى ونظرنا إلى عمليات الاستغلال غير الإنسانية التى لحقت بالطبقة العاملة البريطانية والظروف القاسية التى كان يعمل فيها الأطفال والنساء الحوامل والمدن الصناعية القبيحة التى كانت تحول الإنسان إلى مجرد طاقة إنتاجية، وكمية التلوث الذى سببته الثورة الصناعية، فإن رؤيتنا ستختلف قليلاً. وإذا وضعنا الثورة الصناعية فى سياقها العالمى لاختلفت الصورة تماماً. فنحن نعرف من كتب التاريخ أن مجموع ما نهبته إنجلترا من الهند وحدها يفوق كل ما أنتجته إبان الثورة الصناعية! أى أن التراكم الذى حدث فى إنجلترا لم يكن تراكماً رأسمالياً

... عصر النهايات!!

عبدالوهاب المسيرى

وإنما كان تراكماً إمبريالياً. وهكذا حين وضعنا المعلومة فى سياقات مختلفة، محلية ودولية، فإنها اكتسبت أبعاداً كثيرة ومعنى مركباً محدداً. والنموذج التحليلى المركب هو الآلية التى يقوم الدارس من خلالها بالربط بين المعلومة والسياقات والأبعاد المختلفة.

والنموذج المركب يساعدنا على إدراك الفارق بين المتتالية المثالية التحديثية المُفترضة (التى يروجها دعاة التحديث) والمتتالية الفعلية المتحققة. والمتتالية المثالية العلمانية التحديثية كان من المفروض أن تؤدى حلقاتها إلى نهاية سعيدة: سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه وتأكيد مركزيته المطلقة فى الكون (الاستنارة المضيئة والعقلانية المادية). ولكن هذه المتتالية كانت تحوى داخلها تناقضات النظم الواحدية المادية (تأليه الإنسان وتأليه الطبيعة فى الوقت نفسه الذات الإنسانية مقابل الموضوع الطبيعى المادى. الكل مقابل الجزء. التجاوز مقابل الإذعان والتكيف. المعنى والثبات مقابل الحركة التى لا معنى لها). ولذا نجد أنه أثناء عملية التحقق التاريخى، عبّرت هذه التناقضات تدريجياً عن نفسها، وأدركها الإنسان الغربى ثم حُسمت، فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير، لصالح العنصر الثانى فى الثنائية، وبدلاً من انتصار الإنسان، تم تفكيكه وردّه إلى المبدأ المادى الواحد (الاستنارة المظلمة واللاعقلانية المادية). وتم الانتقال من رؤى التحديث (البطولية) إلى واقع الحداثة (العبثى)، ثم استقر المطاف عند عالم ما بعد الحداثة (النسبى البرجماتى). أى أن المتتالية المثالية المُفترضة مختلفة تماماً عن المتتالية الفعلية المتحققة.

وعملية التحقق تمت تدريجياً عبر ثلاث حلقات هى:

١ ـ التحديث: فى هذه المرحلة كان الإنسان الغربى لا يزال يتحرك فى إطار المتتالية المثالية المفترضة، ولذا كان يحدوه الأمل فى السيطرة على ذاته وعلى الطبيعة. ولذا فهو كان يرى أن العالم له مركز محدد هو الإنسان والمادة، فهو عالم لوجو سنتريك Logo-centric، عالم متمركز حول اللوجوس، أى متمركز حول مطلق ما، ونحن نرى أن العالم الذى له مركز هو عالم صلب. ومن الناحية التاريخية تقع حقبة التحديث منذ عصر النهضة فى الغرب وما يسمى «عصر الاكتشافات» حتى الحرب العالمية الأولى، والتى يمكن أن نشير إليها بأنها مرحلة التراكم الإمبريالى.

٢ ـ الحداثة: فى هذه المرحلة أدرك الإنسان الغربى أن عصر التحديث البطولى قد ولى وانقضى، وأن سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه لم تعد ممكنة، وبالتالى بدأ العالم المتمركز حول اللوجوس يتآكل. وهذه هى مرحلة الحداثة العبثية وبداية ظهور اللاعقلانية المادية والمادية الجديدة، والتى تتسم بالاحتجاج والغضب على إخفاق المشروع التحديثى، وتاريخياً هذه المرحلة تمتد من بعد نهاية الحرب العالمية الأولى حتى منتصف ستينيات القرن العشرين.

٣ ـ ما بعد الحداثة: فى هذه المرحلة يرضخ الإنسان الغربى تماماً لإدراكه إخفاق مشروع التحديث ولكنه بدلاً من أن يحتج ويتمرد فإنه يقبل بل ويرحب. وهو موقف ترجم نفسه إلى عالم لا مركز له (أو متعدد المراكز non-logo-centric)، أى غير متمركز حول أى مطلق. وهذا العالم يتسم بالسيولة. وفى هذه المرحلة لا تزال فى بدايتها ولم تتحد ملامحها بعد. ونحن نرى أنها بدأت فى الستينيات.

ولابد من التنبيه على أن المرحلة الثانية كامنة تماماً فى المرحلة الأولى، فالتقشف العاجل كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، والقمع كان يتم باسم اللذة الموعودة فى المستقبل، أى أن الانفتاح الاستهلاكى كان حتمية كامنة فى كل النظم المادية مهما بلغت من تقشف، وثمة حتمية للسيولة الفردوسية بعد مرحلة الصلابة البطولية (التحديث) أو العبثية (الحداثة).

وقد تم اختيار عام ١٩٦٥ لا لأن شيئاً محدداً ملموساً حدث فيه، وإنما لأنه فى منتصف الستينيات. ولا يمكن تحديد تاريخ الظواهر الحضارية بالإشارة إلى يوم بعينه أو عام بعينه فهى تتطور بشكل يتجاوز مثل هذا التحديد الدقيق. ومع هذا يظل عام ١٩٦٥ اختياراً مناسباً فى تصورنا، نقطة تركُز تقع داخل مُتّصل طويل.

ورغم إدراكنا وجود ثلاثة مراحل إلا أننا آثرنا أن نتحدث عن مرحلتين اثنتين لأن مرحلة الحداثة الاحتجاجية كانت مرحلة قصيرة للغاية ولم تكن سوى مرحلة انتقالية بين الأولى والثانية، كما أن نموذج الحداثة الاحتجاجى ظل هامشياً. لذا ألحقنا مرحلة الحداثة بمرحلة التحديث، رغم أن لها استقلالها النسبى، وفرادتها الأكيدة.



وسنحاول فى هذه الدراسة أن نستخدم نموذجاً تحليلياً واحداً مركباً، يضم الأبعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفلسفية، لنبين الاستمرار والانقطاع فى تاريخ الحضارة الغربية الحديثة، وأن ثمة وحدة فضفاضة وراء كل الظواهر المتنوعة، أى أنها وحدة لا تَجُبّ التنوع، واستمرارية لا تَجُبُّ الانقطاع والتحولات النوعية. كما قمنا بتحليل الصور المجازية الأساسية وعقد مقارنة بينها لنبين دلالة كل منها وطبيعة المرحلة التى تعبر عنها هذه الصور.

وقد لاحظنا وجود مجموعة من الثنائيات الأساسية التى تتحكم فى المتتالية التحديثية المتحققة (الإنتاج مقابل الاستهلاك. المنفعة «البرانية» مقابل اللذة «الجسدية». التحكم والإرجاء مقابل الانفلات والإشباع المباشر. التراكم مقابل التبديد والإنفاق. الدولة مقابل السوق) وهى ثنائيات صلبة تعكس ثنائية الإنسان والطبيعة. فالطرف الأول من الثنائية (الإنتاج والمنفعة والتحكم والإرجاء والتراكم والدولة) يفترض وجود مركز للكون (إنسانى أو طبيعى)، أى أنها تعبير عن العقلانية المادية. أما الطرف الثانى (الاستهلاك واللذة والانفلات والإشباع المباشر والتبديد والسوق) فيفترض انعدام الحدود وغياب المركز. ومن ثم تتساوى كل الأشياء وتختفى الثنائية الصلبة لتحل محلها سيولة شاملة، وتختفى المادية القديمة لتحل محلها المادية الجديدة، وتختفى العقلانية المادية لتحل محلها اللاعقلانية المادية. لكل هذا وجدنا أن التقسيم الثنائى له مقدرة تحليلية وتفسيرية عالية.

ومع هذا يجب أن نشير إلى أننا ندرك تماماً أن الظواهر التاريخية، بكل تنوعها وتركيباتها، لا يمكن اختزالها ببساطة إلى مرحلتين، وأن التقسيمات الثنائية بسيطة ومغرية. ورغم أننا قسمنا تاريخ الحضارة الغربية (العلمانية) الحديثة إلى قسمين اثنين: (مرحلة التحديث الصلبة التقشفية ومرحلة ما بعد الحداثة السائلة الفردوسية) فإننا ندرك تماماً أن تقسيماتنا هى وسيلة تفسيرية وحسب، وليس لها أى وجود مادى، فهى ليست «انعكاساً مباشراً» للواقع الموضوعى المادى، وإنما تعبير عن نموذج تفسيرى وتحليلى نرى أن له قيمة تفسيرية وتصنيفية يمكن اختبارها، أى أننا نقاوم تشيؤ نموذجنا التفسيرى، وندرك أنه رغم تركيبيته إلا أنه أكثر بساطة من الواقع، وأنه مهما بلغ من تركيبيته تظل هناك جوانب فى الواقع قد أهملها وهمشها لحساب جوانب أخرى أكدها وأبرزها.

وفى عرضنا لسمات كل من المرحلتين (وكذلك المرحلة الانتقالية)، صنفناها إلى مجالات مختلفة، وقد بدأنا بالمجال الاقتصادى المحدد ثم انتقلنا إلى المجالين السياسى والاجتماعى الأقل تحدداً ثم المجال الدولى الأكثر عمومية ثم إلى المجال الفلسفى المجرد ومنه إلى المجال الأخلاقى وأسلوب الحياة، وهى مجالات خلافية يصعب الحديث عن مكوناتها وآثارها بأى شكل من أشكال الدقة. ونصل فى النهاية إلى عالم المنظومات الدلالية والجمالية والصور المجازية.

تمت عملية تحديث بقية العالم من خلال جيوش الإمبريالية الغربية، ثم ظهرت دول قومية تحاول إنجاز التحديث بسرعة (وكانت عملية التحديث تعنى فى واقع الأمر عملية تغريب)

ورغم تعاملنا مع هذه المجالات، كلٌ على حدة وكأنها منفصلة الواحدة عن الأخرى، إلا أننا ندرك تماماً أنها مندمجة ومتداخلة ومتفاعلة ومتوازية، وما يحدث في مجال ما، له في معظم الأحيان ما يقابله في مجال آخر. ففي الحديث عن المجال الاقتصادي تحدثنا عن البعد الاقتصادي في حد ذاته، ثم في علاقته بالنفس البشرية وعلاقة كل هذا بالإعلام وعمليات تنميط السلع وتزايد الإحساس بالاغتراب وهكذا.

ونحن لا نرى أن هناك علاقة سببية بين مجال وآخر، فلا نقول إن العوامل الاقتصادية هي التي أدت إلى تغير الرموز، وأن التغيرات التي حدثت في المجال الفلسفي هي التي أدت إلى التغيرات التي حدثت في المجال السياسي. بل إننا نذهب إلى أن التحولات حدثت بشكل متزامن في جميع المجالات ومن خلال تفاعلها، فكل عنصر هو سبب ونتيجة في ذات الوقت، دون أن نعطي أولوية سببية لعنصر على الآخر. وغني عن الذكر أن تداخل المجالات وتوازيها يؤدي إلى التكرار.

وكل مجال ينقسم إلى قسمين: التحديث والحداثة (ويرمز له بالحرف أ)، وما بعد الحداثة (ويرمز له بالحرف ب).

وبإمكان القارئ أن يقرأ هذه الدراسة بطريقتين:

أ) طريقة مقارنة: أن يقرأ القارئ كل ما ورد عن المجال الاقتصادي (على سبيل المثال) فيقرأ الجزء (أ) ثم الجزء (ب) ثم ينتقل بعد ذلك إلى المجال الذي يليه (وهذه هي الطريقة التي كتبنا بها الدراسة).

ب) طريقة تكاملية: أن يقرأ العنصر (أ) في كل المجالات ثم يقرأ العنصر (ب).

المجال الاقتصادي

(أ) الهدف النهائي من الوجود في الكون هو الإنتاج والزيادة المطردة للإنتاج. والإنسان في هذه المرحلة منتج أكثر من كونه مستهلكًا، واجبه الإنتاج ومكافأته الاستهلاك في حدود المعقول، وما يُحرك الجميع هو مبدأ المنفعة المادية، فالمستهلك يبحث عن السلعة الضرورية التي تنفعه، والمنتج أيضاً يبحث عما ينفع المستهلك لينتجه فيحقق أرباحاً متزايدة. ولذا فلابد من عملية قمع، فلو حرّكت اللذة البشر في هذه المرحلة لكانت كارثة، لأن المواطن سيستهلك أكثر مما ينتج، ولن يمكن ضبط إنتاج السلع. ولذا تسود في بداية هذه المرحلة أخلاقيات العمل البروتستانتية ويظهر الإنسان الاقتصادي في الدول الرأسمالية، وهو نفسه الإنسان الاشتراكي (بطل الإنتاج) في الدول الاشتراكية، وكلاهما تتحدد مكانته في المجتمع في إطار مقدار ما يُنتج (لا ما يستهلك). ومن هنا التقشف والتراكم وزيادة الإنتاج والصناعة الثقيلة وبدايات الاقتصاد الرشيد ومرحلة المركنتالية وتوحيد السوق القومية في البداية، ثم الرأسمالية الرشيدة والرأسمالية المالية أو المصرفية في غرب أوروبا والولايات المتحدة وظهور مفهوم السوق العالمية (وبداية ظهور ملامح الاستهلاكية والانفتاح وتحدي السوق والجنس للدولة القومية).

ويمكن في هذه المرحلة أن نتحدث عن «المستغلين» و«المستغَلين»، وعن عمال يتم اعتصار فائض القيمة منهم، وعن طبقات متوسطة تحقق حراكًا اجتماعيًا أو هبوطًا في السلم الاجتماعي والطبقي.

ومع هذا، لم يكن قد تم تحديث أوروبا تماماً حتى عام ١٩١٤ فاقتصاديات معظم بلاد أوروبا كانت تضم قطاعًا زراعيًا كبيرًا، وكان معظم السكان إما جزءًا من الاقتصاد الزراعي أو جزءًا من الصناعات الاستهلاكية والتجارة الصغيرة المحلية. وقد حققت الثورة الصناعية خطوات واسعة بعد عام ١٨٩٠ وساهم التراكم الإمبريالي في الإسراع بعمليات تحديث الغرب، ومع هذا ظل كثير من البنى الاقتصادية والثقافية القديمة التقليدية قائماً. وقد تمتعت إنجلترا ثم الولايات المتحدة بمركزية في النظام الاقتصادي العالمي.

وقد كان تاريخ شرق أوروبا (وبقية العالم) مختلفاً، ولكن الجميع لحق بالركب. فمرت مجتمعات شرق أوروبا بمرحلة مركنتالية تقشفية تراكمية مكثفة، وبدلاً من ديكتاتورية البيوريتان جاءت ديكتاتورية البروليتاريا، وبدلاً من الملكيات المطلقة والدول القومية المطلقة جاءت دولة الطبقة العاملة المطلقة التي ركزت السلطة في يدها وقامت بعملية الترشيد والتراكم بسرعة.

وقد تمت عملية تحديث بقية العالم من خلال جيوش الإمبريالية الغربية، ثم ظهرت دول قومية في العالم الثالث تحاول إنجاز عملية التحديث بسرعة (وكانت عملية التحديث تعني في واقع الأمر عملية تغريب) وأن تحقق التراكم وأن تهيمن على سوقها القومية.

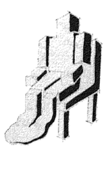
(ب) الهدف النهائي من الوجود في الكون، في مرحلة ما بعد الحداثة السائلة، هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وما يحرك المستهلك هو اللذة لأنه لو حرّكته المنفعة لكانت كارثة لأنه لن يستهلك وبالتالي لن تتحرك آلات المصانع التي تنتج آلاف السلع غير الضرورية، ولن تزيد أرباح المنتجين ولن يتراكم رأس المال. بل إن الاستهلاك بالنسبة للمستهلك واجب/ حق. ولذا، بعد تحكم الرأسمالية في العملية الإنتاجية، وبعد تحقيق التراكم الرأسمالي بنسبة معقولة، انتقل النظام من المنفعة إلى اللذة وأصبح الاستهلاك (لا الإنتاج) هو هدف المجتمع، وأصبحت السعادة هي تحرر الاستهلاك من الحاجات المادية أو الأساسية التي يتطلب الوفاء بها السلع ذات القيمة الاستعمالية. ولم يعد هدف المجتمع إشباع الحاجات وإنما تخليقها، ولم تعد الحاجة مصدر معاناة تحتاج إلى إشباع وإنما أصبحت على العكس من ذلك شيئاً يُحتفى به. ولم يعد التنافس الأساسي بين المنتجين (كما هو الحال في الرأسمالية الصناعية التنافسية) وإنما بين المستهلكين.

وأصبح الاستهلاك هو المجال الرئيسي الذي يتم فيه اغتراب الإنسان، حيث تتحدد وتُنتج احتياجات الناس، وتوجَّه الرغبات نحو ما تم تحديده وإنتاجه من قبل. ويتم استيعاب الناس في منظومة متعددة المستويات من الأشياء والعلامات والإشارات والرموز والدلالات، وهو ما يجعل «الثقافة» والإدراك أولوية على القيم المادية.

وأصبح نمط الاستهلاك وإشباع اللذة (وليس ممتلكات الفرد أو إنتاجيته) مؤشراً على مكانته في المجتمع، وانتقل تحديد وضع الفرد في المجتمع من السلعة نفسها أو كمية النقود التي يمتلكها الفرد. وأصبحت الصورة أو العلامة هي السلع أو القيم المادية الرئيسية التي تُقاس بالنسبة لها قيمة كل شيء، أي أن السلع المادية والنقود لم تَعُد أساس السيطرة على المجتمع. كل هذا يجعل التحليل الماركسي الذي أكد أولوية السلع المادية على السلع الثقافية غير ذي موضوع، بل يجعل الماركسية نفسها (كما يقول بودريار) مجرد امتداد للرأسمالية التقليدية ومتواطئة معها وأداة للهيمنة أو الإمبريالية الإدراكية.

ويمكن القول بأن تحديث المجتمعات الغربية قد اكتمل بعد الحرب العالمية الثانية، وتم تهميش أية جيوب زراعية أو شبه زراعية ولم يعُد القطاع الزراعي ذا أهمية كبيرة.

وتشهد هذه الفترة ظهور الفورديزم Fordism، أي تنميط السلع على مستوى ضخم، فتم إنتاج السيارة والمنزل بشكل نمطي على نطاق جماهيري، كما تم تطبيق أساليب تايلور في الإدارة العلمية. وتزايد استخدام الكريدت كارد (بطاقات الائتمان) بدلاً من النقود، وهو ما يساهم في الحركة الاستهلاكية وفي تضخم قطاع الخدمات وقطاع اللذة واتساع السوق المحلية وتجاوز الحدود القومية. وظهرت السوق العالمية والشركات متعددة الجنسيات عابرة القارات التي لا تحترم السوق المحلية، وظهرت الاستهلاكية العالمية. وقد تزايد ما يُسمى «الاقتصاد





أصبح الاستهلاك هو المجال الرئيسي الذي يتم فيه اغتراب الإنسان، حيث تتحدد وتُنتج احتياجات الناس، وتوجَّه الرغبات نحو ما تم تحديده وإنتاجه من قبل



الفقاعى» (بالإنجليزية: بابل إيكونومى bubble economy) أو «الاقتصاد الطفيلى» (بالإنجليزية: دريفاتيف إيكونومى derivative economy) أى اقتصاد المضاربات المبنى على التأمينات المصرفية التى لا يقابلها رأسمال حقيقى (تجارة الأموال تقدر بنحو ٥٠٠ تريليون دولار (التريليون يساوى ١٠٠٠ مليار)، وهو ما يعنى أن هذه التجارة تصل إلى ٥٠ ضعف قيمة تجارة السلع الدولية التى بلغت قيمتها الإجمالية عام ١٩٩٧ نحو ١٠ تريليونات دولار فقط لا غير. كل هذا يعنى ابتعاد الاستثمار المالى عن الاستثمار الاقتصادى الحقيقى. ومع هذه الحركة الطائشة للتريليونات يتقرر مصير أمم بأكملها ارتفاعاً وهبوطاً.

وقد تزايد دور الإعلام وقطاع اللذة فى تصعيد الاستهلاك. ولا يمكن الحديث عن مستغل ومستغَل، فالمستغل فى مكان يصبح مستغلاً فى مكان آخر. فكأن عملية الاستغلال أصبحت بلا بؤرة ولا مركز، وأصبح النموذج دائرياً: نموذجاً قوياً فعالاً دون فاعل، يدور كالآلة. وكما يقول سيرج لاتوش: «لا يمكن الحديث عن الحضارة الغربية الحديثة (أو عن الحداثة الغربية) باعتبارها لحظة زمنية أو رقعة جغرافية، وإنما هى آلة بدأ الإنسان فى تشغيلها، ثم استمرت فى الدوران بقوة الدفع الذاتية، ثم أخذت تتزايد سرعتها بقوة تفوق طاقة الإنسان. وهى فى دورانها تدوس بقوة على الجميع، بما فى ذلك الإنسان الغربى نفسه الذى بدأها فى الدوران وكان يحاول توظيفها لصالحه». فى هذا الإطار (الآلة التى تدور. الاقتصاد الطفيلى. الإعلام الشرس. عالم بلا بؤرة) يشعر الإنسان بالعجز الكامل فيتزايد الحديث عن المؤامرة.

ويُلاحظ تراجع الهيمنة الاقتصادية للولايات المتحدة وظهور مراكز أخرى فى اليابان وجنوب شرق آسيا وألمانيا، وبداية الخصخصة فى العالم الثالث، وتساقط سياسات الاقتصاد الوطنى وتفشى النزعة الاستهلاكية. وتدخل الدولة الصهيونية المرحلة الفردوسية الاستهلاكية.

المجال السياسى والاجتماعى

(أ) نشبت الثورة البورجوازية ضد الإقطاع ثم الثورة البروليتارية ضد الرأسمالية، وانتصرت البورجوازية والطبقات المتوسطة وتبلور الصراع الطبقى وظهرت القوميات العلمانية (العضوية وغير العضوية) والدولة القومية المركزية المطلقة (مرحلة الملكيات المطلقة ومرحلة الدول الديمقراطية فى غرب أوروبا والاشتراكية فى شرقها) وتم تأكيد أهمية الماضى القومى والهوية القومية.

والدولة القومية هى التى قامت بتحديد الحدود وترشيد الداخل الأوروبى وتحديث المؤسسات وعلمنة الرموز وتدجين الإنسان الأوروبى وتحويله إلى إنسان وظيفى حديث («استعمار عالم الحياة»، على حد قول هابرماس)، ثم جيشت الجيوش ونهبت العالم فأسست البنية التحتية للمجتمعات الغربية من خلال التراكم الإمبريالى (الذى يُقال له «التراكم الرأسمالى») ومن خلال مؤسساتها التربوية والإعلامية جعلت الإنسان الغربى يستبطن رؤيتها للحياة.

لكل هذا هناك إيمان عميق بالصالح العام وبإمكانية الإنابة (بالإنجليزية: ريرزنتيشين representation) أى أن ينتخب الإنسان من «ينوب» عنه فى البرلمان ليعبر عن رأيه ومصالحه، لكل هذا هناك ثقة كاملة بالعملية السياسية وأخلاقيات الصيرورة.

ورغم قوة الدولة القومية وشراستها وهيمنة البورجوازية، ظلت هناك جيوب تقليدية (أرستقراطية . إثنية . دينية) حتى الحرب العالمية الثانية، وكان كثير من أعضاء النخب الحاكمة من أصول أرستقراطية، وكان معظم أوروبا يحكمها أسر ملكية. بل تكيفت البورجوازية مع النظام القديم وتلونت الأرستقراطية الصناعية بألوان الأرستقراطية الزراعية.

ويرى أحد المؤرخين أن التحول الحقيقى للغرب تم بعد ما يسميه «حرب الثلاثين عاماً الجديدة» (١٩١٤ . ١٩٤٤) إذ تم تحديث وعلمنة كل النظم والمؤسسات والبنَى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتهميش الأرستقراطيات وكل الجيوب التقليدية المتبقية.

ومع نهاية المرحلة، بدأ تآكل الدولة القومية من خلال ظهور النزعات الإثنية والكوزموبوليتانية فى الوقت نفسه (ومن خلال تزايد النزعات الفردية والتوجه الحاد نحو اللذة المتمركزة حول الإشباع الجنسى وتصاعد معدلات الاستهلاك). كما بدأت حركيات السوق (التى لا تعرف القيم أو الخصوصيات) تهدد الحدود القومية. ومع هذا يُلاحظ تصاعد هيمنة البيروقراطية والتكنوقراطية وتزايد تدخُل الدولة فى كل مناحى الحياة الخاصة. وتنتهى المرحلة بالإبادة النازية والإرهاب الستالينى والمكارثية وهيروشيما وناجازاكى وفيتنام وكمبوديا وتأسيس الدولة الصهيونية فى فلسطين، ثم تظهر أسلحة الدمار الكونى والأسلحة الميكروبية (لأول مرة فى تاريخ البشرية، ما يخصصه الإنسان من طاقة واعتمادات فى تطوير أسلحة الدمار والفتك يفوق ما يخصصه لإنتاج الطعام، على سبيل المثال). ويلاحظ تصاعُد حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث التى تحاول القوى الاستعمارية قمعها بضراوة.

التحول الحقيقى للغرب تم بعد «حرب الثلاثين عاماً الجديدة» (١٩١٤ ـ ١٩٤٤) إذ تم تحديث وعلمنة كل النظم والمؤسسات وتهميش الأرستقراطيات وكل الجيوب التقليدية المتبقية



(ب) مع تصاعد معدلات التدويل والاتصال الإلكترونى ضمرت الدولة القومية ومؤسساتها ومراكز قوى أخرى (نقابات. جماعات ضغط. شركات ضخمة . منظمات غير حكومية)، فالسلطة لم تَعُد مجموعة مؤسسات مركزية يمكن الاستيلاء عليها والتحكم فيها، فهى موزعة بين عدة مؤسسات متغلغلة فى المجتمع. ولم يعد هناك إيمان بالصالح العام، ولم يعد من الممكن «إنابة» شخص يمثل مصالح الناخب. كما بدأ التوجه الحاد نحو اللذة يقوض مركزية الدولة، إذ تصاعدت النزعات الفردية.

ومن أهم التطورات تضخم (بل تغوُّل) قطاع صناعات اللذة، وهيمنته على الحياة الخاصة التى تم استيعابها فى رقعة الحياة العامة، وتزايد تأثير وسائل الإعلام ومنظومات المعلومات التى تحاصر الإنسان بالصور الأيقونية الجذابة المتغيرة، الخالية من المضمون والمعنى تقريباً، والتى تكاد تشير إلى ذاتها. ولذا فالمجتمع لا تحكمه الدولة وإنما تحكمه منظومات المعلومات والشفرات الجماعية الموحَّدة (كود Code) مثل لغة الإعلانات والقوالب المرئية واللفظية الجاهزة. ومن أهم التطورات الأخرى تزايد الوزن النسبى لكثير من الفئات الهامشية، وضمور الهويات القومية، واختفاء بقايا الأرستقراطية والثقافة الأرستقراطية (١٩٤٥). وظهور الطبقة المتوسطة الجديدة من المهنيين الذين كانوا يشكلون ٥ . ١٠٪ من سكان الدول الغربية الصناعية حتى بداية القرن العشرين، ولكن عددهم فى الوقت الحاضر يبلغ نحو ٢٠ . ٢٥٪. وهم أقلية عددية كبيرة يتمتع أعضاؤها بنفوذ قوى يتجاوز نسبتهم العددية، فهم الذين يضعون السياسات والاستراتيجيات، كما أن لهم نفوذاً ثقافياً قوياً، لأنهم يتميزون بمقدرتهم على الإنفاق، وهم لهذا أكثر مواكبة لعصر الاستهلاك. ونتيجة لهذا كله يحل هؤلاء المهنيون محل الأرستقراطية القديمة أو حتى البورجوازية فى تحديد قيم المجتمع وأسلوبه فى الحياة. وموقف هؤلاء المهنيين من الطبقة العاملة مبهم للغاية. ولكن الطبقة العاملة نفسها استوعبت تماماً فى أسلوب الحياة فى المجتمعات الغربية ولم تعد أحلامها تختلف عن أحلام أعضاء المجتمع ككل. ففقدت أى دور ثورى لها، ومن هنا الإحساس بأن الصراع الطبقى تم إلغاؤه.

أما على مستوى الواقع فيلاحظ تزايد الاستقطاب الطبقى والجيلى فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة (وخصوصاً ابتداء من نهاية السبعينيات). كما

ظهرت حركات الطلاب والحركات الاجتماعية الجديدة التى تربط دائماً بين الانعتاق والحرية الجنسية (خاصة بعد اكتشاف حبة منع الحمل)، أى أن أحلام الثوريين لا تختلف كثيراً عن الأحلام التى يفبركها بكفاءة عالية قطاع اللذة فى المجتمع. وقد أدركت بعض قوى اليسار أن الثورة مستحيلة، وأن الاستيلاء على الحكم مستحيل، فى عصر ما بعد الأيديولوجيا وسيادة الفكر التكنوقراطى فى عالم السياسة وقوانين الإدارة العلمية، وأنه لو تم الاستيلاء على السلطة فإن هذا لن يحل المشكلة بسبب هيمنة النظم التكنوقراطية ونظم المعلومات والصور الأيقونية المخلقة على الإنسان من الداخل والخارج.

ومع هذا يُلاحظ اندلاع الحركات الثورية ذات التوجه البيئى، التى تشكل أول انسلاخ حقيقى ذى طابع جماهيرى عن منظومة التحديث الغربية، المادية العقلانية الداروينية. ورغم ضرب حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث وظهور نخب حاكمة ذات اتجاه تغريبى واضح، وتآكل مؤسسات الدولة القومية وتزايد الحروب الإثنية والدينية، يلاحظ ظهور حركات شعبية ترفض عملية التدويل والتغريب، وقد ظهر هذا بشكل واضح ومتبلور فى الحركات المناهضة للعولمة وللغزو الأمريكى للعراق.

المجـال الـدولـى

(أ) تبدأ هذه المرحلة بقيام الإنسان الغربى بإبادة شعوب الأمريكتين وتسخير ملايين الأفارقة ليصبحوا مجرد طاقة توظف فى خدمة الإنسان الأبيض. ثم ظهرت الإمبريالية «العالمية»، وهى عالمية لأنها حولت العالم بأسره إلى مادة استعمالية فاستغلت الموارد الطبيعية والبشرية فى كل بقاع الأرض بشكل مباشر ومن خلال الجيوش النظامية أو من خلال الجيوب الاستيطانية المختلفة. وكان يتم تبرير الهجمة الإمبريالية الغربية على شعوب العالم باللجوء إلى شعارات مثل «عبء الرجل الأبيض» و«الرسالة الحضارية» و«القدر المحتوم».

وانحصرت التجربة الاستعمارية لروسيا القيصرية فى البلاد المحيطة بها، فاستولت على الخانات التركية وعلى بعض الدول المجاورة مثل بولندا، حتى أن روسيا كانت تسمى «سجن الشعوب». وحينما قام الاتحاد السوفيتى ظل محتفظاً بهيمنته على هذه الدول كما هيمن على الأحزاب الشيوعية وكان هذا يتم باسم الأممية الاشتراكية وباسم الدفاع عن الطبقة العاملة.

ورغم تقسيم العالم من قِبل الدول الغربية فقد شهدت هذه الفترة حروباً عالمية (أى غربية) وأخرى صغيرة فى آسيا وأفريقيا. وبدأت تظهر ملامح ما يُسمى «جلوباليزيشن» globalization أى «العولمة»، أو تحويل العالم إلى وحدات متجانسة لا تتمتع بأية خصوصية (وهو الاتجاه الذى أدى فى نهاية الأمر إلى ظهور النظام العالمى الجديد). ومما سارع بهذا الاتجاه أن الاستعمار الغربى (والأمريكى بخاصة) اكتشف أن المواجهة مع الشعوب أمر مكلف جداً، وأن الحروب الاستعمارية لا تأتى بعائد كبير ولذا قرر التراجع عن الغزو العسكرى المباشر والبحث عن أشكال أكثر مراوغة مثل الاستعمار الجديد. وكان هناك دائماً دولة غربية واحدة هى المهيمنة على النظام العالمى (إنجلترا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم الولايات المتحدة حتى الوقت الحاضر). وانتهت الفترة بالحرب الباردة، وبداية عملية تصفية الجيوب الاستيطانية. ومع نهاية المرحلة لم يبق سوى الجيب الاستيطانى فى فلسطين، يطل على أفريقيا وقناة السويس، والجيب الاستيطانى فى جنوب أفريقيا فى قاعدة القارة.

(ب) شهدت هذه المرحلة بداية ظهور النظام العالمى الجديد ويمكن الحديث عن عولمة بعض القضايا مثل الطاقة النووية - التلوث البيئى - الإيدز - الثورة الإلكترونية - ثورة المعلومات. ويمكن القول إن الدول الاستعمارية السابقة تحاول فى الوقت الحاضر استغلال الموارد الطبيعية والبشرية على المستوى العالمى بدون مواجهات عسكرية، ومن خلال تجنيد النخب المحلية الحاكمة لتنفيذ مخططات الدول الغربية، ومن خلال تزايد معدلات التدويل، بحيث يتحول الكون بأسره إلى شىء متجانس يتسم بالواحدية الدولية، لا خصوصيات له ولا ثنائيات ولا تنوع. وبدلاً من استعمار الشعوب، يحاول الغرب أمركتها وكوكلتها (نسبة إلى الكوكاكولا) وتحل الكوكاكولانية بدلاً من الكولونيالية. ويتم الحديث عن نهاية التاريخ ونهاية الأيديولوجيا، لإشاعة الإحساس بأن ثمة نظاماً جديداً قد ظهر مبنياً على العدل وتبادل المصالح الاقتصادية ومع هذا يلاحظ على مستوى الواقع أن ٢٠٪ من سكان الأرض (شعوب الدول المتقدمة) يستهلكون ٨٠٪ من موارد العالم الطبيعية. وقد تزايد الاستقطاب على مستوى العالم لصالح الدول الثرية التى تزداد ثراء بينما تزداد الدول الفقيرة فقراً، من خلال عملية التبادل الاقتصادية «العادلة»! كما يلاحظ أن معدلات إنتاج الأسلحة (وبيعها) لم ينخفض كثيراً عن ذى قبل.

ولا يستخدم النظام العالمى الجديد الديباجات القديمة مثل عبء الرجل الأبيض وإنما يتحدث عن الدفاع (الانتقائى) عن حقوق الإنسان وحقوق الأقليات وحقوق النساء وربطها بالدفاع عن حقوق الشذاذ جنسياً وعن حقوق الحيوانات.

والنظام العالمى الجديد هو تصعيد لعمليات العلمنة الشاملة، ومحاولة لإعادة صياغة العالم بأسره حتى يصبح جزءاً من الآلة التى ستستمر فى الدوران إلى أن ترتطم بحائط كونى (مثل الإيدز وثقوب الأوزون والفشل الذريع فى التخلص من النفايات النووية وغير النووية). ويمكننا الآن الحديث عن «الاستهلاكية العالمية» وعن «الإمبريالية النفسية» (أى الإمبريالية التى تعتبر النفس البشرية هى الحيز الذى تتحرك فيه وتهزمه وتحوسله) بدلاً من «الاشتراكية العالمية» أو «الرأسمالية العالمية» أو «الإمبريالية العالمية»، وخصوصاً بعد سقوط النظام الاشتراكى والنظرية الماركسية. والذى حدث هو التلاقى «كونفرجانس convergence» بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى، وهو تلاق توقعه كثير من علماء الاجتماع منذ زمن. ويلاحظ أن الولايات المتحدة لم تعد المركز ولا القوة الوحيدة فى العالم، إذ ظهرت قوى أخرى (النمور الآسيوية - تعاظم نفوذ أوروبا).

ويحاول النظام العالمى الجديد (هذا التعبير الجديد عن الظاهرة الاستعمارية الغربية أو النظام العالمى القديم) أن يجعل شعوب العالم تستبطن رؤيتها لذاتها كمستهلكين ومنتجين وحسب، أى مادة استعمالية، وتدخل القفص الحديدى راضية قانعة. ولذا فهو يلجأ للإغواء والقمع بدلاً من المواجهة الصريحة والقمع المباشر.

وقد قبلت كثير من نخب العالم الثالث هذا الإغواء وبدأت تثرثر هى الأخرى عن النظام العالمى الجديد (ولكن بدأت قطاعات أخرى تدرك تماماً خطورة هذا الاتجاه نحو العولمة). ثم أفصحت الحداثة الداروينية عن نفسها تماماً حين قام النظام الأمريكى برفض الشرعية الدولية وفكرة القانون الدولى العام وهاجم العراق.

المجـال الفـلسـفـى

(أ) شهدت هذه المرحلة بدايات المشروع التحديثى العقلانى المادى الذى يستند إلى الإيمان بالكل المادى الثابت المتجاوز ذى الهدف والغاية، والذى يشكل مركز الكون. وكان هذا المركز فى البداية هو إما الإنسان أو الطبيعة/ المادة ثم فى مرحلة لاحقة أصبح مركز الكون أى مطلق علمانى (الفرد - الدولة - العنصر الاقتصادى).

وتم إنجاز الإصلاح الدينى وبداية

أدركت بعض قوى اليسار أن الثورة مستحيلة، وأن الاستيلاء على الحكم مستحيل، فى عصر ما بعد الأيديولوجيا وسيادة الفكر التكنوقراطى فى عالم السياسة وقوانين الإدارة العلمية

علمنة الدين وتهميش المقدّس وعزله فى رقعة الحياة الخاصة، على أن تحرر الحياة العامة من كل المقدّسات، وهو ما يسمى «نزع القداسة عن الكون». وظهرت الرؤية المعرفية العلمانية الشاملة التى ألهت الإنسان، وهى رؤية تقوم مقام الديانة العالمية (بالإنجليزية: وورلد رليجون world religion) التى تتسم بالشمول، وتتفرع عنها منظومات معرفية وجمالية أخلاقية ومعيارية كاملة فى جميع المجالات. ولذا نجد أن لها سفر التكوين الخاص بها (أصل الأنواع) وأنبياؤها (بنتام وداروين وماركس) وقصتها الكبرى (التقدم المستمر) وخيرها (إمتاع الذات) وشرها (قمعها) وجنتها (اليوتوبيا التكنولوجية) وجهنمها (التخلف المادى). وثمة إيمان عميق بالعلم والتكنولوجيا والإيمان بمقدرة الإنسان على هزيمة الطبيعة.

وقد ظهرت من داخل هذه المنظومة ثنائية الإنسان والطبيعة الصلبة حيث يشغل الإنسان المُتأله مركز الكون (أو تشغل الطبيعة/ المادة المركز). ولكن ما حدث فى واقع الأمر أن الإنسان الأبيض (وليس الإنسان ككل) أله نفسه وأصبح مرجعية ذاته واحتل المركز وقام بحوسلة الطبيعة وبقية البشر ومن ثم تحولت الرؤية المعرفية العلمانية إلى رؤية علمانية إمبريالية. ورغم مادية المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية فإن ثمة نزعة طوباوية مثالية تظهر داخلها (انتصار الاشتراكية فى المعسكر الشرقى والدفاع عن العدالة الاجتماعية، أو الهيمنة الإمبريالية فى المعسكر الغربى والدفاع عن عبء الرجل الأبيض ورسالة أوروبا الحضارية).

ومنذ البداية نشب صراع بين مركزى الكون (الإنسان والطبيعة) فأكدت النزعة الإنسانية الهيومانية أسبقية العقل على الطبيعة/ المادة وحرية الإرادة الإنسانية ومقدرة الإنسان على معرفة قوانينها وغزوها والهيمنة عليها والوصول إلى معرفة كلية يمكنه أن يُرشد حياته المادية والأخلاقية فى ضوئها، وباسمها يستطيع الإنسان أن يقمع رغباته ويرجئها وأن يتجاوز ذاته الطبيعية/ المادية. وظهرت أخلاقيات مادية (المنفعة المادية. البقاء للأصلح. صراع الطبقات). وقد واكب كل هذا إيمان بأن الكون معقول، وله هدف وغاية. ومن ثم تزايد الإيمان بالتقدم وبأن التاريخ له مسار واضح حتمى، ينتهى بانتصار الإنسان (الإنسان الأبيض على وجه التحديد) وهذه هى مرحلة البطولة المادية.

وفى الوقت نفسه ظهرت الرؤية المعادية للإنسان (الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغائية الإنسانية)، إذ أن فلسفة إسبينوزا ورؤية نيوتن قامتا بتأليه الطبيعة بدلاً من الإنسان، ووضعتا المادة فى مركز الكون، وطالبتا الإنسان بالإذعان للقانون الطبيعى المادى الآلى والحتميات المادية وهيمنت الواحدية المادية. وظهرت حركة الاستنارة والعقلانية المادية فى النصف الأول، وسادت مفاهيم السببية الصلبة فى العلوم، وتراجعت القيم المسيحية تدريجياً وكل المطلقات والثوابت. وبدأت مجالات حياة الإنسان المختلفة تنفصل تدريجياً عنه، بحيث يصبح كل مجال مرجعية ذاته، لا علاقة له بالمركز الإنسانى.

ويمكن القول بأن الحداثة (فى الإطار المعادى) ليست تبنى العلم والتكنولوجيا وحسب وإنما هى تبنى العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيمة، المتجاوزين للغائية الإنسانية، باعتبارهما المرجعية النهائية للإنسان، والحداثة تعنى أيضاً انفصال الإنسان عن كل النزعات الكونية وفصل كل العلاقات التقليدية وإخضاعها هى والمنظومات القيمية لعمليات التفاوض المستمرة.

ولكن مع اختفاء المعايير والمرجعيات المتجاوزة تتساوى كل الأشياء والظواهر والقيم فهى كلها توجد تحت سقف مادى واحد، فتصبح كل الأمور نسبية. عند هذه النقطة يصبح كل فرد أو شعب هو مرجعية ذاته، ومن ثم يستحيل حسم الصراعات إلا من خلال القوة، أى أن النسبية المطلقة تؤدى إلى الداروينية، ولذا فنحن نسمى الحداثة الغربية الحداثة الداروينية.

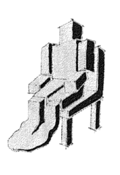
ومع بداية نهاية المرحلة (ابتداءً من النصف الثانى للقرن التاسع عشر) تبدأ هذه الرؤى فى الاهتزاز، فتهتز فكرة الكل المادى المتجاوز، وتتراجع مفاهيم السببية الصلبة فى العلوم ويتعمق إحساس الإنسان الغربى بأن معرفة الطبيعة ليست أمراً سهلاً، وأن استخلاص قوانين منها ليس أمراً يسيراً، وأن الطبيعة ذاتها تحكمها الصدفة. كما أدرك الإنسان الغربى أن تزايد الترشيد والتحكم الإمبرياليين لا يؤدى بالضرورة إلى السعادة، بل بدأ يدرك استحالة الترشيد، فتزعزع إيمانه بفكرة التقدم والحتمية التاريخية. وهنا ظهر نيتشه الذى أعلن موت الإله، أى نهاية عصر الميتافيزيقا والكليات وادعاء الإنسان المركزية وبشّر بعالم لا مركزية له. فى هذا الإطار ظهر الفكر المعادى للاستنارة واللاعقلانية المادية والرؤية العضوية الشمولية وفكرة التاريخ كعود أبدى وكدوائر مفرغة والفكر العنصرى الغربى (كانت أكثر الكتب انتشاراً فى أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر كتاب المفكر العنصرى الفرنسى دروموند «فرنسا اليهودية»). وفى هذه التربة نبتت النازية واليهودية المحافظة والصهيونية.

ومع تزايد الإحساس بالورطة الحضارية تزايد الفكر العبثى والعدمى. ويلاحظ أن ثمة علاقة بين تزايد النزعة الاستهلاكية (والانغلاق على الذات وملذاتها) وتزايد النسبية والعدمية الفلسفية. ونشبت ثورة ضد الكلية والشمولية، سواء فى شكلها المادى الواضح (الوضعية. الوظيفية)، أو فى شكلها المادى الذى يتلبس لباساً روحياً (الهيجلية. البنيوية). وظهرت مدارس فلسفية توجه سهام نقدها للحداثة العقلانية المادية الغربية وفكر الاستنارة ككل (مدرسة فرانكفورت) وتهاجم فكرة التقدم.

وكل هذا مؤشر على اقتراب المرحلة الصلبة من نهايتها، ومع هذا فإن ما ينقذ هذه المرحلة من السيولة الكاملة ومن السقوط فى قبضة الصيرورة هو الإحساس المأساوى الذى صاحبها، فالإنسان الغربى كان لا يزال يحمل فى وجدانه ذكرى المرحلة البطولية المادية.

(ب) تكتسب الحركة المادية فى هذه المرحلة مركزية كاملة وحركية ذاتية مستقلة عن إرادة الإنسان بحيث تتجاوز أية نماذج عقلية وأية محاولات للتفسير والتنظير، فكل شىء يسقط فى قبضة الصيرورة، وتختفى المنظومات الكلية، ولذا لا يتساءل الإنسان عن أصل الأشياء ولا عن معناها ويختفى البحث عن الأصول والمعنى (فالحديث عن الأصل يعنى وجود ذات فاعلة تهمش الذوات الأخرى). وينظر إلى العالم بأسره من منظور الهامش ويصل فيه الترشيد قمته فيفقد الإنسان رشده وحريته وإرادته ومقدرته على التحكم، فيصبح العقل وثمرات الفكر (مثل النظريات والأيديولوجيات) أموراً قديمة يجب طرحها. وبذا، يختفى الإنسان تماماً بتحوله إلى مادة مستوعبة فى نظام آلى عالمى وصلت فيه درجة التحكم والترشيد إلى الذروة، فتظهر السيولة والتفكيكية وفكرة اللاتحدد فى الطبيعة، والانتصار الكامل للرؤية المتمركزة حول المادة على الرؤية المتمركزة حول الذات الإنسانية، أى أن المركز الواعى للكون (الإنسان) يختفى ليحل محله فى بداية الأمر الطبيعة باعتبارها المركز اللاواعى ثم يظهر أخيراً اللامركز اللاواعى. وتتصاعد الشكوك فى العلم والتكنولوجيا، خاصة مع تفاقم الأزمة البيئية. ومع هذا يزداد استخدام الكمبيوتر، ومن ثم الاعتماد على العلم والتكنولوجيا.

هذا هو عصر النهايات والمابعديات (نهاية الأيديولوجيا. نهاية التاريخ. نهاية الميتافيزيقا. نهاية الحقيقة. نهاية البحث عن المعنى)، ولذا لا توجد أزمة معنى، وتحل اللاعقلانية المادية محل العقلانية المادية، والاستنارة المظلمة محل الاستنارة





يمكننا الآن الحديث عن «الاستهلاكية العالمية» وعن «الإمبريالية النفسية» بدلاً من «الاشتراكية العالمية» أو «الرأسمالية العالمية» أو «الإمبريالية العالمية»

المضيئة، وتختفى تماماً القيم والثوابت والمطلقات (فى المجال المعرفى والجمالى والأخلاقى) ويصبح لكل فرد ثوابته وقيمه ودينه، وتختفى المعيارية لتحل محلها لا معيارية كاملة ونسبية شاملة. ولعل أطروحات ما بعد الحداثة هى تعبير عن هذا الوضع، فهى رؤية للكون تؤكد أن الكون لا مركز له، وأن لا علاقة بين النتائج والأسباب، ولا بين الدال والمدلول، ولا بين العقل والواقع، فكأن كل شىء أصبح مكتفياً بذاته لا علاقة له بالآخر، مجرد قصص صغرى، إذ لا توجد قصة عظمى ولا ديانة عالمية؛ عالم ذرى تماماً لا قداسة فيه انسحب منه الإله ومات فيه الإنسان. ولذا تمحى كل الثنائيات وتختفى النزعة الطوباوية وتظهر النزعة البرجماتية والرغبة فى التكيف والمقدرة الفائقة على الإذعان للأمر الواقع.

ويمكننا القول بأنه إذا كان الإله. حسب التصور النيتشوى. قد مات فى أواخر القرن التاسع عشر فإن الشيطان نفسه، قد مات أول يناير ١٩٦٥ (أى مع البداية الافتراضية للمرحلة الثانية). فالشيطان يفترض وجود قصة كبرى وثنائيات فضفاضة أو صلبة، وعالم يرتكب فيه الإنسان الرذيلة. ومع اختفاء كل هذا، ومع الحياد الكامل تجاه الجسد والجنس والعالم، ومع إزالة ظلال الإله (مفهوم الكلية والسببية والغائية) يصبح من الصعب التمييز بين المقدّس والمدنّس، ويصبح الشيطان كائناً بلا وظيفة فيموت، وهذا هو ما يمكن تسميته «تحييد العالم».

ومع هذا يلاحظ أن المقدّس لم يمت تماماً، وإنما كان هناك طيلة الوقت متوارياً. ويعبر المقدّس عن نفسه خارج أى إطار دينى، من خلال عدد هائل من العبادات الجديدة والغيبيات التى تتعايش مع كل المفاهيم العصرية أو تعيش جنباً إلى جنب معها دون أن تدخل معها فى أى علاقة.

أما فى العالم الثالث فتتداخل الأمور، فمع الحديث عن الاستنارة يوجد الحديث عما بعد الحداثة، رغم ما بين الاتجاهين من تناقض عميق. كما يلاحظ ظهور فكر لا يقبل الحداثة الغربية، ويحاول أن يؤسس حداثة جديدة تنطلق من نقد أساسى لفكر الحداثة الغربى. ففى العالم الإسلامى، على سبيل المثال، تراجع مشروع الشيخ محمد عبده الخاص بتكامل الحداثة الغربية والإسلام، ويحاول الخطاب الإسلامى طرح نقد شامل للحداثة الغربية، ويبدأ البحث عن حداثة جديدة لا تودى بالإنسان. أما فى إسرائيل فتتراجع الأيديولوجية الصهيونية وتظهر العبادات الجديدة (بين أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم) وتترجم فلسفة ما بعد الحداثة نفسها فى مجال اليهودية إلى لاهوت موت الإله.

المنظومة الأخلاقية

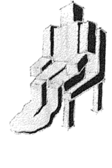
وأسـلوب الحيـاة

(أ) يتم فى المرحلة الأولى توليد منظومات أخلاقية مادية (اشتراكية أو رأسمالية) يؤمن بها الإنسان الرأسمالى أو الاشتراكى. وهو على استعداد للموت من أجلها. وهو ما يعنى أن النزعة الطوباوية والأحلام المثالية بالحرية والإخاء والمساواة والهيمنة الإمبريالية وإرادة القوة ذات فعالية. ويشعر الإنسان من ثم بأنه قادر على التحكم فى حياته ومصيره وعلى صياغة بيئته وذاته فى ضوء المثل الأعلى الذى يؤمن به. ويتم ضبط الحياة من خلال التسامى على الرغبات (وكبتها أو قمعها) وإرجاء الإشباع واللذة. وتبدأ عملية تآكل الأسرة (فتختفى الأسرة الممتدة لتحل محلها الأسرة النووية التى تبدأ فى التفكك هى الأخرى)، إلا أن الأسرة تظل مع هذا هى الوحدة الأساسية فى المجتمع التى يتم من خلالها توصيل القيم إلى الأفراد وتحويلهم إلى مواطنين وكائنات اجتماعية. كما يتم التسامى على الرغبات باسم المثل الأعلى داخل إطار الأسرة. وتظهر حركة تحرير المرأة التى تطالب بإعطاء المرأة حقوقها باعتبارها عضواً فى المجتمع، تقوم بدورها كأم وكأداة عاملة. ويؤدى تنميط السلع إلى تنميط الحياة وترشيدها، كما يؤدى استخدام السيارة إلى تسارُع وتيرة الحياة.

ويلاحظ اتساع رقعة الحياة العامة وضمور رقعة الحياة الخاصة وبداية تدويل أسلوب الحياة وتراجع اللون المحلى (انتشار الهامبورجر والـ «تى شيرت»، والبلوجينز وأمركة الغرب والعالم والولايات المتحدة، باعتبار أن الأمركة هى أسلوب فى الحياة يعادى الخصوصيات الثقافية وضمنها الخصوصيات الأمريكية نفسها). ومع هذا، يظل إحساس الإنسان بأنه قادر على التحكم فى حياته ومصيره وفى صياغة بيئته وذاته، ويظل هناك وهم الخصوصيات الإثنية والقومية. ويلاحظ تصاعد عملية علمنة التعليم والرموز والأحلام والرغبات، ومع هذا تظل الأحلام والرموز القديمة ذات فعالية. ولا يزال النظام التعليمى متأثراً بالمُثل التقليدية (أهمية اليونانية واللاتينية ودراسة الفلسفة والكلاسيكيات)، ويظل هناك شكل من التدين الفعلى أو الاسمى قائماً ينعكس على سلوك الأفراد وأزيائهم التى تميل إلى الاحتشام ومحاولة توضيح الفروق بين الجنسين والتى تتبع بروتوكولاً اجتماعياً محدداً.

(ب) مع التزايد التدريجى للنسبية يصبح من المستحيل الإيمان بأية قيم، وهو ما يعنى اختفاء النزعة النضالية وتلاشى النزعة الطوباوية وكل الأحلام المثالية (فى المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى)، ويرفض الإنسان إرجاء إشباع اللذة الفردية. ولكنه، مع هذا، يشعر بأن عليه أن يتكيف مع واقعه ويقبل عمليات التسوية فى المجتمع التى تُسوى الإنسان بالإنسان وتمحو فرديته وعالمه الجوانى ثم تسويه بالأشياء.

يتسارع تآكل الأسرة إلى أن تأخذ فى الاختفاء تماماً وتظهر أشكال بديلة من الأسرة (أسرة من رجل واحد وأطفال. امرأة واحدة وأطفال. رجلان وأطفال. امرأتان وأطفال. رجلان وامرأة وأطفال.. إلخ). وتظهر حركة التمركز حول الأنثى التى تنظر للمرأة باعتبارها كائناً فى حالة صراع مع الرجل، ولذا لا تطالب هذه الحركة بحقوق المرأة، وإنما تطالب بتحسين كفاءات الصراع (مع الرجل) وتغيير اللغة وتعديل مسار التاريخ. ومع ضمور النزعة الطوباوية واختفاء الأسرة كآلية لنقل القيم وإعلاء الرغبات يتزايد السُعار الجنسى عند الأفراد، ويزيد حدته قطاع اللذة الذى يعمل على هدم القيم الأخلاقية وإشاعة القيم الاستهلاكية التى تصبح المعيار للحكم على الإنسان (ولذا يحل الذوق الجيد محل الأخلاقيات الحميدة والقيم الجمالية محل القيم الأخلاقية). ومن الأسباب الأخرى التى أدت إلى تزايد السُعار الجنسى انفصال الجنس عن القيمة الأخلاقية والاجتماعية، بحيث أصبح النشاط الجنسى مرجعية ذاته. وقد أصبحت اللذة إحدى الآليات التى يستخدمها المجتمع العلمانى الحديث فى استيعاب الجماهير فى عمليات الضبط الاجتماعى بعد أن كان يبذل جهوداً لمحاصرتها وإعلائها. وتتم عملية الاستيعاب والضبط لا من خلال القمع الصريح وإنما من خلال الإغواء، وهو شكل من أشكال القمع الخفى حيث تتم إشاعة الإحساس بأن حق الإنسان الأساسى (بل الوحيد) هو الاستهلاك وبأن إشباع اللذة هو أقصى تعبير ممكن عن الحرية الفردية، وهو ما يعنى ضمور اهتمام المواطن برقعة الحياة العامة وتركيزه على ذاته ورغباته، ولكن هذه الذات وهذه الرغبات يتم تشكيلها وصياغتها وتوجيهها من قبل صناعات اللذة وأجهزة الإعلام التى تغولت تماماً فى تلك المرحلة. والتى تقوم باقتحام أحلام الإنسان وترشيده من الداخل والخارج. فيظهر الإنسان ذو البعد الواحد الذى تم ترشيده من الداخل. ويظهر المواطن المُخدَّر الذى لا يمكنه التحكم فى رغباته الحسية، والذى تتركز أحلامه فى تحقيق انتصار جنسى أو فوز النادى الذى ينتمى إليه فوزاً ساحقاً ماحقاً!



هذا هو عصر النهايات والمابعديات (نهاية الأيديولوجيا. نهاية التاريخ. نهاية الميتافيزيقا. نهاية الحقيقة. نهاية البحث عن المعنى)



ويلاحظ ظهور الإنسان الجسدى وشيوع الحب العرضى. ويعد عام ١٩٦٠ هو نهاية القيم البيوريتانية الخاصة بالقمع والإرجاء، فقد ظهرت حركة الجنس المطلق أو المرسل (بالإنجليزية: فرى لاف موفمنت free love movement والتى تعنى حرفياً «حركة الحب الحر»). وتعد ثورة الشباب فى الستينيات . فى تصورنا . معلماً أساسياً فى تاريخ المتتالية التحديثية والعلمانية الشاملة، فحتى ذلك الوقت لم تكن علمنة سلوك الإنسان الغربى قد اكتملت بعد، رغم علمنة رؤيته وأحلامه ورغباته. وهو ما تم إنجازه فى هذه المرحلة. وكانت اللذة الحسية حتى ذلك الوقت مقصورة على الطبقة الحاكمة ولكن تم تعميمها وخصخصتها وجعلها متاحة للجميع، أى تم التوزيع العادل لإمكانات إشباع الرغبات الحسية (بالإنجليزية: ديموكراتايزيشن أوف هيدونيزم democratization of hedonism). وكل ما يطلبه المجتمع الآن من الإنسان هو الاستسلام للاستهلاك واللذة. وقد صاحب هذا تزايد استهلاك المخدرات بين أعضاء النخبة والشباب.

وتتزايد سرعة الحياة العامة وإيقاعها (خاصة استخدام التليفون المحمول، الذى حول رقعة الحياة الخاصة إلى رقعة عامة) وتتسع رقعتها لتشمل معظم الحياة الخاصة للإنسان. ويتغلغل السوق والتعاقد والتبادل فى كل مجالات الحياة (الوجبات السريعة بدلاً من الطعام. الكريدت كارد بدلاً من النقود) وتتم علمنة التعليم والرموز والأحلام تماماً. ويلاحظ اكتمال عملية التنميط، ومع هذا تتغير الأساليب والطرز إلى درجة يصعب على الإنسان استيعابها، وتتسع رقعة الحياة العامة وتتسارع وتيرتها. ولا توجد قواعد عامة فى المجتمع، ومع هذا يلاحظ وجود عدد هائل من القواعد والإرشادات التى تتغير كل يوم، كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن لا وقت للتأمل، فالذات محاصرة بالتعددية السلعية والمعلوماتية المفرطة والكلشيهات الأيقونية التى تلتهم الإنسان ولا تمنحه سعادة أو حكمة فيبتلع كل شىء ويتشيأ فى مجتمع التبادل والاتصالات وتصبح الصورة أهم السلع (صورة الذات والصور التى يتلقاها المستهلك). ولذا يتزايد إحساس الإنسان بعدم الجدوى وانعدام الهدف وبأنه لا يملك من أمره شيئاً: الإعلام يقرر ما ينشر وما لا ينشر. الهندسة الوراثية تتحكم فى كل شىء. الكمبيوتر يقسم العالم (وضمن ذلك الإنسان) إلى وحدات بسيطة يتم تناولها. ويؤدى كل هذا إلى أن ينسى الإنسان الماضى ويتولد لديه الإحساس بأنه فى حاضر أزلى.

وفى العالم الثالث يلاحظ تزايد معدلات التغريب بشكل واضح، ويصبح نجوم السينما هم المركز ويتبنى الناس الاستهلاكية إطاراً للحياة والبرجماتية أو الداروينية أطراً معرفية.

المنظومة الدلالية والجمالية

(أ) يسود فى المرحلة الأولى الإيمان بأن ثمة واقعاً ثابتاً مستقراً وذاتاً متماسكة قادرة على التواصل مع الذوات الأخرى من خلال لغة عقلانية شفافة تعكس الواقع ويمكن تمثيل الواقع من خلالها، وبأن الأعمال الفنية تستند إلى المحاكاة والتعبير (باليونانية: مايميسيس mimesis). كما يشار إليها بعملية التمثيل أو الإنابة (بالإنجليزية: ريبرزنتيشن representation)، ولها مضمون إنسانى وأخلاقى وتهدف إلى تعميق إدراك الإنسان بواقعه وربما تغييره، وبأن وظيفة النقد الأدبى والفنى هى اكتشاف القيم الأخلاقية والجمالية الإنسانية التى يمكن أن يهتدى بهديها المبدعون والجمهور.

ولكن مع نهاية المرحلة تكتشف الذات الإنسانية أن حدودها غير واضحة وأن الواقع غير مستقر، وأن ثمة أسبقية للأشياء على الإنسان، لكل هذا تفشل الذات الإنسانية فى التواصل مع الذوات الأخرى أو التفاعل مع الموضوع أو التعامل معه.

واللغة لكل هذا تصبح أداة رديئة للتواصل لا تتسم بأية شفافية. وقد أفسد التسلع والتعاقد اللغة فأصبحت قادرة على التعامل مع السوق والأسعار والسلع والإعلانات، أى مع عالم الأشياء دون عالم الإنسان، ولذا يصبح التواصل الإنسانى من خلال اللغة صعباً إن لم يكن مستحيلاً. ومع هذا، تسيطر هذه اللغة المتشيئة على الإنسان وتسبب اغترابه. ولذا يحاول الإنسان إبداء احتجاجه بأن يبعد اللغة عن عالم الأشياء فيطور لغة ذاتية مغرقة فى الذاتية ويزداد التجريب اللغوى. والفنون الحداثية ليست محاكاة ولا تعبيراً عن الذات الإنسانية وليس لها هدف وإنما هى احتجاج (بشكل واع أحياناً) على تسلع العالم، ولكنه احتجاج مأساوى يعرف عبثية الاحتجاج. ولذا، تظهر نظريات تفترض استقلالية العمل الفنى عن الواقع وأن العمل الفنى هو مرجعية ذاته مكتف بذاته لا يشير إلا إلى ذاته، وذلك حتى يتم فصل الفنون عن عالم التسلع الواقعى الذى يتهدده. ويظهر التجريد والتجريب ورفض محاكاة الواقع أو تمثيله ومسرح العبث. ووظيفة النقد الأدبى والفنى هى محاولة التوصل للقيم الجمالية لحماية الفنان من عالم السلع.

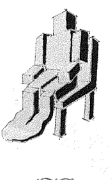
(ب) فى مرحلة ما بعد الحداثة تختفى الذات الإنسانية المستقلة الواعية وإن وُجدت فهى ذات منغلقة على نفسها وغير متماسكة، والواقع لا يوجد وإن وجد فلا يمكن الوصول إليه. وتختفى المعيارية وإن وجدت فهى معايير متعددة تنفى فكرة المعيارية المركزية وهو ما يعنى استحالة المحاكاة أو التفاعل أو التواصل. ومادامت اللغة موجودة فى قلب الثقافة، فهى ليست شفافة وليست موصلاً جيداً كما يتصور دعاة التحديث، فالدوال منغلقة على ذاتها ملتفة حولها، ومن ثم فهى منفصلة عن المدلولات، ولذا فالمعنى دائماً مختلف ومرجأ (الاخترجلاف La Difference).

ونفس القول ينطبق على النصوص، فكل نص ينفتح على النصوص الأخرى، وكل نص يحيلك إلى نص آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية (وهذه هى النصوصية وهى الاخترجلاف على مستوى النصوص). وهناك دائماً فائض فى المعنى ليس بإمكان الإنسان التحكم فيه.

واللغة مكونة من صور مجازية متكلسة، أى أنها صور مجازية تأيقنت ولم تعد تصلح وسيلة لاستكشاف الواقع وللتعبير عن التعامل بين الذات والموضوع، فهو مجاز ملتف حول نفسه ومن ثم يخبئ الواقع ولا يصله. كل هذا يعنى أن ليس ثمة خارج النظام اللغوى أو شبكة الألعاب اللغوية، فكل كلام إن هو إلا كلام عن كلام فى كلام، ولذا فالمعنى هو فى واقع الأمر نتاج عابر للكلمات أو الدوال أو الصور المجازية، وأى حديث عن التحكم فى اللغة كأداة للتواصل هو من لغو الحديث، فاللغة إرادة يفرضها الإنسان على الآخرين من خلال القوة. (كما فعلت الولايات المتحدة حينما سمت العمل الفدائى «إرهاباً»، وكما سمى الصهاينة «فلسطين» «إسرائيل».

ومن ثم فالواقع هو نتاج الخطاب، وليس كما كان الظن فى الماضى أن الخطاب هو نتاج الواقع، واللغة هى التى تنتج الواقع والفكر. ولكن اللغة هى ذاتها نتاج علاقات اللغة. وحينما نعبر عن الحقيقة فما نخبر عنه ليس الحقيقة وإنما ترتيب جميل للكلمات متسق مع نفسه، فالحقيقة ليست حقيقة موضوعية وإنما هى وهم الحقيقة. وهذا يعنى أن اللغة لا يمكن استخدامها فى تمثيل الواقع، فاللغة تستخدم أساساً للإفصاح عن المشاعر الفردية بطريقة فردية. وبدلاً من أن تكون اللغة أداة التواصل بين الناس، تصبح سجن الإنسان. ومع هذا، يستطيع الإنسان أن يحقق قدراً من الحرية من خلال التفكيك ومن خلال إعلان اللغة والمشروع الإنسانى بأسره.

والنظام، فى المجتمع، ليس ثمرة قصة كبرى (إنسانية مشتركة) أو جهد واع أو تواصل لغوى يخضع لبعض القواعد وإنما هو نتيجة الكلام والمحادثة (القصص الصغرى) لا الحوار (الذى يدور فى إطار نص ثابت). بل إن العلاقات بين الناس هى نتيجة تداخل الألعاب اللغوية التى



أصبحت اللذة إحدى الآليات التى يستخدمها المجتمع العلمانى الحديث فى استيعاب الجماهير فى عمليات الضبط الاجتماعى بعد أن كان يبذل جهوداً لمحاصرتها وإعلائها



تولد عقداً أو أنشوطة تربط الناس بعضهم ببعض، أى لا يوجد تواصل وإنما تشابك عابر بين أطراف. ويصبح الفن (ما بعد الحداثى) مستقلاً عن الواقع بل عن الإنسان، فهو بلا غاية إلا اللعب الذى لا غاية له، وهو يدخل فى حالة من التجريب الدائم. وهو لا يحاكى الواقع (فلا يوجد واقع ثابت) ولا يعبر عن وعى المؤلف (فقد تم إعلان موته)، ويظهر الكولاج والباستيش والسخرية، وتصبح مهمة النقد تفكيك النصوص ليبين التناقضات الكامنة التى لا يمكن حسمها فى كل نص وعمل.

الصور المجازية والرموز

(أ) ظهر عدد من الصور المجازية والرموز فى مرحلتى التحديث والحداثة فظهرت فى المرحلة الأولى (التحديث) مجموعة من الصور المجازية فى العصر البطولى التى تدل على التحكم فى كل من الذات والموضوع والمقدرة على التجاوز والصلابة.

١. الدولة إله (صورة هيجل المجازية) تقوم بترشيد البشر، والاستيلاء على الدولة هى طريقة تغيير العالم فى الداخل (ثم الاستيلاء على العالم فى الخارج).

٢. العالم مثل آلة يتحكم فيها الإنسان وتتحكم فيه، والعالم مثل نبات يخوض عملية دوران مستمرة أو نمواً دائماً بدون انقطاع وبهدف محدد.

٣. هرمية حادة ونظام.

٤. العقل مثل المرآة التى تعكس الواقع ومثل الفانوس الذى يلقى عليه الضوء والنافورة التى تغمره مياهها.

٥. بروميثيوس وفاوستوس ونابليون وطرزان.

٦. اللعبة الأساسية هى الدب (تيدى بير).

٧. النموذج صلب ويوجد داخله صراع حاد بين الذات والموضوع، ولكنه صراع يمكن حسمه وإن كان يُحسم دائماً لصالح الموضوع. وهو نموذج حركى يحوى مركزه داخله.

ثم ظهرت فى المرحلة الثانية مجموعة أخرى من الصور المجازية التى تدل على تآكل الإحساس بالكل، بل اختفائه واهتزاز الهدف وضمور الذات الإنسانية ومقدرتها على التحكم.

١. الدولة كتنين ووحش كاسر والعالم كقفص حديدى.

٢. العالم آلة تدور بغض النظر عن الإرادة الإنسانية، أو نبات ينمو بوحشية بالغة، وكلاهما يسحق الإنسان.

٣. لا يوجد شكل واضح ولا نظام، وهناك شك عميق فى الهرمية.

٤. العقل مرآة سلبية أو كيان منغلق على نفسه.

٥. فرانكنشتاين ودواكولا وسيزيف وهتلر وستالين ودكتور جيكل ومستر هايد (رمز انقسام الذات والموضوع).

٦. لاتزال اللعبة الأساسية هى تيدى بير.

٧. نموذج صلب فيه تشققات تم حسم الصراع لصالح المادة.

(ب) استناداً إلى اختفاء الذات والذاكرة والمركز ووهم التحكم وحقيقة الإذعان، تظهر صور مجازية تخبئ الفوضى وتؤكد السيولة والتعددية المفرطة واللعب.

١. الدولة ليست إلهاً ولا تنيناً، فهى مؤسسة من بين المؤسسات يستطيع الإنسان أن يدير لها ظهره، وخصوصاً أنها لم تعد مركز السلطة. ومع هذا، يمكن القول بأن مؤسسات الدولة (مع غيرها من المؤسسات) قد أصبحت القفص الحديدى.

٢. العالم آلة، ولكن الآلة هى الفيديو والكمبيوتر، يتحكم فيها الإنسان، ولكنها تتحكم فيه وتبتلعه. والعالم مثل نبات، ولكن النبات هو الجذمور الذى لا ينمو حسب نمط واضح وفى اتجاه مفهوم، والعالم كله لعبة.

٣. العالم سطح لامع.

٤. العقل ليس مرآة ولا فانوساً ولا نافورة، وإنما هو كل شىء ولا شىء، مثل الكمبيوتر الذى يختزن كل شىء ولا يعى شيئاً.

٥. مادونا ومايكل جاكسون والرئيس/ الممثل ريجان حيث لا نعرف الأصل والصورة، وكلها شخصيات تغير شخصياتها ومنظوماتها القيمية بعد إشعار قصير وحسب طلب مدير العلاقات العامة.

٦. اللعبة الأساسية هى العروس باربى ذات الجاذبية الجنسية والتوجه الاستهلاكى.

٧. نموذج ليس بصلب ولا فضفاض وإنما هو نموذج هلامى لا مركز له.

وأعتقد أننا لو قبلنا التقسيم الذى أقترحه والستينيات كمرحلة فارقة تبدت فيها الملامح الأساسية (الإيجابية والسلبية) للمتتالية التحديثية المتحققة فى الغرب وللعلمانية الشاملة، فيصبح من الضرورى علينا أن نعيد تقييم هذه المتتالية فى ضوء ما نراه من نتائج، لأن عملية التقييم قبل ذلك التاريخ كانت تتم فى فترة النجاح النسبى للمتتالية فى حلقاتها الأولى، ولذا كان لايزال ثمة أمل فى تحقيق المتتالية المثالية، ولم تكن الأحلام قد وُئدت بعد، ولم تكن النزعة الطوباوية قد نضبت بعد، ولم تكن المتتالية الفعلية قد بدأت تفصح عن وجهها الداروينى القبيح بالدرجة الكافية بعد.

والله أعلم ■

دارفور.. من أشعل الحريق؟

أول ما برز مصطلح السودان الجديد كان فى الأربعينيات من القرن المنصرم حينما والت الصدور جريدة يومية كان يرأسها نقيب الصحفيين السودانيين الأستاذ أحمد يوسف هاشم، وكانت واحدة من جملة الصحف التى تتحرى فكرة الجامعة السودانية، كما سارت فى اتجاه خط الجبهة الاستقلالية التى رأت طموحاتها ترتكز فى قيام جمهورية سودانية مستقلة على عكس التيار الاتحادى بأشواقه المتعلقة بوحدة وادى النيل، ثم ما لبث أن برز هذا المصطلح من جديد فى البيان الافتتاحى للحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبى لتحرير السودان بقيادة جون قرنق الصادر فى عام ١٩٨٣، حيث ركز البيان على طبيعة الحركة الجديدة التى تستخدم العنف ومنهج الثورة لتغيير الأوضاع فى السودان القديم وتحطيم الهياكل القديمة وتحرير الخرطوم، وقيام سودان اشتراكى علمانى ديمقراطى، وتحرير كل السودان من سيطرة الأقلية الخرطومية كناية عن إضعاف ثقافة المركز الإسلامى العربية.

واختلفت الحركة عن حركات التمرد الجنوبية حيث طرحت نفسها كحركة لتحرير كل السودان وعرفت شمال السودان بأنه فقط مديرية الخرطوم والجزيرة، بينما نظرت إلى كل مناطق السودان الأخرى مثل كردفان ودارفور وشرق السودان والشمالية القديمة وغيرها كمناطق متخلفة تستوى فى ذلك مع المديريات الجنوبية، وبذلك فإنها تعتبر مجالاً حيوياً للحركة الشعبية وتتوفر فيها إمكانيات الثورة، ولذلك اعتبرت الحركة إنها مجرد مقدمة لزحف ثورى كبير ينتظم كل مناطق السودان بحيث يشكل الجنوب قاعدة انطلاق ثم يلى ذلك جبال النوبة فجنوب النيل الأزرق ومناطق البجا ثم دارفور.

وقامت الحركة على فكرة بسيطة مستندة على الإحصاء السكانى للسودان لعام ١٩٥٥ والذى أبرز أن فقط ٣٩٪ من سكان السودان يشكلون المكون العربى وأن البقية أفارقة وزنج، ولكن كان تعريف العروبة فى هذا الإحصاء محصوراً فى النقاء العرقى، بينما لا يوجد فى السودان نقاء عرقى، ولا نقاء لغوى لأن العروبة فى السودان إنما هى اللسان، واعتبر الإحصاء أن من له لساناً آخر بجانب اللسان العربى ليس عربياً، وبهذا خرجت جملة قبائل السودان المسلمة التى تتكلم بجانب العربية بلسان محلى عن العروبة، علماً بأن ثقافتها إسلامية عربية وأشواقها إسلامية عربية، وتشكل بجانب الناطقين باللغة العربية، كلفة أم أكثر من ٨٠٪ فى سكان السودان.

نجحت الحركة الشعبية فى استقطاب دعم هائل من أثيوبيا وليبيا وكوبا والدول الاشتراكية والأفريقية، وجاءت أول دفعات سلاح معتبرة للحركة من ليبيا والتى أرادت أن تؤدب الرئيس السابق جعفر نميرى وتطيح بنظامه لتأييده لكامب ديفيد، وتحالفه مع السادات، وإيوائه للمعارضة الليبية أما نظام الرئيس منجستو، فقد اعتبر الحركة شريكاً استراتيجياً فوهبها إذاعة كاملة بثت منها ثقافتها الجديدة القائمة على الدعوة للثورة فى المناطق المهمشة ضد ثقافة المركز وضد سيطرة المركز، كما فتحت أبواب الكليات العسكرية الأثيوبية لمنسوبى الحركة، كما فتحت المدارس السياسية الأثيوبية لتأصيل كوادر الحركة على مبادئ الاشتراكية، كما فتحت الدبلوماسية الأثيوبية الآفاق أمام الحركة للتدريب والتسليح فى البلدان الأفريقية والاشتراكية، وكان الهدف فى المرحلة الأولى خلق جيش بديل يتفوق على الجيش السودانى فى العدة والعتاد، وتتكون نواته الصلبة من مائة ألف مقاتل، بالإضافة لتسليح القبائل والقوى المعينة الأخرى، وجاءت ظروف سودانية ودولية لتخدم الحركة، منها رضوخ الرئيس السابق جعفر نميرى لمطالب الجنوبيين الاستوائيين لتقسيم الجنوب إلى ثلاثة كيانات، ثم إن نظام نميرى دخل فى عزلة عربية ودولية بسبب تهجيره للفلاشا، كما إنه ضعف داخلياً بسبب خصامه مع الحركة الإسلامية، مما أدى إلى ضعف الجبهة الداخلية وانسحب ذلك على القوات المسلحة مما سهل مهمة جون قرنق، مما أدى فى النهاية للإطاحة بنظام نميرى فى أبريل ١٩٨٥. ولعل أهم نجاح للحركة الشعبية فى الفترة الانتقالية تمثل فى إجبارها لحكومة السيد/ الصادق المهدى على إلغاء اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والسودان.

ثقافة الكراهية:

نجح خطاب الحركة الشعبية القائم على مفردات الاشتراكية والتقدمية والتهميش أن يقع موقعاً حسناً، فى نفوس اليسار السودانى المصدوم بتجربته مع نظام الرئيس النميرى، والراغب فى تصفية الحسابات مع المؤسسة العسكرية السودانية ومع نظام الرئيس نميرى، وبذلك دخل فى تحالف غير معلن مع الحركة الشعبية لتحرير السودان ودعمها ببعض كوادره من الداخل وفى المهجر، كما خدم خطيها الفكرى والإعلامى، وكان من أجل الخدمات كتاب أصدره أستاذان جامعيان بعنوان (مجزرة الضعين أو الرق فى السودان) وهو كتاب كتب بصورة تعبوية ضد حادثة معزولة تطورت من عراك بين قبيلة ذات جذور عربية وهى المسيرية وقبيلة الدينكا التى ينتمى لها جون قرنق، ومع أن نهاية الحدث كانت مؤلمة إلا انه تحول فى الكتاب إلى كارثة قومية واستعلاء عرقى مركز فى العقل السودانى وأصبح الكتاب وقوداً تتناوله الكنائس فى مؤتمراتها العالمية والإقليمية والمحلية كما تناولته كبريات الصحف العالمية، ثم جاء بعد ذلك كتاب الأستاذ محمد إبراهيم نقد سكرتير الحزب الشيوعى فى السودان بعنوان «علاقات الرق فى المجتمع السودانى»، وهو كتاب يصور المجتمع السودانى مجتمعاً نهض على مرتكزات هياكل السخرة والعبودية فى الحقبتين التركية والمهدية، كما جاء كتاب آخر للسياسى الجنوبى المعروف ابل الير بعنوان «مشكلة جنوب السودان والتمادى فى نقض المواثيق». والتى صور فيها كذلك العلاقات بين الشمال والجنوب كعلاقات سخرة وأن الكنيسة وهى التى مثلت صوت خلاص لأهل الجنوب، وصور الشماليين كأنهم شياطين والجنوبيين كأنهم ملائكة، كما برزت كتابات د. منصور خالد «هكذا تحدث جون قرنق»، وغيرها، وازدهر فى هذا الإطار أدب الشكوى وثقافة الكراهية التى وقف عليها شباب ساخط وبتمويل سخى من الهيئات الاستخبارية والجماعات ذات الأجندة السياسية وفى فترة من الفترات أصبحت إذاعة الحركة الشعبية لتحرير السودان فاعلة ومسموعة أكثر من إذاعة أم درمان، وبقية الإذاعات العربية، ولكن ما لبثت أن تلاشت هذه الهيبة الأسطورية لثقافة الحركة الشعبية وخطابها السياسى على الأخص بعد وصول الحركة الإسلامية واستلامها للسلطة السياسية فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩.

ومع أن نظام الإنقاذ استطاع عن طريق التعبئة العسكرية والجهاد وإعطاء الحرب مع جون قرنق أولوية، وتدمير هياكل حركة الجيش الشعبى لتحرير السودان مما أدى إلى انقسامه، وانفضاض الكثيرين عنه حتى إن قوام جيشه تناقص من مائة ألف أو يزيد إلى ما يقل عن الخمسين ألفاً، ولكن النجاح الأكبر للحركة الشعبية تمثل فى نجاحها فى نقل دائرة الحرب خارج نطاق الجنوب حيث أصبح لها وجود معتبر فى جبال النوبة بقيادة المرحوم يوسف كوة، والقائد عبد العزيز الحلو، كما تمددت فى مناطق الانقسنا والفونج تحت قيادة العمدة أبو شتولا والقائد مالك عقار، وكذلك سعت الحركة فى عام ١٩٩١ للدخول إلى مناطق دارفور حيث أرسلت جيشاً بقيادة أحد أبناء الفور المنشقين عن الحركة الإسلامية وهو المرحوم داود يحيى بولاد وفى معيته عبد العزيز الحلو القائد الثانى لمنطقة جبال النوبة وكان يهدف للتحصن فى سلسلة جبل مرة المنيعة وكان تحت قيادتهما خمسة آلاف مقاتل، ولكن تمت إبادة الحملة عن آخرها، نسبة لأن المجتمع المحلى بكل مكوناته رفضها، بما فى ذلك القبائل الأفريقية الفور والزغاوة، التى ناصرت الحكومة، وحاربت مع الجيش القومى متناسية خلافاتها الداخلية وصراعاتها المتأججة حول المرعى والماء والتى راهن عليها قرنق فى محاولاته الأولية فى اختراق دارفور.

وقد وجدت الحركة الشعبية فى بداية التسعينيات أن الخريطة السياسية الإقليمية قد تغيرت حيث سقط نظام منجستو الشريك الاستراتيجى لجون قرنق، كما برزت إريتريا كداعم لنظام الإنقاذ كما أدى تفكك الاتحاد السوفيتى وسقوط الكتلة الاشتراكية إلى حرمان الحركة الشعبية من مدد الأممية، كما استدارت ليبيا لتصبح حليفاً لنظام الإنقاذ كما توجست يوغندا فى البداية من بروز نظام قوى فى السودان، أخذ يقوى فى حركة جيش الرب، حتى يوازن بها الجيش الشعبى لتحرير السودان، دفعت هذه المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية أن يرجع جون قرنق مرة أخرى للجذور الأصيلة التى نهضت عليها حركة الثورة والمقاومة فى جنوب السودان وهى بريطانيا وإسرائيل وأوروبا الغربية والولايات المتحدة والكنيسة العالمية ولكن برز نضج وشطارة ودهاء قيادة الحركة الشعبية حينما استطاعت إعادة علاقاتها من إريتريا وأثيوبيا، وكذلك الدخول فى تحالف مع قوى السودان القديم، وكل المجموعات والكيانات والأحزاب المتضررة من قيام سلطة الإنقاذ وبرز ذلك فى مؤتمر القرارات المصيرية والذى عقد فى اسمرا فى عام ١٩٩٦ بزعامة من الحكومة الإريترية وحضور من أمريكا والدول الأوروبية الذى أدى لقيام التجمع الوطنى، وفى إطار مفهومية سياسية وبرنامج سياسى اعتمد العنف والثورة، ضم كل القوى السياسية المناهضة للإطاحة بنظام الإنقاذ، وأصبح السيد محمد عثمان الميرغنى، رئيساً للتجمع الوطنى الديمقراطى، وجون قرنق

حسن مكى

أميناً عاماً وقائداً للواء السودان الجديد المناط به إحداث التغيير العسكرى.

ولعل أبرز نجاحات الحركة ظهر فى تمددها فى منطقة جنوب النيل الأزرق وبلغ هذا النجاح قمته حينما بسطت الحركة سيطرتها على مدينة الكرمك فى عام ١٩٨٨. وهى مدينة حاكمة ما بين أثيوبيا والسودان، كما يمتد منها طريق إلى مدينة الدمازين التى تخزن المياه للسودان ومصر، كما تتولد فيها الكهرباء التى تغذى معظم السودان، ومن سخريات الأقدار أن زعيم السودان حينها محمد الميرغنى سافر للعراق وأحضر كميات من العتاد العسكرى مكنت القوات المسلحة من استرداد الكرمك، ولكن بعد عشرة أعوام من ذلك أصبح السيد محمد عثمان الميرغنى رئيساً للتجمع الوطنى الديمقراطى المعارض وشريكاً لجون قرنق مما أدى إلى إسقاط الكرمك مرة أخرى فى يد جون قرنق وما تزال حتى يومنا هذا تسيطر عليها قوات جون قرنق تحت قيادة شريك من أبناء منطقة الفونج وهو القائد مالك عقار. وحينما زار وزير الدولة الفرنسى للشئون الخارجية فى يونيو ٢٠٠٤ الخرطوم، ودارفور أعقبها بزيارة أخرى لجون قرنق فى المدينة الشمالية المهمة مدينة الكرمك فذلك أمر له دلالاته ومغزاه.

أما بالنسبة لشرق السودان، فقد كان التجمع الديمقراطى متردداً فى قيام حركة ثورية مسلحة قوامها جمهور البجة، نسبة لأنها منطقة نفوذ للسيد محمد عثمان الميرغنى، والذى لم يكن راضياً على خروج البجة من تحت عباءته، خصوصاً أنه كون جيش الفتح كذراع عسكرى للاتحاد الديمقراطى.

ومهما يكن فقد انتهت التسوية فى مؤتمر أسمرا بالاعتراف بمؤتمر البجة تحت قيادة أحد أبناء المنطقة (أحمد محمد طاهر) وإن ظل تسليحه وتمويله وحركته محدودة، بينما تم التركيز على تنظيم آخر وهو تنظيم الفهود الحرة أو أسود الرشايدة، وهى قومية ذات جذور عربية هاجرت من الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر طلباً للمرعى وتوطنت فى مناطق البجة، وأصبحت كالبجة عابرة للحدود السودانية الإريترية، وإن كان ٨٠٪ منهم يقيمون فى الطرف السودانى.

وينظر الرشايدة لعلاقاتهم مع السلطات السودانية من خلال قضيتين:

القضية الأولى: هى قضية الاعتراف بكيانهم وإيجاد نظارة لهم وتعارض هذا القبائل المحلية، أى قبائل البجة صاحبة الأرض والتى لا ترفض وجودهم ولكن ترفض تخصيص كيان على أرض تقتطع لهم كمشيخة مستقلة.

أما الأمر الثانى فيتعلق بالصدام الشرس الذى وقع بينهم وبين سلطة ثورة الإنقاذ، حينما تصدت للمجموعات المتخصصة فى تهريب البضائع عبر البحر الأحمر وعبر إريتريا وصادرت بضائعهم وعرباتهم وطاردت شبابهم، والذى وجد الفرصة فى تصفية حساباته مع الحكومة فى تنظيم الفهود الحرة، والذى وجد التسليح

والتدريب والتمويل من إريتريا وتحت عباءة التجمع الوطنى الديمقراطى.

الحركة الشعبية وحريق دارفور:

كان من أبرز مكونات التجمع الوطنى الديمقراطى، وحلفاء جون قرنق فى دارفور «اتحاد السودان الفيدرالى الديمقراطى»، الذى يتزعمه السياسى السودانى المخضرم أحمد إبراهيم دريج (من قبيلة الفور) ونائبه دكتور شريف حرير من (قبيلة الزغاوة) وقد انصب جهدهم طيلة فترة نشاط التجمع الوطنى بتغذية النشاطات العسكرية للتجمع الوطنى فى كل من جنوب السودان، وجنوب النيل الأزرق والشرق، ولكن حينما نضجت اتفاقيات الشراكة السودانية الجنوبية بين الحكومة السودانية وجون قرنق وجد الاتحاد الفيدرالى نفسه معزولاً، وحينما طلبت قيادات دارفور من جون قرنق تمثيلهم فى المفاوضات الجارية مع الحكومة تعلل بأن الأمور لم تنضج فى دارفور، وأن الحريق لم يشتعل بما فيه الكفاية حتى ينتبه إليه العالم الخارجى، ويصبح جزءاً مهماً فى محاولات قسمة السلطة والثروة وإعادة هيكلة السودان القديم، لافتاً نظرهم إلى ما قام به من محاولات لإشعال الثورة فى دارفور، وكيف ضاع خمسة آلاف من رجاله غنيمة سهلة فى يد الحكومة السودانية فى عام ١٩٩١ بقيادة المرحوم بولاد. ولكن تنصل قرنق من التزامه تجاه بث الحياة فى «اتحاد السودان الفيدرالى الديمقراطى» كان يعود لسبب آخر، وهو أنه بالتعاون مع الاستخبارات الإسرائيلية وإريتريا كان قد أعد فيلقاً قوامه ألف ومائتا مقاتل من أبناء الفور والزغاوة والمساليت وتحت قيادة حلفائهم اليساريين ومنسوبى الحزب الشيوعى السودانى، وأصبح لهذا التنظيم اسم مشتق من الاسم الأصلى للحركة الشعبية لتحرير السودان حيث أصبح اسمه حركة تحرير السودان وبقيادة محام من الفور يسمى عبد الواحد محمد أحمد النور، بينما ذهبت الأمانة العامة وقيادة الجيش لأحد أبناء الزغاوة ويسمى منى اركاوى مناوى، واستفادت الحركة من العداوات التاريخية القديمة والمتأصلة فى نفوس أبناء المنطقة والأوهام المتعلقة بوجود مشروع لاستئصال الزرقة من أهل دارفور، وتعود أوهام هذا الأمر إلى مؤتمر عقد فى عام ١٩٨٧ باسم تضامن القبائل العربية دعمته بعض الجهات الليبية فى محاولاتها لتطويق تشاد، ومن العجيب أن القبائل العربية الكبرى كالرزيقات قاطعت هذا المشروع، بينما التقت فيه القبائل البدوية الصغيرة، ولم يكن لهذا المشروع أى أهمية تذكر، لولا خلفيات الحرب التشادية الليبية. إذ وقر فى ذهن القبائل التشادية الزنجية، أن تسليح ليبيا للقبائل العربية التشادية بقيادة أحمد أصيل وغيره، القصد منه استضعاف مركز القبائل غير العربية الأخرى مثل القرعان. والتى كانت تساند حكومة الرئيس حسين هبرى كما تصاعدت هذه النبرة فى كل مناطق الحزام السودانى على غرار ما حصل من صراع بين موريتانيا والسنغال، وبين الطوارق وإخوانهم فى مالى





حينما طلبت قيادات دارفور من جون قرنق تمثيلهم فى المفاوضات الجارية مع الحكومة تعلل بأن الأمور لم تنضج فى دارفور، وأن الحريق لم يشتعل بما فيه الكفاية حتى ينتبه إليه العالم الخارجى، ويصبح جزءاً مهماً فى محاولات قسمة السلطة والثروة وإعادة هيكلة السودان القديم

والنيجر، ولكن خمدت هذه الحركة فى الحزام السودانى حينما اتجهت ليبيا لإحياء فكرة الجامعة الأفريقية والأفريقانية، خصوصاً بعد رفض القادة الأفارقة للحصار المفروض على ليبيا، ولكن ما إن تلاشت آثار المشروع فى مناطق الحزام السودانى الأخرى حتى ترسخت فى دارفور. وقامت على أساطير وأوهام أن هناك قبائل تريد استئصال قبائل حركات سياسية وعسكرية.



وما لا يعرفه الكثيرون الدور المصرى فى نشأة السودان، بل حتى لفظ السودان نفسه إنما أطلقه الخديوى إسماعيل فى أحد فرماناته. مسمياً به هذا الكيان، والذى صنعته مصر وعلى مراحل، ففى المرحلة الأولى تم احتواء سلطنة الفونج والتى كانت تحكم السودان النيلى الوسيط والذى كان يجاور مصر وذلك فى عام ١٨٢٠ ثم أدخلت مصر فى إطار مملكة الفونج مناطق جنوب السودان الحالية فى عام ١٨٢١ وبعد ثلاثة وخمسين عاماً الحقت بها أى فى عام ١٨٧٤دارفور وأطلق الخديوى إسماعيل على هذا المولود المؤلف من ثلاثة كيانات اسم السودان وظل الحنين للاستقلال يراود أصحاب مملكة دارفور وهم أساساً الفور والزغاوة والمساليت وبعض القبائل الأفريقية الأخرى الصغيرة، علماً بأن دارفور تبلغ مساحتها مائتى ألف ميل مربع وتشاركها ١١٣ قبيلة معظمها تدعى النسب العربى ومع أن دارفور هى المنطقة الوحيدة فى السودان التى ليست بها كنيسة ويعتنق كل أهلها الإسلام، بل إن أكبر نسبة فى حفظ القرآن الكريم ربما توجد وسط قبائل الفور، إلا أن دارفور كذلك ظلت منطقة حروب وصراع مع سلطنة وداى أى تشاد فى تجاه الغرب، وفى حروب مع القبائل العربية العابرة للحدود السياسية لدارفور كالرزيقات والزيادية والمحاميد، كما ظلت الحروب سمة مع القبائل التى تشاركها الأرض كالقمر والبرتى والبرقد والبرنو وغيرها ولم تهدأ دارفور لا فى ظل الحكم المصرى ١٨٢١ . ١٩٨٥ ولا فى إطار المهدية ١٨٨٥ . ١٨٩٨ ولا حتى فى ظل الحكم الثنائى.

ومن المعروف أنه حينما انشغل الخليفة عبد الله، بمهام التصدى لحملة كتشنر فى ديسمبر ١٨٩٨، انسحب على دينار من أبناء سلاطين الفور وأبناء عمومته هاربين إلى الفاشر، حيث أحيوا مملكة أجدادهم من جديد ابتداء من عام ١٨٩٩, واعتمد السلطان على دينار تعاليم واوراد الطريقة التجانية كأساس روحى لدولته بدلاً من الأيديولوجية المهدوية، كما سعى لإقامة علاقات جوار مع ليبيا والأشراف فى العالم الإسلامى، وحينما أطلت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ قام بمراسلة سلطان تركيا، وكانت عواطفه مع المحور الذى يضم ألمانيا وتركيا فى وجه الحلفاء مما جلب عليه غضب بريطانيا التى قذفته بالطائرات وربما كانت أول منطقة يستخدم فيها الطيران العسكرى فى أفريقيا وراء الصحراء، كما أحيت بريطانيا العداوة التاريخية ما بين القبائل الرعوية البدوية ذات الجذور العربية، ومملكة الفور بقيادة السلطان على دينار وقامت بتسليح قبيلة الكبابيش فى حملتها لاستعادة دارفور وتم ذلك فى عام ١٩١٦ بقوة الحديد والنار وقتلت السلطان على دينار وأنزلت علم مملكة دارفور ورفعت العلمين المصرى والإنجليزى فى مكانه ليستبدلا بالعلم السودانى فى ١٩٥٦/١/١.

ومنذ ذلك الوقت ترسخ فى أذهان أهل دارفور وجود كيانين: كيان رعوى بدوى تمتد جذوره إلى بقية أنحاء السودان بل وكذلك بقية أنحاء أفريقيا لأن حياته تقوم على البداوة وعبور الحدود طلباً للكلأ والمرعى، ونسبة لذلك فإنه يظل مرتبطاً بالسلطة القومية العابرة للحدود المحلية والولائية، وكيان قوامه القبائل الزراعية المرتكزة فى أرضها، وما ينتج من علاقات مع الأرض، ومع أن هذه القبائل، قبائل مسالمة، كما أن استقرارها يخلق بينها تجانساً مع الجغرافيا والتاريخ إلا أن علاقاتها تدهورت بشدة مع القبائل الرعوية على الأخص بعد موجة الجفاف التى ضربت الساحل الأفريقى ابتداء من سبعينيات القرن المنصرم، مما عرض مزارع هذه القبائل للرعى الجائر من القبائل البدوية وحدوث الاحتكاكات والصراعات المألوفة، ولكن الجديد هو استخدام السلاح النارى الفتاك بدلاً من الأسلحة العتيقة، ولكن من أين جاء السلاح الفتاك؟

الجغرافية السياسية لدارفور

يمكن القول بأن من يحكم دارفور يستطيع تشكيل مناطق الحزام السودانى، وتاريخياً اخترق الفرنسيون منطقة دارفور قبل الإنجليز، ووصل قوادهم إلى مناطق دار مساليت حدود دارفور الغربية فى عام ١٩٠٠، وكان ممكناً أن تكون دارفور منطقة نفوذ فرنسى لولا المقاومة الباسلة التى أبداها السلطان تاج الدين ضد الفرنسيين، أما الأمر الثانى فهو انسحاب القوات الفرنسية بقيادة مارشان، حينما جابهت القوات الإنجليزية فى فشودة فى عام ١٨٩٩, ويقال أنه لولا انسحاب مارشان لوقعت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٨٩٩ بدلاً من ١٩١٤ وربما تغير تاريخ الدنيا حينها لأن فرنسا ستكون جزءاً من المحور ضد بريطانيا العظمى، ومهما يكن فقد ظلت دارفور مركزاً لحركات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى تشاد، ومن رحم دارفور خرجت حركة فرولينا ١٩٦٥ والتى أسست لمشروع حكم النخب الإسلامية لجمهورية تشاد بدلاً من استئثار النخب التشادية المنتصرة بالسلطة والثروة، كما ظلت قبائل دارفور تسهم فى تشكيل حركة الحياة فى تشاد وأفريقيا الوسطى، ومن دارفور حكم إدريس ديبى تشاد والحق هزيمته المروعة بالقوات الليبية بقطاع ازو، ومن دارفور كذلك خرجت قوات إدريس ديبى التى أبعدت قبائل القرعان من السلطة لمصلحة نخب قبيلة الزغاوة، مما جعل السلاح النارى يتدفق من ليبيا وتشاد، كل يعزز من حليفه فى دارفور.



وحينما ضعفت هياكل السلطة فى أفريقيا الوسطى التى كانت يحكمها الرئيس السابق لى باتاسيه قامت ليبيا بنقل المعارضة التشادية لتصبح حرساً للرئيس باتاسيه، كما عززت ذلك بنقل قوات سودانية وليبية وجيبوتيه لحراسة وضع متهالك، ومع أن السودان لم يكن من مصلحته التدخل العسكرى فى أفريقيا الوسطى، ولكنه ربما فعل ذلك لأنه خشى أن تصبح أفريقيا الوسطى محطة للحركة الشعبية لتحرير السودان، ولكن لم تنجح الوصفة الليبية وتهالك نظام باتاسيه فى أواخر نهايات ٢٠٠٢ وتقهقر جيش أفريقيا الوسطى إلى دارفور وبيع سلاحه لمن طلب

وبأتفه الأثمان كما أصبح بعض مكونات الجيش نواة لما عرف بعصابات النهب المسلح، وفى ظل هذه الظروف المعقدة، تكاملت أبعاد انقسام المؤتمر الوطنى الحاكم، الذى انشق إلى جناحين، جناح مع السلطة احتفظ باسم المؤتمر الوطنى وجناح اختار مسمى المؤتمر الشعبى.

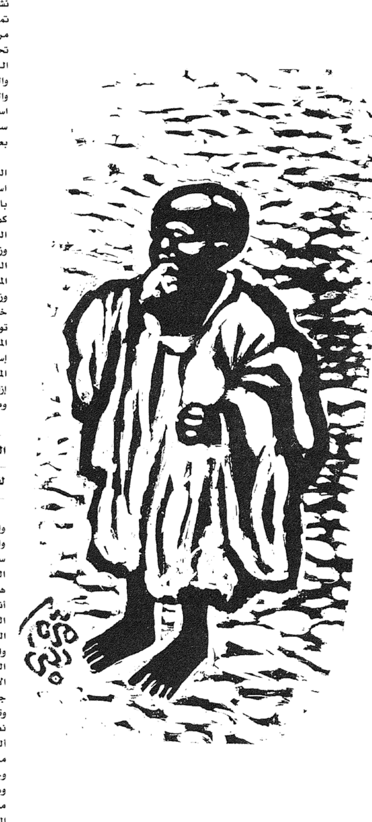
وكان لانقسام التيار الحاكم فى السودان إلى فريقين أحدهما وقف مع الدولة بقيادة الرئيس البشير كحقيقة واقعة، وكإطار للمشروعية والشرعية والآخر انحاز إلى دكتور الترابى، بينما احتار قسم لا يستهان به، وأصبح فى منزلة بين المنزلتين وفقد النظام بفقدانه الدكتور الترابى ليس فقط المرجعية الروحية، ولكن الرجل بعيد النظر الذى كان يتحسب للمآلات ويخطط وفق ذلك ولكن أخطأ د. الترابى فى حساباته مع الرئيس البشير ومهما يكن، فإن انقسام السلطة الحاكمة أدى إلى إضعاف هياكلها، ومع أن السلطة الحاكمة حاولت أن تعوض ذلك بالانفتاح على الغرب، وبالأخص أمريكا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن حساباتها أخفقت ولم تأت بثمار واضحة إلا على مستوى العلاقات العربية وعلى الأخص مصر ودول الخليج.

حينما شعر الترابى بأن حساباته فى أمر السلطة قد طاشت وأن هياكل الدولة تنفلت عن مشروعه، أخذ فى التركيز على أبناء الغرب أى دارفور كعصبية تنظيمية وسياسية وجعل نائبه من هناك، وقد تحدث فى مجالسه بأن الإمام المهدى وجد النصرة فى الغرب، ولم يكن دقيقاً فى ذلك لأن الغرب القصى آخر من ناصر الإمام المهدى، اللهم، إلا إذا كان يقصد الخليفة عبد الله التعايشى فهو محسوب كذلك على تيار الغرب العروبى.

وأخطأت الحكومة حينما تعقبت مؤيدى دكتور الترابى من أبناء الغرب فى هياكل الدولة، وتكونت حركة العدالة والمساواة كواجهة من واجهات المؤتمر الشعبى، ولكنها ما لبثت بعد اتصالها تنظيمياً وحركياً بالقيادات الغربية، أن أصبحت لها شخصيتها وكينونتها الخاصة، وأصبحت مرشحة للخروج من عباءة الترابى كما فعل تلاميذه الذين انفردوا بالسلطة.

ووجدت الحركة أرضاً خصبة لممارسة نشاطها فى ألمانيا حيث انعقد مؤتمر المهمشين بدعوة وتمويل من المنظمة الألمانية AKE فى مدينة هتنجن فى أبريل ٢٠٠٣م.

وأصبح دكتور على الحاج نائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى رئيساً للمؤتمر كما التقى وزير الخارجية الألمانى فيشر بقيادة الحركة وبرز اسم الحركة فى ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٢ فى مدينة الفاشر، حينما قامت بالتنسيق مع حركة تحرير السودان بضرب المدينة واحتلالها لعدة ساعات وتدمير ست طائرات عسكرية وكانت هذه الضربة الموجعة التى أذهلت السلطة وكسرت هيبتها فى دارفور، المناسبة التى لفتت الرأى العام المحلى والعالمى إلى أن الفوضى والثورة فى دارفور قد دخلت مرحلة اللا عودة، كما أصبح قادة الحركتين نجوماً على موائد الفضائيات والإذاعات وقبل ذلك الاستخبارات. وتركزت حركة العدالة والمساواة فى ألمانيا لوجود عدد من شباب الزغاوة المثقفين هناك واستفادتهم من خدمات الكنيسة الافنجلكانيد الألمانية AKD ومنظمة سودان فوكل بوينت الألمانية.



ومع أن الاستخبارات الإسرائيلية والت نشاطها فى دارفور فى الظلام مخفية نشاطاتها، إلا أن التقارير تفيد أن إسرائيل تمارس نشاطها من أسمرا التى أصبحت مركزاً لقيادات حركة العدل والمساواة وحركة تحرير السودان، ونائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى، وأبرزت الصحف الإريترية والتليفزيون الإريترى صور قيادات الثورة والتمرد فى دارفور فى حضرة الرئيس اسياس افورقى ومساعده الأمين محمد سعيد، كما تواترت الأنباء عن لقاءات بعضهم بالقنصل الإسرائيلى هناك.

كما أعلن خمسة من أعضاء المكتب السياسى للتجمع الفيدرالى بالسودان استقالتهم نسبة لزيارة مسئول كبير بالتجمع ويتكلم باسم دارفور لإسرائيل، كما نشرت جريدة The Jerusalem post الصادرة فى السابع من أغسطس ٢٠٠٤ أن وزارة الخارجية الإسرائيلية تقوم بتعبئة التنظيمات اليهودية لدعم أجهزة الإغاثة المتعلقة بدارفور، تحت واجهة جامعة، وأن وزير الخارجية الإسرائيلى سلفان شالوم خاطب مجلس الوزراء قائلاً إن إسرائيل تواصل مساعيها لمساعدة الجهود الدولية المتعلقة بالمأساة الإنسانية بدارفور وأن أمة إسرائيل التى كانت لها معاناة عظيمة فى الماضى لا يمكن أن تقف مكتوفة الأيدى إزاء الآلام التى تعصف بالآخرين فى دارفور وما خفى أعظم.

التوظيف السياسى

لقضايا التخلف والفقر:

خلقت اتفاقيات تقاسم السلطة والثروة ما بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان، دافعية سياسية جديدة فى كثير من أطراف السودان خصوصاً أن هذه الاتفاقيات تنقل هياكل السلطة من المركز إلى الأقاليم، كما أنها أوجدت منافذ للتدخل الدولى منها العسكرى والسياسى والاقتصادى، أما العسكرى فيتمثل فى قوات المراقبة والرصد والتى أصبحت تنتشر مع انتشار مناطق النزاع أى فى جبال النوبة وكذلك سيتم الانتشار فى جنوب السودان، ومناطق جنوب النيل الأزرق والشرق وأبيى ودارفور، وتشكل هذه الرقعة من المساحة أكثر من نصف السودان لأن مساحة الجنوب ٢٥٠ ألف ميل مربع ودارفور مائتى (٢٠٠) ألف ميل وجبال النوبة ٣٢ ألف ميل مربع وجنوب النيل الأزرق ٢٦ ألف ميل مربع، وهذه بدون شك أكثر من خمسمائة ألف ميل مربع، ويسكنها أكثر من ثلث سكان السودان، كما أنها تتميز بأنها سودان المستقبل ففيها تكمن الموارد الطبيعية من مياه وبترول ونحاس وتعتبر حفرة النحاس فى دارفور جزءاً من حزام اليورانيوم الذى يمتد من النيجر ومروراً بأفريقيا الوسطى وانتهاءً

بالكنغو وزائير، ومن المعروف أن الولايات المتحدة ظلت تعتمد على اليورانيوم الأفريقى، وحتى قنبلة نجازاكى وهيروشيما تم تطويرهما من اليورانيوم المستخرج من الكنغو/ زائير، وقد شهد العالم كيف حاولت الولايات المتحدة جعل يورانيوم النيجر أحد مسببات غزو العراق.

ولكن على الثراء الكامن فى هذه المناطق من السودان، فإن إنسان هذه المناطق ما يزال فقيراً، ومنهكاً، وأصبح لا يعرف فى السنين الأخيرة إلا صناعة الحرب، وأدت ضغوط الحاجة والفقر والعوز إلى الاستجابة لمؤثرات الدولار، لأن البطون الجائعة لا تعرف المعانى العالية. ونتيجة لذلك شاعت الفوضى، كما شاع التجنيد القسرى لمصلحة مختلف التنظيمات والقبائل والأحزاب وأمراء الحرب، وتكشف الخريطة العسكرية مثلاً لجنوب السودان أن هناك ستة وعشرين مجموعة عسكرية منظمة بجانب جيش الحكومة وجيش الحركة الشعبية لتحرير السودان، وبعض هذه المليشيات لها هياكل سياسية وعسكرية مثل قوات دفاع جنوب السودان. وبعضها يملك الهياكل العسكرية مثل مجموعة بحر الغزال وقوات دفاع جنوب السودان وقوات السلام قارينق وقوات فشودة المتحدة وقوات السلام الناصر، وقوات السلام وات وقوات السلام شمال أعالى النيل وقوات المابان، وغيرها، ولا تقل قوة هذه الجماعات المسلحة عن الثلاثين ألف مقاتل، ولكن لا يملكون شيئاً سوى الذخيرة والسلاح، وكذلك ينتشر السلاح فى دارفور، حيث تقدر بعض الجهات، أن فى دارفور ما لا يقل عن نصف مليون قطعة سلاح موزعة على القبائل والحركات العسكرية المسيسة، وكذلك ينتشر السلاح فى ولاية كردفان وسط القبائل الرعوية، والتى كانت تطلق عليها الدوائر الغربية اسم المراحيل، والتى تم تسميم سمعتها ووصمها بذات الطريقة التى حدثت للقبائل البدوية فى دارفور والتى أطلق عليها مصطلح الجنجويد.

وفى ظل انتشار ثقافة العنف يبدو الأداء الحكومى فى هذه المناطق ضعيفاً ومتلاشياً، بينما يزداد التوظيف السياسى فى مختلف القوى السياسية التى تحاول أن تتحالف مع الحركات الرافعة للسلاح، وبرز آخر مشهد لذلك بقبول التجمع الوطنى الديمقراطى المعارض لحركة تحرير السودان فى عضويته، كما تسعى حركة العدل والمساواة لذات الوضعية.



وفى ظل تزايد التدخل الدولى ويكفى أن هنالك ثلاثة جيوش أجنبية ظلت تدخل الأراضى السودانية، ومنها الجيش اليوغندى المرابط فى المناطق الاستوائية بحجة مقاومة جيش الرب والجيش التشادى الذى يدخل فى معارك ضد ما يسمى بالجنجويد ويقدم أحياناً الذخيرة والسلاح لحركات التمرد، والجيش الإريترى الذى خلق واقعاً على الأرض فى منطقة همشكوريب بشرق السودان، وفى ظل هذه المتغيرات والضغوط تتعرض الحركات السياسية السودانية ذات الطبيعة القومية للتآكل والقسمة، فالحزب الاتحادى الديمقراطى مثلاً لم تبرز فيه قيادة فى قامة الزعيم المرحوم إسماعيل الأزهرى، وأصبحت تنازعه ثلاثة مراكز، منها المركز الذى يقوده السيد محمد عثمان ميرغنى والذى يعتمد على أتباعه من الطريقة الختمية، علماً بأن الولاء فى الطريقة الختمية نفسها قد ضعف، كما أن الأداء السياسى اليومى يكاد يكون فى طور التلاشى.

والمجموعة الثانية بقيادة الشريف زين العابدين الهندى وهى أحسن حالاً نسبة لارتباطها بالحكومة ونسبة لوجودها فى ميدان العمل السياسى اليومى ولكن طاقاتها محدودة ومواردها السياسية والتنظيمية أقل بكثير من التحديات الشاخصة، أما المجموعة الثالثة فيجمع بينها الاحتجاج والرفض ولكنها لم تؤسس كياناً محسوساً.

أما عن حزب الأمة، فهناك المجموعة المحورية بقيادة السيد الصادق المهدى وأخرى ممثلة فى الحكومة بقيادة ابن عمه مبارك الفاضل بينما اكتفى الطرف الثالث بإعلان إمامه السيد أحمد المهدى كإمام للأنصار.

كما يعيش الحزب الشيوعى أسوأ حالاته حيث خرجت عليه حالتان بينما المجموعة التاريخية غلبت عليها عقلية العزلة، واختارت التغلغل وسط تحركات الرفض والثورة المسلحة ولذلك فإن بعض كوادر الحزب مبثوثة فى الحركة الشعبية لتحرير السودان وحركة تحرير السودان، ولا يكاد يبرز أثر للحزب إلا وسط تجمعات طلابية محدودة.

وما ينطبق على هذه القوى السياسية يسرى كذلك على كيان الحركة الإسلامية الذى تضربه الحيرة والتردد والإحباط، ما بين مشروع المؤتمر الشعبى بقيادة الترابى الجانح تجاه العنصرية وتصفية الحسابات مع الحكومة وما بين ضعف المؤتمر الوطنى وتآكل كيانه الخاص فى إطار التشظى والضعف الحادث فى هياكل السلطة والدولة، وفى إطار هذه الصورة يصعب التنبؤ بالتطورات السياسية والمآلات المستقبلية.

تكثفت التدخلات الخارجية الطامعة فى هضم السودان واحتواء مصر، وكما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالى فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان



رؤية للمستقبل:

تقف الأوضاع السياسية فى السودان فى مفترق طرق، كما تبدو هناك استحالة مادية فى القضاء على حركات التمرد والثورة فى شرق وغرب وجنوب البلاد فى وقت تزايدت فيه التدخلات الدولية، إن السودان تشكله على الأقل، ثلاثة بلدان لكل بلد خصائصها السكانية والجغرافية والتاريخية (السودان النيلى الأوسط، ودارفور، وجنوب السودان) بل إن كل كيان من هذه الكيانات فيه من التعددية العرقية والثقافية ما يجعله نسيج وحده، وتأثرت هذه المنطقة بالتدخلات العرقية والقبلية على طول الحدود مع جيران السودان التسعة، وقد أغرى اتساع مساحة السودان بعض جيرانه باقتطاع أجزاء كبيرة منه، حيث أخذت كينيا مثلث المى وهى منطقة ضخمة، وغنية بالموارد، كما وضع المزارعون الأثيوبيون أياديهم على سهول الفشقة الخصبة، لخلق أمر واقع، كما أن حدود السودان التى تزيد على ستة آلاف كيلو متر غير مخططة ومتداخلة مع دول الجوار، كما أن هذه الحدود التى خطها المستعمر بصورة عشوائية قسمت القبائل السودانية مع دول الجوار، فالزاندى ما بين السودان والكنغو. زائير والأشولى والمادى والكاكوا ما بين السودان ويوغندا، والتبوسا ما بين السودان وكينيا، والأدوك والنوير والأنواك والقمز وقبائل بنى شنقول ما بين السودان وأثيوبيا، والبجا ما بين السودان وإريتريا والبشاريين والنوبة ما بين السودان ومصر.. إلخ.

وفى إطار هذه التعددية تكشفت التدخلات الخارجية الطامعة فى هضم السودان واحتواء مصر، وكما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالى فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان، وازدادت أهمية السودان كذلك باكتشاف البترول واليورانيوم فيه، كما ازدادت أهمية أمن البحر الأحمر الذى يشاطئه السودان.

وفى ظل هذه المتغيرات يمكن القول بأن السودان يحتاج لحكومة قوية يقوم حولها ما يشبه الإجماع الوطنى، بمعنى أنها تجمع بين عنصرى القوة والتمثيل لمكونات السودان وهذا يحتاج لرؤية عميقة واجتهادات، لأن وصفة العودة للحكومات الحزبية ثبت عدم مقدرتها على الاستجابة لمشكلات السودان ثلاث مرات، كما أن ذات الوجوه التى تطرح نفسها كمخلص سبق أن جربت، وانتزعت منها السلطة على النطاقين، فى الأطراف والمراكز ولا يمكن التعويل عليها فى مرحلة دقيقة ومركبة كما هو حادث الآن.

ومن الناحية الأخرى، فإن مسوغات التجديد والتفويض للحكومة الحالية غير مبررة، لأنها فشلت فى إقامة مؤسسات حكم قوية وقادرة على المحاسبة وفشلت فى قضية الشفافية كما فشلت فى ترقية أوضاع الشورى والداهية الكارثة فشلها فى حفظ الأمن مما أدى إلى انقلاب أوضاع دارفور. كما أن الفشل فى حفظ الأمن يعنى فشلها فى رعاية وتنمية المؤسسات القومية التى قام عليها السودان وظلت مسئولة عن حفظ حدوده وأوضاعه. ولا توجد طريقة لتحديد على من تقع مسئولية الفشل إلا بإطلاق القول على عمومه بأنه فشل الحكومة وفشل قيادة المؤتمر الوطنى التى أجهضت مذكرة العشرة، التى أبعد بمقتضاها د. الترابى لتحل محله عقلية قابضة، استغنت بذهاب الترابى عن المطلوبات والحيثيات المتعلقة بذهابه من شورى ومحاسبة ومؤسسية وشفافية.

أدى تعقيد الأزمة السودانية، إلى فتح شهية الأجندة الخارجية والتوظيف السياسى، حيث تحوم الذئاب حول الجثة وتحلق الصقور للانقضاض على الفريسة الضعيفة، وفى ظل هذه الأوضاع، فلا يمكن استنزال سودانيين من المريخ لحكم السودان، ويظل الأمر معقوداً بحوار سياسى مسئول بين كافة القوى الوطنية لإيجاد حكومة تراض وطنى وقومى فى مهلة تسبق الذهاب للانتخابات لترتيب الأوضاع. ووطنى وقومى هنا كلمتان مترادفتان.

وفى هذا الإطار فلا غنى عن الحريات وللحريات تبعاتها من سيادة قانون وقضاء قوى ومستقل وكذلك المحاسبة وتقتضى أن تكون للجهاز التشريعى والقضاء صلاحية محاسبة رئيس الدولة ومعاقبته وكذلك سيادة الشورى والشفافية وهى تحصيل حاصل المبدأين الأولين.

لقد دفع اليأس بعض مكونات النخب لطرح فصل الجنوب، وفصل الجنوب سيؤدى إلى تفتيت السودان وجواره وخلق دويلات ضعيفة على غرار الحالة الصومالية وطرح البعض الفيدرالية بين كيان السودان وهو حل تحت الاختيار وطرح آخرون الفيدرالية بينما طرح البعض الوحدة مع مصر وكل هذه الأطروحات تفيد بأن السودان يبحث عن مخرج وعن حل وتشخيص الأزمة نصف الحل وأرجو أن تكون هذه، مساهمة فى هذا الاتجاه. ■

جناية التاريخ والجغرافيا

ألـــيـــكــــس دى وال

تتسم مناطق دارفور الطبيعية بجمال قاس، والقليل منها أشد قسوة من مخيم عامو للبدو الرحل. فهو يقع فى أرض قاحلة تكثر فيها الحجارة على سهل تحيط به الجبال التى تشكلت من لُب بركانى قديم. ويحدد منحدر بعيد من الرمل الوردى مسار النهر الموسمى، وادى كُتم. وقد أقمت هناك منذ سنوات فى ضيافة ناظر (شيخ مشايخ) إحدى عشائر البدو الرُحّل العرب المعروفة باسم الجلول. ومع وجود خيامهم السوداء العريضة المنصوبة على الرمال، وإبلهم التى ترعى الأشجار الشوكية، وبعض الممتلكات الضئيلة المتناثرة وإن كانت صنعتها رائعة، كان هؤلاء البدو مادة لكتب الإثنوغرافيا المصورة ذات القطع الكبير. واليوم تقع عامو وسط العنف الذى يشوه شكل دارفور؛ حيث لقى عشرات الآلاف مصرعهم، وطُرد مئات الآلاف من بيوتهم. وقد وقعت أول مذبحة فى الصراع على بعد أميال قليلة من عامو، حين قتلت ميليشيا جانجاويد العشرات من القرويين الذين كانوا ينشدون الأمان فى بلدة كُتم.

التقيت بالناظر المسن، الشيخ هلال، فى عام ١٩٨٥. كانت خيمته معلق بها معدات البداوة من جرار ماء وسروج ورماح وسيوف وحقائب جلدية وبندقية قديمة. وقد دعانى للجلوس قبالته فوق سجادة عجمى فاخرة، واستدعى خادمه كى يقدم لى الشاى الحلو على صينية من الفضة، وأخبرنى أن العالم فى طريقه للنهاية. فى ذلك الوقت كانت دارفور قد أطبق عليها الجفاف وكانت تغيرات مزعجة على وشك الحدوث. وكانت رياح الصحراء الكبرى تدفع بالرمال إلى سفوح التلال الخصبة، وكانت حين تمطر يشق الماء أخاديد عميقة فى التربة الطينية الخصبة على امتداد الوادى. والأسوأ من ذلك أن القرويين الذين كانوا يستضيفون البدو الرحل باستمرار كانوا فى تلك الآونة يحولون دون هجرتهم ويمنعونهم من استخدام المراعى والآبار.

انتقدنى هلال بشدة لعدم تحدثى اللغة العربية كالإنجليز؛ فقد كان كل الضباط الاستعماريين تدرس لهم اللغة العربية الفصحى، وليس اللهجة السودانية الخاصة بدارفور التى تعلمتها.

كما قال لى إن آخر إنجليزى استمتع بضيافته كانت مساعد مأمور المركز ثيسجر، الذى خدم فى كُتم. وكان ثيسجر مشهوراً فى دارفور فى المقام الأول باعتباره رامياً ممتازًا. وفى تلك الأيام كان الضباط البريطانيون هم وحدهم المسموح لهم بامتلاك بنادق تتميز بما يكفى من قوة ودقة للإيقاع بأسد. وفى وقت زيارتى فى عام ١٩٨٥، كانت الأسلحة النارية المملوكة للأفراد نادرة. وقد أعطانى الناظر مذبة من ذيل الزراف حين رحلت. ونتيجة للتغير البيئى أكثر منه بسبب فرق الصيد الاستعمارية، اختفت الأسود والزراف فى الوقت الحالى من كل دارفور، ما عدا أطرافها الجنوبية حيث تمتد الغابات إلى داخل جنوب السودان وجمهورية أفريقيا الوسطى. وفى هضاب شمال دارفور شبه الجدباء، حيث تقل السافانا فى الصحراء، لم نر سوى الغزلان بشكل عرضى.

كان هلال شخصية قيادية، حتى وهو فى الثمانين من عمره وجسمه نحيف وقد انحنى ويكاد لا يرى. ويتحدث الصوفيون. ويكاد يكون كل أهل دارفور أتباع إحدى الطرق الصوفية التى يعود أصلها فى الغالب إلى غرب أفريقيا. عن البركة. وكان هلال يعتقد أن «المشيخة من عند الله. أما درجات المشيخة فمن صنع البشر». وبدلاً من لقب الناظر الذى يتسم بالرفعة من الناحية الرسمية، يتمسك هلال بلقب شيخ الأقل منه ولكن معناه أكبر؛ وهو معروف على امتداد دارفور باسم الشيخ هلال فحسب. واليوم نجد أن اسم ابنه موسى معروف على نطاق أوسع؛ فموسى هلال هو زعيم الجانجاويد، واسمه هو الأول على قائمة الحكومة الأمريكية الخاصة بالمشتبه فى ارتكابهم جرائم حرب.

كان الشيخ هلال فخوراً كل الفخر بأسلوب حياته البدوى. وكان يصر على أن يمتلك الجميع فى قبيلته الإبل. وقال وهو يشير إلى حفيده: «انظر إلى ذلك الصبى الصغير. حتى هو يمتلك الإبل». وكان ذلك يبدو حقيقياً؛ فحتى فى تلك الأوقات العصيبة، كانت عائلة هلال مشهورة بأن لديها عدة آلاف من الإبل، وإن كان الشيخ قد طعن فى السن بحيث لا يمكنه امتطاء أى منها ونادراً ما يراها. كانت قطعانه على بعد ثلاثمائة ميل فى الشمال ترعى أعشاب الصحراء الحلوة بعد المطر. وكان ابن أخيه قد باع مؤخراً ١٢٠ جملاً لتوفير الطعام لأبناء جلدته الجوعى، وأقرض هلال الكثير من ذلك القطيع، الذى كان يتناقص بشكل أسرع مما يعرف هو، لأقاربه الفقراء. وقد قال: «نحن نساعد بعضنا. ولن يضطر الجلول للعمل فى الزراعة».



لكن على مسيرة ساعة من هناك وجدنا مخيماً لجلول فقدوا إبلهم وماعزهم أثناء الجفاف واستقروا فى محاولة للزراعة. ولم يكن القرويون المحليون من جماعة التنجور (وهم أقارب الفور، التى هى أكبر جماعة عرقية فى المنطقة) قد أعطوهم سوى الأراضى الرملية الجافة، بينما احتفظوا لأنفسهم بالأرض الطينية المجاورة للوادى. ولأن وادى كُتم مشهور بتمره الحلو، فهو من بين أكثر الأراضى الزراعية قيمة فى شمال دارفور، وكان التنجور حريصين على تسجيلها قبل وقت طويل من إدراك المزارعين الآخرين لأهمية سند الملكية القانونية للأرض. وشعر فلاحو الجلول بالضيق، وأخذوا يعزقون المرتفعات القاحلة فى محاولة لزراعة القليل من أكواز الدُخن. وبذل الشيخ ما فى وسعه للمحافظة على المظاهر. ففى المساء كان يقدم وجبة سخية من لحم الماعز والأرز، ويعلمنا بالاتجاهات التى يمكن أن نجد فيها أبناءه وإبله. وحين انتهينا، حيث أكلنا أكثر مما يكفى، نادى ابنة أخيه قائلاً: «أحضرى الصنف التالى»! ولم يكن هناك صنف تال.

غزا البريطانيون دارفور (أرض الفور) فى عام ١٩١٦ حيث هزموا جيش السلطان على دينار سليل مؤسس سلطنة الفور فى القرن السابع عشر الذى تقع مقبرته التى أُهملت منذ زمن بعيد فى الجبال التى تبعد مسيرة يوم بالسيارة جنوبى عامو. وكشأن الكثيرين من كبار الزعماء السياسيين فى دارفور، كان سولونج من أصل مختلط، فهو ابن لأب عربى وأم من الفور. ورغم الحديث عن «العرب» و«الأفارقة»، فمن النادر أن تحدد على أساس من لون البشرة إلى أى من جماعة ينتمى أى شخص دارفورى. فقد عاش الكل هناك منذ قرون وجميعهم مسلمون.

الكثير من خرائط دارفور بها أسماء قبلية مكتوبة على مناطق شاسعة، مما يوحى بأن بعض المناطق تسكنها بشكل حصرى إحدى جماعات المنطقة العرقية التى يزيد عددها على الثلاثين. وقد يكون هذا مضللاً؛ فهناك ذلك التاريخ الطويل من الهجرة الداخلية والاختلاط والتزاوج، بحيث تكون الحدود العرقية فى أغلب الأحيان مسألة للتيسير وليس إلا. فالأفراد، وحتى جماعات بكاملها، يمكن أن يتخلصوا من لافتات ويكتسبوا غيرها. وحين غزا البريطانيون المنطقة وجدوا أنه من المريح افتراض أن شيوخ المشايخ قسموا السلطة بدقة على الجماعات العرقية ومناطق النفوذ على الرقعة التى تخص كلاً منها. ويتفق أهل دارفور على هذه الرواية الخيالية التى ساعدت البريطانيين على إدارة دارفور بحفنة فحسب من الضباط الاستعماريين. وكان مفتاح جعل نظام «الإدارة المحلية» ذلك يحقق أهدافه هو منح منطقة ما، أو دار، لكل جماعة. ولم تكن تلك ملكية للأرض على وجه الدقة، بل كان يسمح لشيوخ المشايخ بتوزيع حقوق الأرض على المقيمين. وحتى وقت جفاف الثمانينيات كان هناك من الأراضى ما يكفى لإعطاء الوافدين الجدد، بغض النظر عن عرقيتهم، قطعة منها.



وصف الشيخ هلال ما يمكن فى أحسن الأحوال اعتبارها «جغرافيا أخلاقية» خاصة بدارفور. إنها أشبه برقعة شطرنج، حيث تمثل المربعات الحمراء المزارع والمربعات البيضاء المراعى التى يمكن أن ترعى فيها قطعانه



عن: London review of Books

ترجمة: أحمد محمود

كان البدو الرحل شذوذاً فى هذا النظام. فمعظم الذين يوصفون عادة بأنهم رحل هم فى الواقع الرعاة الذين يشغلون مناطق محددة تحديداً جيداً، إلا أنه كان هناك عدد قليل من جماعات البدو الرحل فى دارفور، مثل جماعة جلول الرزيقات التى يرأسها الشيخ هلال. وكانوا يقطعون مسافات شاسعة بين مناطق الرعى فى الموسم الجاف فى وسط دارفور وجنوبها ومراعى الموسم الممطر على حافة الصحراء فى الشمال. وفى السبعينيات جعلت حكومة جعفر النميرى الاشتراكية للجلول «مجلساً شعبياً ريفياً» على هيئة قرية تسمى فاتو بورنو (حيث تركنا الطريق للبحث عن عامو)، ولكن ذلك كان مجرد تيسير إدارى، ومكان يمكن أن يسجلوا فيه من أجل الاقتراع وإدخال أبنائهم المدرسة. أما بالنسبة لرعى قطعانهم، فقد كان الجلول يعتمدون على الترحال، فيجتازون طرق الهجرة بين مزارع الفور وقرى التنجور، حيث ترعى إبلهم على سفوح التلال. ووصف الشيخ هلال ما يمكن فى أحسن الأحوال اعتبارها «جغرافيا أخلاقية» خاصة بدارفور. إنها أشبه برقعة شطرنج، حيث تمثل المربعات الحمراء المزارع والمربعات البيضاء المراعى التى يمكن أن ترعى فيها قطعانه. كما قال «حيثما يكون المطر والعشب يوجد الله ما هو بيتى». ويتذكر أحمد دريج محافظ دارفور السابق، وهو منذ ذلك الوقت معارض سياسى قديم، كيف كان والده إبراهيم، وهو شرتاى من دارفور (والشرتاى كلمة أخرى تعنى شيخ مشايخ القبائل)، يستضيف عشيرة الشيخ هلال وإبله كل موسم فى قريته كراقولا على سفوح جبل مرة. وكان شرتاى إبراهيم يذبح ثوراً للترحيب بالجلول الذين كانوا يرعون إبلهم فى الحقول التى حُصدت محاصيلها، وكانت بذلك تخصبها وتساعد القرويين على نقل غلالهم إلى السوق. وكان هلال يهدى مضيفه جملين صغيرين عند رحيله. وكشأن الكثيرين من عرب دارفور، يستعمل الشيخ هلال من حين لآخر نعوتاً عنصرية مثل الزرق (السود) إشارة إلى الفلاحين من الفور والتنجور. وكان الفلاحون بدورهم يصفون البدو بأنهم متوحشون ووثنيون. غير أن المجتمعين كانا يعتمد كل منهما على الآخر، وكان هناك تزاوجٌ بين كبار العائلات من الجانبين.

فى حالة عدم وجود دار، كان الجلول وحفنة من جماعات البدو الرحل الأخرى تعتمد على نظام اجتماعى جغرافى يعطيهم حقوقاً عرفية كى يهاجروا ويرعوا حيواناتهم فى المناطق التى يسيطر عليها المزارعون. وظل ذلك هو الحال عشرات السنين، ولكن بحلول الثمانينيات كان الجفاف والتصحر وتوسع المزارع يهدد تلك الحقوق. فقد عيقت جغرافيا الشيخ هلال الأخلاقية، حيث ترك النظام الكونى مكانه للفوضى. إلا أنه يفضل الموت على أن يتغير.

كانت «الإدارة المحلية» حكماً محلياً بثمن بخس. فقد كان يدفع للشيوخ أجراً زهيداً، بينما كانوا يتلقون مكافآتهم من خلال الاستبداد المحلى. وبعد أن حقق السودان الاستقلال فى عام ١٩٥٦ حاولت الحكومات المتعاقبة بناء خدمات محلية مثل الشرطة والمدارس والمستوصفات. وقد أُلغيت مناصب الشيوخ والنظار رسمياً وأنشئت «المجالس الشعبية» لتقوم بنفس الوظيفة. ولكن الخرطوم لم تقدم قط الميزانيات، وبحلول أوائل الثمانينيات أفلس الحكم المحلى. وحين كان محافظ دارفور يرغب فى القيام بعملية للشرطة ضد رجال العصابات، كان يستولى بالقوة على مركبات ووقود من مشروعى تنمية ريفية يمولهما البنك الدولى، أو من إحدى وكالات الإغاثة. وإذا أراد عقد لقاء يجمع القبائل لحل نزاع ما، كان يضطر لطلب تغطية النفقات من المواطنين الأثرياء.



اندلعت سلسلة من الصراعات المحلية فى دارفور فى أعقاب الجفاف والمجاعة فى ١٩٨٤-١٩٨٥. وبصورة عامة كانت الجماعات الرعوية تؤلب على المزارعين فيما أصبح صراعاً مريراً على الموارد المتناقصة. لم تتدخل الحكومة التدخل الفعال، مما أدى إلى تسليح الناس لأنفسهم. وكان القطيع الذى يضم ألف جمل يمثل ما يزيد على المليون دولار من الماشية الحية؛ وصاحب القطيع الأكثر سذاجة هو من لا يشترى البنادق الآلية لرعاته. ورداً على ذلك سلح القرويون أنفسهم. وكانت هناك محاولة لعقد مؤتمر مصالحة فى عام ١٩٨٩، إلا أن التوصيات لم تنفذ قط.

وفى عام ١٩٨٩ كذلك خلع الإسلاميون حكومة صادق المهدى فى الخرطوم. (وكان صادق المهدى قد فاز فى انتخابات ١٩٨٦، أى فى العام التالى للإطاحة بالنميرى.) وكان رئيس الدولة حينذاك جندياً متديناً وقاسياً، وهو عمر البشير الذى حكم فى تحالف غير مستقر مع حسن الترابى، ذلك الزعيم الكاريزمى للحزب الإسلامى فى البلاد. ومع وجود الإسلاميين فى السلطة حاول الحكم المحلى فى دارفور التعويض عن ندرة إلقائها القبض على المجرمين بوحشية العقوبات التى كانت توزعها؛ وهى الإعدام وعرض جثث اللصوص المسلحين وقطع يد السارق. وفى عام ١٩٩٤ أعادت الحكومة مجلس الإدارة المحلية القديم وخصصت مناطق للشيوخ. ومع عدم وجود ميزانيات لتوفير الخدمات، وفى ظل السلطة التى تجددت فجأة لتوزيع الأراضى (التى باتت نادرة)، ووجود أعضاء لجان الأمن الأهلية ذاتية التسليح فى كل مكان، كانت تلك رخصة للتطهير العرقى على المستوى المحلى. وبعد ذلك الإصلاح الإدارى مباشرة كانت هناك جولة أخرى من أعمال القتل فى أقصى الغرب من دارفور. وبذلك نجد أن جزءاً كبيراً من الصراع الحالى ترجع أصوله إلى حقوق ملكية الأراضى وعيوب الإدارة المحلية. إلا أن الحكومة المركزية متورطة كذلك فى محنة دارفور، حيث كان للإهمال والتلاعب دوران متساويان.

وتعادى الجغرافيا دارفور. فبلدة الجنينة الكبيرة فى أقصى الغرب من دارفور، والقريبة من الحدود مع تشاد، يقال إنها بعيدة عن البحر أكثر من أية بلدة أخرى فى القارة. وهذا الجزء من دارفور، الذى تشيع تسميته بدار مساليت نسبة إلى الجماعة السائدة، لم يُضم إلى السودان إلا فى عام ١٩٢٢ بموجب معاهدة بين السلطان والبريطانيين. ومنذ فترة قريبة جداً كان حفيد السلطان، الذى يجمع حاشيته فى قصر آيل للسقوط، يقول مازحاً إنه مازال له الحق فى الانفصال عن السودان، وكان لا يزال يعلق فى مكان بارز على جداره خريطتى دار مساليت وأفريقيا، وليس خريطة السودان.

يتوقف القطار القادم من الخرطوم فى محطته الأخيرة فى نيالا بجنوب دارفور بعد رحلة تستمر ثلاثة أيام. وتستغرق الرحلة بالسيارة إلى الجنينة يوماً آخر على الأقل، إذا لم تقطع الأودية الطريق حاملة مياه الأمطار من جبل مرة الضخم. وقد تجاهلت الخرطوم دارفور؛ فقد تلقى أهلها قدراً أقل من التعليم، وقدراً أقل من الرعاية الصحية، وقدراً أقل من مساعدات التنمية، وعدداً أقل من المراكز الحكومية مقارنة بأى إقليم آخر، حتى الجنوبيين الذى شهروا السلاح منذ ٢١ عاماً كى يحاربوا من أجل حقوقهم وحصلوا على صفقة أفضل. وفى دارفور يعانى العرب وغير العرب على السواء من التهميش، ومأساة دارفور هى أن قادة تلك الجماعات لم يشكلوا قضية مشتركة فى مواجهة لا مبالاة الخرطوم.

المصيبة الجغرافية الأخرى هى أن دارفور تقع على الحدود مع تشاد وليبيا. وفى الثمانينيات كان العقيد القذافى يحلم بـ«حزام عربى» عبر أفريقيا الساحلية. وكانت ركيزة ذلك هى السيطرة على تشاد، حيث يبدأ بقطاع أوزو شمالى البلاد. وقد رتب سلسلة من المغامرات العسكرية فى تشاد، ومنذ ١٩٨٧ حتى ١٩٨٩ كانت الفصائل التشادية المدعومة من ليبيا تستخدم دارفور كقاعدة مؤخرة، حيث كانوا يحصلون مجاناً على مؤن من محاصيل القرويين المحليين وماشيتهم. ومرة واحدة على الأقل تسببوا فى شن غارة تشادية فرنسية مشتركة لتعقبهم. وجاءت معظم البنادق فى دارفور من تلك الفصائل. فقد كانت صيغة الحرب الخاصة بالقذافى باهظة التكاليف؛ حيث كان يجمع العرب الساحليين والطوارق الساخطين ويسلحهم وينظمهم فى هيئة فيلق إسلامى يكون بمثابة رأس حربة فى هجماته. ومن بين أفراد الفيلق عرب من غرب السودان، كان كثيرون منهم أتباع طائفة الأنصار المهدية الذين أجبرهم الرئيس نميرى على العيش فى المنفى عام ١٩٧٠. وهزمت الليبيين قوة تشادية سريعة الحركة فى عوادى دوم عام ١٩٨٨، وتخلى القذافى عن أحلامه التحريرية الوحدوية وبدأ فى حل الفيلق الإسلامى.

إن جزءاً كبيراً من الصراع الحالى ترجع أصوله إلى حقوق ملكية الأراضى وعيوب الإدارة المحلية. إلا أن الحكومة المركزية متورطة كذلك فى محنة دارفور، حيث كان للإهمال والتلاعب دوران متساويان



إلا أن أفراده المسلحين والمدربين. والأهم من ذلك كله . الذين تسيطر عليهم نزعة تفوق العنصر العربى العدائية، لم يختفوا. فميراث الفيلق الإسلامى مازال موجوداً فى دارفور، ذلك أن زعماء الجانجاويد من بين هؤلاء الذين يُقال إنهم تلقوا تدريبهم فى ليبيا.

حدث فى منتصف الثمانينيات أن بدأ الأنصار فى العودة، بعد الإطاحة بالنميرى. وبعد بضعة أسابيع من مقابلة الشيخ هلال، ذهبت بحثاً عن أبنائه الذين كانوا يرعون إبلهم فى الصحراء. وحين سافرنا شمالاً رأينا آثار مركبات عسكرية تعبر الصحراء متجهة نحو الجنوب. وفى عام ١٩٨٧ تولى العائدون من ليبيا القيادة عند تشكيل الكتلة السياسية المعروفة باسم التحالف العربى. وكان التحالف، على أحد المستويات، مجرد ائتلاف سياسى يهدف إلى حماية مصالح جماعة محرومة فى غرب السودان، إلا أنه أصبح كذلك أداة لأيديولوجيا عنصرية جديدة. وبدأت النعوت العنصرية الخاصة بالأزمنة القديمة، التى لا أهمية سياسية لها تتخذ شكلاً مفزعاً فى دارفور. كما أخذ التحالف يتبنى كذلك أيديولوجيا الدولة السودانية السائدة، وهى عروبة وادى النيل المختلفة تماماً. وكانت الحرب فى دارفور فى أواخر الثمانينيات أكثر من مجرد صراع على الأرض؛ لقد كانت الخطوة الأولى فى بناء أيديولوجيا عربية جديدة فى السودان.

من الصعب أن نجد رواية إخبارية للحرب الحالية فى دارفور لا تصفها بأنها حرب «العرب» ضد «الأفارقة». وكان هذا الوصف غير مفهوم قبل عشرين سنة، حين كانت المفاهيم الدارفورية الخاصة بالنزعة العرقية والمواطنة لا تزال تصب فى قالب موروث من سلطنة دارفور وسلسلة من الدول السودانية المشابهة امتدت غرباً حتى الأطلنطى. وتوضح الحياة السياسية القصيرة ولكنها درامية لأحد ساسة الفور، وهو داود بولاد، الطريقة التى أصبح بها للمصطلحين «أفريقى» و«عربى» هذا النفوذ.



كان بولاد أحد الإسلاميين الشباب البارزين من جيله، إلا أنه هجر الإسلام السياسى بعد أن ترك جامعة الخرطوم وانضم إلى جيش التحرير الشعبى السودانى بقيادة جون جارانج. وليس هناك ما هو أبعد عن المبادئ الإسلامية التى دافع عنها بولاد فى يوم من الأيام. وليس هناك ما هو أكثر عداء لها. من أيديولجيا جيش التحرير الشعبى السودانى. ورغم أن جارانج جنوبى ويحث كثيرون فى حركته على قيام دولة منفصلة لجنوب السودان، فهو نفسه ليس انفصالياً. وهو يؤمن بأن غير العرب فى السودان. وهو تحالف يضمن الجنوبيين والجماعات المهمشة فى السودان، كالفور. يشكل أغلبية عددية ويجب أن تكون له الغلبة فى سودان علمانى تعددى وموحد. ولذلك كان مجندو جارانج من المجتمعات غير العربية المستقلة على أطراف جنوب السودان كالنوبة، وسلسلة من الشعوب على امتداد وادى النيل الأزرق على مقربة من إثيوبيا. وفى عام ١٩٩٢ شنت حكومة السودان أكبر هجوم يهدف إلى تفريغ منطقة النوبة تماماً تحت راية الجهاد. وفشل الهجوم وحققت النوبة استقلالاً ذاتياً متواضعاً داخل إطار أكبر من اتفاقية سلام وُقعت فى كينيا فى شهر مايو.

كان بولاد وشبكة سرية من الناشطين المحليين مدخل جارانج إلى دارفور. وكما فعل فى النوبة والنيل الأزرق، أرسل حملة صغيرة إلى دارفور فى عام ١٩٩١ بهدف بدء الثورة. وكانت الكارثة. فقد كان لابد لبولاد وقواته من عبور مسافة شاسعة فى الموسم الجاف. وكانت المياه الوحيدة المتوفرة موجودة فى آبار عميقة تقع فى القرى وعليها حراسة مشددة. بل إن المنطقة كانت تحتلها جماعات عربية من رعاة الماشية على عداء شديد لجيش التحرير الشعبى السودانى. وسرعان ما تعقبت الحكومة وحدة بولاد وأوقعتها مستخدمة فى ذلك الجيش النظامى وميليشيا عرب بنى هلبة. وهربت حفنة من المقاتلين وسارت شهوراً عبر جمهورية أفريقيا الوسطى فى طريقه العودة إلى جنوب السودان. وأُسر بولاد واستجوبه المحافظ العقيد الطبيب إبراهيم، وهو طبيب عسكرى وإسلامى بارز يعرف بـ«السيخ»، بسبب مهارته فى استخدام أسياخ

حديد التسليح أثناء المظاهرات الطلابية، حين كان حارساً خاصاً لزعيم الإسلاميين بجامعة الخرطوم، داود بولاد. وليس هناك تسجيل للمقابلة بين الاثنين. ولم يرَ أحد بولاد بعد ذلك، والأسوأ من ذلك أن مفكرته صودرت. وكان بها أسماء وتفاصيل عن كل عضو فى شبكته السرية.

اختفى كثيرون فى السجون و«بيوت الأشباح»، وفقد آخرون شجاعتهم بسبب ما كان المحققون معهم يعرفونه، مما جعلهم يتخلون عن قضيتهم وأُطلق سراحهم، مع أنهم كانوا متأكدين من أن كل حركة من حركاتهم مازالت مراقبة. وهكذا قُضى على جيل من زعماء المعارضة أو جرى تحييده. وبعد ذلك شكت القيادات الدارفورية الراديكالية فى جيش التحرير الشعبى السودانى، حيث خشيت أن يبتلعهم تماماً، أو يسىء استخدامهم من أجل تحقيق أغراضه. غير أن جيش التحرير الشعبى السودانى ظل يقاوم كل شىء يمكن أن يلقيه عليه الجيش السودانى، وكسب قدراً كبيراً من التأييد الدولى، كما تعلم وصف محنته بأبسط لغة ثبتت فاعليتها فى كسب التعاطف الخارجى مع الجنوب؛ فقد كانوا الضحايا «الأفارقة» لنظام «عربى».



ربما كان للافتة «الأفريقية» تأثيرها بالنسبة للجماهير الدولية فى التسعينيات، إلا أنها لم تلق رواجاً كبيراً فى السودان. وكان أحد أسباب ذلك انتشار الإسلام المتشدد واجتذابه للكثير من أهل دارفور؛ وكانت نتيجة ذلك نجاح التجربة السياسية التى قام بها النظام فى الخرطوم الذى كان حسن الترابى عقله الموجه. ومن الناحية التاريخية كان الإسلام السياسى فى السودان تسيطر عليه النخبة المعربة التى هى أصلاً من وادى النيل وتربطها صلات قوية بمصر. وكانت حركتهم حركة محافظة تتميز بالتعريب الذى يقر به كل حكام السودان، مدنيين كانوا أم عسكريين. إلا أن الترابى وسع أجندة الحركة الإسلامية ودائرة أنصارها. فقد أصر مثلاً على أن للمرأة حقوقاً فى الإسلام؛ واليوم نجد أن أكثر من نصف طالبات جامعة الخرطوم من النساء. كما اعترف بأصالة السودانيين الغربيين وإسلام غرب أفريقيا، وتقبل بذلك التقاليد التى مثلها جهاد الفولانى فى أوائل القرن التاسع عشر والعلماء الصوفيين المغاربة المتجولين.

وبضمان امتداد المواطنة إلى كل المسلمين المؤمنين، أحدث الترابى ثورة فى وضع السودانيين من أصول غرب أفريقية ويعرفون باسم الفلاتة. وتشمل هذه الجماعة التى تضم عدة ملايين الهوسا والفولانى الذين جاء أسلافهم من نيجيريا والنيجر واستقروا فى السودان أثناء ذهابهم إلى مكة أو العودة منها ليكونوا عمالاً فى مشروعات القطن أثناء الحقبة الاستعمارية. ويشتهر الفلاتة بتدينهم. ولم يكن معترفاً بهم كمواطنين سودانيين حتى الانقلاب الإسلامى فى عام ١٩٨٩. كما رفع الترابى مكانة الشيوخ الفلاتة، ليصحح بذلك وضعاً شاذاً استمر طويلاً وليخلق دائرة انتخابية. وفى دارفور كذلك مد يد العون لقيادات الفور والمساليت الدينية وغيرها من الجماعات. وأثنى محافظ دارفور الطيب إبراهيم على الفور على تدينهم وتلقى دروساً فى لغة الفور. وكان مفهوم المواطنة المشتركة من خلال العقيدة المشتركة لبعض الوقت السبيل إلى التحرر القومى الدارفورى.

لكن الوعد الإسلامى كان وهماً. فمن الناحية السياسية لم يحدث تغير كبير. ذلك أن حفنة فحسب من أهل دارفور جرت ترقيتهم إلى مناصب رفيعة فى الحزب والإدارة. وكانت الحكومة القومية عادلة نسبياً فى معاملتها للعرب وغير العرب فى المنطقة، ولكن فقط فى سياق الإهمال المستمر. وكان الحكم المحلى لا يزال مفلساً، وكانت أعمال السرقة لا تزال منتشرة، وظل الجفاف والتصحر يثير الصراعات المحلية التى لم يستطع المحافظ وقفها، أو لم يحاول ذلك. ولم يمض وقت طويل حتى وجد «غربيو» السودان أن صيغة الإسلام الخاصة بهم ليست مقبولة بأى حال من الأحوال حسب شروطها هى؛ فقد كان يعتبرون مسلمين حقيقيين إن هم تبنوا القيم والثقافة العربية.

بعد عقد من انقلاب ١٩٨٩ أصبحت الخلافات بين الرئيس البشير والترابى المتقلب أكثر وضوحاً. فقد كان الترابى يطمح فى إحداث ثورة فى أنحاء أفريقيا والشرق الأوسط، بينما كان البشير يتمسك بالرؤية التقليدية الخاصة بالسودان باعتبارها امتلاك نخبة معربة. وكان صراعاً مطولاً على الأيديولوجيا والسياسة الخارجية والدستور وأخيراً السلطة نفسها. وفاز البشير؛ ذلك أنه فى عام ١٩٩٩ أقال الترابى من منصب رئيس المجلس الوطنى، ثم أمر بعد ذلك باعتقاله. وانقسم الائتلاف الإسلامى. فقد بقى معظم من فى الحكومة وكل النخبة الأمنية المسيطرة على الجيش والهيئات الأمنية التى تعمل خارج الميزانية مع البشير. أما الطلاب وخلايا الحزب الإسلامى الإقليمية فقد انتقلت فى الأغلب إلى المعارضة مع الترابى لتشكل المؤتمر الشعبى المنشق. وبالإضافة إلى أمور أخرى، وفرت إقالة الترابى للبشير الغطاء الذى كان بحاجة إليه للتقرب من الولايات المتحدة، وللدخول فى عملية سلام أكثر جدية مع جيش التحرير الشعبى السودانى؛ وهى العملية التى أدت إلى توقيع اتفاقية السلام فى كينيا.

كانت للانفصال بين الترابى والبشير أصداؤه فى دارفور. فقد ترك الحكومة الكثيرون من أهل دارفور الذى دخلوا الحركة الإسلامية تحت قيادة الترابى؛ وقرر هؤلاء تنظيم حركة خاصة بهم. وفى مايو من عام ٢٠٠٠ أصدروا «الكتاب الأسود» الذى تضمن بالتفصيل انخفاض تمثيل المنطقة المنتظم فى الحكومة القومية منذ الاستقلال. كما أحدث اضطراباً فى أنحاء البلاد وأوضح كيف يصبح السودان الشمالى مستقطباً على أسس عرقية وليس دينية.

كان وصف «الكتاب الأسود» لداود بولاد بأنه «شهيد» بمثابة مصالحة رمزية بين الإسلاميين والمتشددين العلمانيين فى دارفور. ومن ثم قام التحالف غير المحتمل بين هذه الجماعة الأخيرة، التى كانت مشغولة بتجميع جبهة تحرير دارفور (التى أعيد تسميتها فى أوائل ٢٠٠٣ لتصبح جيش تحرير السودان) وحركة العدل والمساواة ذات الاتجاه الإسلامى. وما كان ينبغى للتمرد أن يكون مفاجئاً لأحد. إلا أن مراقبى المشهد السياسى السودانى. وأنا منهم. قد تعودوا على هدوء دارفور لدرجة أننا ظننا أن المناضلين يطلقون إنذاراً كاذباً حين تنبأوا بوقوع تمرد كبير. ويبدو أن الحكومة السودانية فوجئت بالقدر نفسه؛ فقد كانت عروض السلام التى أعلنتها فى الشهور الأولى بنفس فتور استعداداتها العسكرية. وفى أبريل من العام الماضى، هاجم المتمردون مطار الفاشر ودمروا ست طائرات حربية واختطفوا ضابطاً برتبة لواء من القوات الجوية. ولم يكن جيش التحرير الشعبى السودانى قد نجح فى شىء من هذا النوع خلال عشرين عاماً. فقد كان المتمردون فى دارفور يتسمون بالحركة والاستخبارات الجيدة والتأييد الشعبى.



الأمر المهم بالنسبة للبشير هو أن الركيزة الأساسية للدولة السودانية. وهى مجموعة من ضباط الأمن تدير الحروب فى السودان منذ ١٩٨٣. كانت لا تزال موجودة. وحين كانت تلك المجموعة الصغيرة تواجه تمرداً يتعدى قدرة جيش الحكومة المجهد كانت تعرف على وجه الدقة ما يجب عليها القيام به. ففى مرات عديدة أثناء الحرب فى الجنوب كانت تنظم تمرداً مضاداً لا يكلفها شيئاً؛ إذ كانت المجاعة والأرض المحروقة هما سلاحاها المفضلان. وفى كل مرة كان أفرادها يبحثون عن إحدى الميليشيات المحلية ويزودونها بالعتاد والسلاح ويعلنون منطقة العمليات منطقة خالية من القواعد الأخلاقية. وكان فرسان بنى هلبة، الذين استُخدموا ضد جيش التحرير الشعبى السودانى، أداة واضحة يجب استخدامها فى دارفور. وتوفر كذلك بدو الإبل الشماليين، بمن فيهم من أفراد الفيلق الإسلامى السابق. وهناك من يقول إن اسمهم. جانجاويد. مشتق من البندقية G3 والجواد (الحصان)، إلا أنه يعنى كذلك بلغة غرب السودان «الغوغاء» أو «الخارجين عن القانون». ولإطلاق العنان للميليشيات ميزة مضافة بالنسبة للمجموعة الأمنية، ذلك أنها قد تحيد عن عملية السلام شبه الكاملة مع جيش التحرير الشعبى السودانى وتسمح لها باستعادة هيئاتها الأمنية التى لا تدخل فى الميزانية، كما أنها تحصنها ضد اتهامها فى المستقبل بارتكاب أية جرائم حرب.

تستهدف الفظائع التى ارتكبتها الجانجاويد هؤلاء الذين يتحدثون لغات الفور والتنجور والمساليت والزغاوة. وهى منتظمة ومستمرة. ولا يتناسب الأثر، إن

تجاهلت الخرطوم دارفور؛ فتلقى أهلها قدراً أقل من التعليم، وقدراً أقل من الرعاية الصحية، وقدراً أقل من مساعدات التنمية، وعدداً أقل من المراكز الحكومية مقارنة بأى إقليم آخر



لم يكن الهدف، بشكل كبير مع التهديد العسكرى للتمرد. فالاغتصاب بالجملة ووصم الضحايا يكشف عن تدمير متعمد للمجتمع. وفى دارفور، يعد قطع أشجار الفاكهة أو تدمير قنوات الرى طريقة للقضاء على حق المزارعين فى الأرض وتدمير لسبل العيش. ولكن هذه ليست هى حملة الإبادة الجماعية التى تقوم بها حكومة فى قمة صخبها، كما كان جهاد ١٩٩٢ ضد النوبة، أو عازمة بإصرار على تأمين الموارد الطبيعية، كما كانت تسعى لتطهير حقول النفط فى جنوب السودان من سكانها المشاكسين. وهذه هى الشدة المعتادة لأى جماعة أمنية، حيث تلاشت إنسانيتها بمرور السنين فى السلطة؛ إنها الإبادة الجماعية بحكم القوة أو العادة.

لقد اختفى عالم الشيخ هلال، بنظامه المستقل والتبادلية السلسة القائمة بين المزارع والبدوى، وهو ما خشى حدوثه. وحول سوء الحكم والنزعات العنصرية المستوردة الفقر الشديد إلى عنف. فما هو العمل الآن فى مواجهة مذابح الإبادة والمجاعة الوشيكة؟ إن الإجراء القانونى. محاكمة موسى هلال ومن يرعونه باعتبارهم مجرمى حرب. أمر ضرورى لمنع وقوع مثل هذه الجرائم فى المستقبل. ولكن الإدانة ليست هى الحل. فلابد ألا تغطى حملات الجانجاويد الإجرامية على حقيقة أن بدو دارفور المحليين هم كذلك ضحايا تاريخيون.

وكما حدث منذ عشرين عاماً، يواجه أهل دارفور الفقر والجوع والأمراض المعدية. وكانت هناك تنبؤات بحدوث وفيات بالجملة بعد جفاف ١٩٨٤؛ حيث قالت وكالات الإغاثة إن العدد سيصل إلى مليون حالة وفاة ما لم تكن تصل المساعدات الغذائية. ولم يصل الغذاء ومات الكثيرون. حوالى ١٠٠ ألف. ولكن مجتمع دارفور لم ينهر بسبب مهارات شعبه الهائلة. فقد كان لديهم مخزون من الطعام، وسافروا مسافات طويلة بحثاً عن الطعام أو العمل أو الإحسان، وفوق هذا كله جمعوا الطعام البرى من على الشجيرات. والآن وقد سرق مخزون الطعام والحيوانات، ما فائدة جمع خمسة أنواع مختلفة من الأعشاب البرية، و١١ نوعاً من الثمار اللُبية، بالإضافة إلى الجذور والأوراق، إذا كانت مغادرة المعسكر معناها احتمال الاغتصاب أو قطع الأطراف أو الموت؟ ولابد من أخذ التوقعات التى تشير إلى احتمال حدوث ٣٠٠ ألف حالة وفاة بسبب المجاعة مأخذ الجد.

تتحرك جهود إغاثة ضخمة بصعوبة. ولكن المسافات البعيدة تعنى أن تكون المعونات الغذائية باهظة التكاليف وربما لا تكفى. وهناك ما يغرى بإرسال الجيش البريطانى



لتوصيل الطعام، ولكن هذا سيكون رمزياً فحسب؛ ويمكن نقل الإغاثة بالطائرات بشكل أقل تكلفة عن طريق المقاولين المدنيين، على أن توزع بشكل أكثر فاعلية عن طريق هيئات الإغاثة. وتضم المناطق الخاضعة لسيطرة جيش تحرير السودان وحركة العدالة والمساواة مئات الآلاف من المدنيين الذين لا يحصلون على أية مساعدة. وبمجرد عودة أى مصور شجاع بصور لهذه المجاعة الخفية سوف تتعالى صيحات الاحتجاج، وسوف يسلم الإلحاح فى طلب المساعدات عبر خطوط الجبهة. وليس هناك من سبب لانتظار الصور قبل اتخاذ إجراء ما، مع أنه من الواضح أن قوافل الإغاثة العابرة للخطوط سوف تكون بحاجة إلى حراس مسلحين.

قد يكون السلام هو أكبر إغاثة. فهناك وقف لإطلاق النار من الناحية النظرية؛ أما فى الواقع فالحكومة والجانجاويد تتجاهلانه، ويرد المتمردون بالمثل. وتنكر الحكومة أنها هى التى شكلت الجانجاويد وسلحتها ووجهتها. لقد فعلت ذلك، ولكن الوحش الذى ساعدت الخرطوم فى خلقه قد لا يفعل باستمرار ما تأمره به؛ ذلك أن عدم الثقة فى العاصمة أمر شديد العمق بين أهل دارفور، وتعرف قيادة الجانجاويد أنه لا يمكن نزع سلاحها بالقوة. وحين وعد الرئيس البشير كوفى عنان وكولين باول بأن سوف ينزع سلاح الميليشيا كان يقطع على نفسه عهداً لا يمكنه الوفاء به. وأحسن وسائل نزع السلاح، وربما الوسيلة الوحيدة، هى تلك التى استخدمها البريطانيون منذ سبعين سنة؛ وهى إقامة حكومة محلية عاملة تنظم ملكية السلاح، وتعزل شيئاً فشيئاً الخارجين عن القانون وقطاع الطريق الذين يرفضون الامتثال. لقد استغرق الأمر حينذاك عشر سنوات ولن يكون أسرع من ذلك فى الوقت الراهن. فالأمر لا يقتصر على وجود أسلحة أكثر حالياً، بل إن التناقضات أشد حدة بكثير.

هناك مفرزة تضم ٦٠ من مراقبى وقف إطلاق النار التابعين للاتحاد الأفريقى فى دارفور مع عدد يزيد قليلاً عنهم من القوات الأفريقية التى توفر الأمن لهم. وحتى الآن لا يوفر أحد الأمن لسكان دارفور المدنيين المرعوبين. وإذا كان لابد من إرسال قوات من خارج أفريقيا، فلابد أن تكون هذه هى مهمتهم. وإذا كانت الاستخبارات المحلية جيدة، والعملية السياسية تأخذ مجراها، فسوف تكون المخاطر قليلة. ولكن إعادة بناء دارفور سوف تكون بطيئة، ومعقدة، وباهظة التكلفة. وقد يكون فهم ما ضاع نقطة جيدة للبداية. ■





تشـــينى — رامســفيلد

خطّـة هرمجدون

ماذا لو انهارت القيـادة الأمريكية؟!

جيـمـس مـان

ترجمة: بثينة الناصرى

هذه المقالة مقتطعة من كتاب جيمس مان (صعود آلهة النار والحديد: تاريخ وزارة الحرب فى إدارة بوش) الذى صدر قبل أسابيع

■■ خلال عهد ريجان، كان ديك تشينى ودونالد رامسفيلد لاعبين رئيسيين فى برنامج سرى يصبو إلى إغفال التسلسل الشرعى لتتابع الحكم والعمل على التنصيب المباشر لرئيس جديد فى حالة مقتل قادة البلاد إثر هجوم نووى. ويساعدنا التعرف على هذا البرنامج فى توضيح سلوك إدارة بوش أثناء وبعد ١١/ ٩ مرة فى العام على الأقل. خلال الثمانينيات، كان ديك تشينى ودونالد رامسفيلد يختفيان. كان تشينى نائبا فى الكونجرس يكافح ليصعد سلم القيادة فى الحزب الجمهورى. أما رامسفيلد الذى كان وزيراً للدفاع فى عهد جيرالد فورد، فقد كان فى ذلك الوقت رجل أعمال ناجحاً فى شيكاغو حيث يشغل منصب رئيس شركة ج.د. سيرل للادوية مكرساً وقته وجهده للترويج لمنتجات تجارية مثل نتراسويت وايكوال وميتاموسيل. ومع ذلك، فبين فترة وأخرى، يختفى الاثنان لمدد تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أيام لايدرى خلالها أحد فى الكونجرس أين ذهب تشينى، ولا أحد فى شركة سيرل يستطيع خلالها أن يعثر على رامسفيلد. حتى زوجتيهما لم تكونا أفضل حالا من الآخرين.. كل ما كان لديهما هو رقم هاتف غامض فى واشنطن وتعليمات للاتصال به فى حالة الطوارىء.

بعد مغادرة العمل اليومى، كان تشينى ورامسفيلد يتجهان إلى قاعدة اندروز الجوية خارج واشنطن. ومن هناك وفى منتصف الليل، كان كل منهما، يرافقه فريق من أربعين إلى ستين موظفاً فيدرالياً وعضو واحد من وزارة رونالد ريجان، يتسلل إلى موقع بعيد ما فى الولايات المتحدة، مثل قاعدة عسكرية مهجورة أو مخبأ تحت الأرض، وفى نفس الوقت، تتجه إلى كل من هذه المواقع قافلة من شاحنات تحمل معدات اتصالات متطورة.

كان رامسفيلد وتشينى لاعبين رئيسيين فى أحد أكثر البرامج سرية فى إدارة ريجــان: كان المسئولون الأمريكيون فى هذه الإدارة ينفذون بهمة وحماسة تدريبات دقيقة لضمان استمرار أداء الحكومة الفيدرالية أثناء وبعد حرب نووية افتراضية مع الاتحاد السوفيتى.

كان البرنامج يدعو إلى هجر القواعد الشرعية لتتابع الرئاسة فى بعض الظروف والاستعاضة عنها بإجراء سرى لتنصيب «رئيس» جديد ومعاونين له. كانت فكرة البرنامج تقوم على السرعة فى الحفاظ على «استمرارية» الحكومة وتجنب الإجراءات البطيئة المعقدة. أثناء ذلك سوف يلعب المتحدث بلسان مجلس النواب وبقية أعضاء المجلس والكونجرس أدواراً هامشية للغاية.

كان منبع الوحى لابتكار هذا البرنامج من داخل الإدارة ذاتها، ولا يد لرامسفيلد أو تشينى فى ذلك، ففيما عدا فترة قصيرة قام بها رامسفيلد بدور مبعوث للشرق الأوسط[1]، لم يتول أى من الرجلين مناصب فى إدارة ريجان، ومع ذلك فقد كانا اللاعبين الرئيسيين فى البرنامج، الذى انكشفت بعض تفاصيله على مدى السنوات ولكن لم تكشف الطريقة التى يعمل بها أو الأدوار الرئيسية التى لعبها تشينى ورامسفيلد.

تزداد أهمية هذا البرنامج اليوم خاصة، لأنه يساعد فى تفسير التفكير والسلوك لإدارة بوش فى الساعات والأيام والأشهر التى أعقبت الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

فى يوم الكارثة، حث نائب الرئيس تشينى الرئيس بوش على البقاء خارج واشنطن لبقية ذلك اليوم. كما أمر وزير الدفاع رامسفيلد نائبه بول وولفويتز أن يخرج من المدينة. وبدأ تشينى نفسه التحرك من واشنطن إلى سلسلة من (المواقع التى لم يفصح عنها)، وتم فيما بعد إرسال مسئولين فيدراليين للعمل خارج العاصمة من أجل استمرارية أداء الحكومة فى حالة حدوث هجمات أخرى. كل هذه التحركات كانت صدى للتدريبات السرية أثناء إدارة ريجان. وكانت حكومة الولايات المتحدة آنذاك تأخذ مخاطر احتمال حدوث حرب نووية مع الاتحاد السوفيتى، مأخذ الجد أكثر من أى وقت مضى منذ أزمة الصواريخ الكوبية فى ١٩٦٢. وكان ريجان نفسه قد تحدث أثناء حملته الانتخابية فى ١٩٨٠ حول الحاجة إلى برامج دفاع مدنية للمساعدة فى إنقاذ الولايات المتحدة فى حالة انطلاق حرب نووية، وما أن تولى منصبه، لم يبادر بتشجيع خطط الدفاع المدنى فحسب، وإنما صادق أيضاً على وثيقة سياسة

كان رامسفيلد وتشينى لاعبين رئيسيين فى أحد أكثر البرامج سرية فى إدارة ريجان، كان المسئولون الأمريكيون فى هذه الإدارة ينفذون بهمة وحماسة تدريبات دقيقة لضمان استمرار أداء الحكومة الفيدرالية أثناء وبعد حرب نووية افتراضية مع الاتحاد السوفيتى



دفاعية جديدة تضمنت خططاً لشن حرب نووية ممتدة ضد الاتحاد السوفيتى. وكانت التدريبات التى شارك فيها تشينى ورامسفيلد الجزء السرى من الجهد المعلن للاستعداد للحرب النووية.

كان المنطق المفترض لهذه التدريبات السرية هو إنه فى حالة هجوم نووى على واشنطن، فستكون الولايات المتحدة فى حاجة إلى التصرف بسرعة لتفادى (قطع الرأس) أى انهيار القيادة المدنية.

وكان العنصر الجوهرى فى خطة إدارة ريجان لشن حرب نووية هو قطع رأس القيادة السوفيتية وذلك باستهداف المسئولين الكبار السياسيين والعسكريين وخطوط اتصالاتهم. بتعبير آخر، كانت الإدارة الأمريكية تريد أن تضمن ألا يفعل السوفييت فى أمريكا ماكان مخططو السياسة النووية الأمريكية ينوون أن يفعلوه فى الاتحاد السوفيتى.

فى عهدى ترومان وأيزنهاور، قامت حكومة الولايات المتحدة ببناء مبان كبيرة تحت الأرض فى جبل ويذر بمنطقة جبال بلو ريدج فى ولاية فرجينيا وقرب كامب ديفيد على حدود بنسلفانيا - ماريلاند، وكل منها يصلح كمحطة قيادة عسكرية للرئيس فى زمن الحرب. ولكن بقيت ثمة مشكلة مهمة: ماذا يمكن أن يحدث إذا لم يستطع الرئيس أن يصل فى الوقت المناسب إلى أحد هذه المخابئ؟

ينص الدستور على تولى نائب الرئيس إذا مات الرئيس أو فقد القدرة على القيادة، ولكن الدستور لا ينص على تتابع المسئولية فيما وراء ذلك. ولكن القانون الفيدرالى، وأحدث نسخة منه هو قانون التعاقب الرئاسى لعام ١٩٤٧ نص على تفاصيل أخرى. إذا مات نائب الرئيس أو فقد القدرة، يتولى منصب الرئاسة المتحدث باسم مجلس النواب، وبعده يأتى الرئيس المؤقت للكونجرس (وهو عادة يكون الأطول خدمة فى حزب الأغلبية) ثم أعضاء الوزارة حسب تسلسل مناصبهم ابتداء من وزير الخارجية ثم وزير الخزانة ثم وزير الدفاع وهكذا.

لكن إدارة ريجان ظلت قلقة من أن هذا الإجراء قد لايكون مفيداً فى حالة حرب شاملة مع الاتحاد السوفيتى حيث يتطلب الأمر التصرف فى ثانية أو أجزاء الثانية. ماذا لو أن قنبلة نووية قتلت الرئيس ونائبه وربما المتحدث باسم مجلس النواب أيضا؟ من سوف يقود البلاد إذا تعذر الاتصال بالشخص التالى فى التسلسل حسب قانون التعاقب؟ من هو القائد المدنى الصالح لإعطاء القادة العسكريين الأمريكيين الأوامر للتصدى الهجوم، وكيف سيجرى هذا القائد اتصالاته مع الجيش؟ وفى حالة حرب نووية مستمرة، من سيملك السلطة للوصول إلى اتفاق مع القيادة السوفيتية على إنهاء الحرب؟

كانت الخطوط العريضة للخطة بسيطة. حالما تتعرض الولايات المتحدة (أو تعتقد أنها على وشك أن تتعرض) لهجوم نووى، ترسل ثلاث فرق من واشنطن إلى ثلاثة مواقع مختلفة فى أرجاء الولايات المتحدة. كل فريق سيكون جاهزا لتولى قيادة البلاد ويضم عضواً من الوزارة على استعداد ليكون رئيساً. وإذا استطاع الاتحاد السوفيتى - بطريقة ما - أن يكتشف مكان فريق منها وقصفه بالسلاح النووى، يتولى الفريق الثانى أو الثالث إذا دعت الضرورة.

لم تكن هذه خطة نظرية على الورق. كان التدريب يتم عليها بشكل تفصيلى جاد ومعقد. وكان يطلق على كل فريق اسم لون «أحمر» أو «أزرق» مثلا - وكان فى كل فريق مدير تنفيذى واسع الخبرة يمكن أن يقوم مقام أمين موظفى البيت الابيض، والمرشحون لهذا كانوا أفرادا من أعلى المستويات فى مجال الإدارة التنفيذية وعلى الأخص من جهاز الأمن القومى. وكان كل من تشينى ورامسفيلد قد شغل منصب أمين موظفى البيت الأبيض فى إدارة فورد، ومن بين قادة الفرق الآخرين على مدى سنوات التدريب: جيمس ولزى الذى أصبح فيما بعد مدير وكالة المخابرات المركزية وكنيث دبرشتاين الذى كان فعلا أمين موظفى البيت الأبيض فى عهد ريجان.

أما بالنسبة لأعضاء الوزارة فى كل فريق فبعضهم كان قليل الخبرة فى الأمن القومى، ففى أوقات مختلفة مثلا كان من بين المشاركين فى التدريب السرى: جون بلوك وزير الزراعة الأول فى عهد ريجان ومالكولم بالدريج وزير التجارة. مايهم هنا لم يكن الخبرة فى السياسة الخارجية ولكن توافر وزير ما فى الوقت المطلوب. ولابد أنه من العدل الاستنتاج أن بعض هؤلاء (الرؤساء) كانوا سيلعبون أدوار رؤساء صوريين يوجههم أمناء موظفين أكثر خبرة مثل تشينى أو رامسفيلد. ومع ذلك فإن أعضاء الوزارة هم الذين ستناط بهم مهمة إصدار الأوامر أو الذين ستصدر الأوامر باسمهم.

إحدى القضايا التى بحثتها هذه التدريبات هى: ماهية الخطوات الواقعية التى يمكن أن يتخذها الفريق الذى سيدير البلاد لإثبات مصداقيته. ماذا يمكن فعله للتوضيح للشعب الأمريكى وحلفاء الولايات المتحدة وللقيادة السوفيتية أن (الرئيس) جون بلوك أو (الرئيس) مالكولم بريدج هو الذى يقود البلاد الآن، ويجب أن يعامل باعتباره رئيساً شرعياً للولايات المتحدة؟

كان أحد الخيارات هو أن يأمر (الرئيس) الجديد غواصة أمريكية أن تطفو من الأعماق إلى سطح المحيط - طالما أن سلطة تسطيع غواصة هى علامة واضحة على من يتحكم فى القوات العسكرية الأمريكية[٢]. وللعلم أن هذا الاختبار (التحكم فى الجيش) هو أحد الاختبارات التى تستخدمها الحكومة الأمريكية فعلا ى تحديد تعاملها مع أى قائد أجنبى قام بانقلاب فى بلاده.

ويشرح أحد المشاركين فى التخطيط للبرنامج قائلاً: (إحدى المعضلات الحرجة التى واجهناها هى ما إذا كان ينبغى الدعوة لانعقاد الكونجرس بعد هجوم نووى. وكان القرار الذى توصلنا إليه هو بالنفى، فإن العمل بدونهم سيكون أسهل. أولا بسبب الشعور السائد بأن الدعوة إلى انعقاد الكونجرس وإعادة انتخاب أعضاء جدد بدلا من الذين قتلوا، سيستغرق وقتا طويلا. إضافة إلى أنه إذا انعقد الكونجرس فربما سيحتاج إلى اختيار متحدث جديد باسمه، والذى سيكون استحقاقه للرئاسة أكثر شرعية من وزير الزراعة أوالتجارة اللذين سميا رئيسين حسب خطة ريجان السرية، فانتخاب متحدث جديد للكونجرس لن يستغرق وقتا طويلا فحسب وإنما سيخلق نوعاً من الإرباك أيضا. كان هدف إدارة ريجان الأساسى هو هيكلة سلسلة من القيادات التى يمكنها أن تستجيب للمتطلبات الآنية للحرب النووية، حيث لن يكون هناك وقت لكى يحلف رئيس جديد اليمين الدستورية حسب إجراءات التنصيب العادية وكذلك فالرئيس الجديد لن يكون لديه وقت لتعيين معاونين جدد له. لكل هذه الأسباب اختارت الإدارة أن تقوم بهذا الإجراء بعيداً عن اللجوء إلى الكونجرس الذى كان سيضفى عليه شرعية دستورية.



كان المنطق المفترض لهذه التدريبات السرية هو أنه فى حالة هجوم نووى على واشنطن، فستكون الولايات المتحدة فى حاجة إلى التصرف بسرعة لتفادى (قطع الرأس) أى انهيار القيادة المدنية



لقد أنشأ رونالد ريجان برنامج استمرارية الحكومة بأمر رئاسى سرى، وطبقاً لروبرت ماكفرلين الذى كان مستشار الأمن القومى فى عهد ريجان، فإن الرئيس بنفسه أصدر القرار النهائى حول اختيار رئيس كل فريق من الفرق الثلاثة، وداخل مجلس الامن القومى فى إدارة ريجان، كان المسئول عن تنفيذ البرنامج السرى هو اوليفر نورث الذى برز فيما بعد، بصفته الشخصية المحورية فى



محمد يونس القاضى

يعد محمد يونس القاضى أحد رواد فن الزجل فى مصر الذين تتلمذا عليهم كبار المبدعين المصريين فى فن الزجل مثل بديع خيرى وبيرم التونسى وغيرهما. وقد عاشت كلمات الأغانى التى وضعها محمد يونس القاضى ضمن الموروث الشعبى المصرى حتى أصبحت جزءًا من الثقافة العامة، وفى مقدمة تلك الأغانى «يا عزيز عينى» و«يمامة بيضا» و«زورونى كل سنة مرة» و«عشقت حسنك» وغيرها.

ولد الشاعر واسمه بالكامل محمد يونس أحمد القاضى فى حارة درب الدليل بالدرب الأحمر بالقاهرة عام ١٨٨٨ وكان والده قاضيًا ومن علماء الأزهر. ودرس الشاعر فى الأزهر ثم عمل بالصحافة من عام ١٩٠٥ حتى ١٩٤٢، لكنه قدم أعماله الفنية منذ ١٩١٣ وألف ٥٨ مسرحية غنائية، وكان أحد رموز الفكاهة فى مصر مع عبد العزيز البشرى وفكرى أباظة، كما أصدر مجلة «الفنان» عام ١٩٢٦. ومن المفارقات أن يونس القاضى الذى ألف عددًا من الأغانى الهابطة التى غناها كبار نجوم عصره أصبح رقيبًا على المصنفات والأغانى من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٧ ثم من ١٩٤٢ حتى ١٩٥٤ حيث عمل على إنهاء هذه الموجة الهابطة وتوفى عام ١٩٦٩. وكشأن القصائد المغناة خضعت بعض أعمال الشاعر للتغيير مثل «يا عزيز عينى» عندما تحولت إلى أغنيات.

والمعلومات السابقة مستقاة من كتاب صدر حديثًا عن محمود يونس القاضى من تأليف الفنانة والناقدة إيمان مهران.



خطة هرمجدون

فضيحة إيران كونترا. وقد فوض نائب الرئيس حينذاك جورج بوش الأب سلطة الإشراف على بعض هذه الجهود التى كانت تديرها هيئة حكومية جديدة تحمل اسما لطيفا هو: مكتب البرنامج القومى. وكان له مقره الخاص فى واشنطن ويديره جنرال بنجمتين وميزانية سرية تضاف إلى مئات الملايين من الدولارات سنويًا. وكانت معظم هذه المبالغ تصرف لشراء معدات اتصالات متطورة لتمكين الفرق من ضمان التواصل مع القادة العسكريين الأمريكيين. وفى الواقع كانت هذه (المعدات) هى السبب غير المباشر لكشف هذا البرنامج السرى حين قامت شبكة أخبار السى إن إن عام ١٩٩١ بإجراء تحقيقات صحفية حول بعض الاتهامات لمسئولين فى الإدارة الأمريكية بالتبذير واستغلال النفوذ فى إرساء عقود على شركات خاصة لشراء معدات (تالفة).

كانت التدريبات تتم عادة فى فترات إجازات الكونجرس حتى لايفوت تشينى الكثير مما يجرى هناك. ورغم أن تشينى ورامسفيلد وقائد فريق آخر كانوا يشاركون بشكل مستديم فى كل التدريبات، إلا أن أعضاء الوزارة كانوا يتغيرون حسب ظروف توافرهم فى أوقات معينة (مرة شارك المدعى العام ايد ميس فى تدريب جرى يوم ١٩٨٦/٦/١٨ بعد يوم من استقالة كبير القضاة وارين برجر، ويتذكر أحد المشاركين فى البرنامج أنه نظر إلى ميس فى ذلك اليوم وهو يفكر: (أولا استقالة قاضى المحكمة العليا والآن أمريكا فى حرب نووية. بالتأكيد هذا يوم نحسك!).

كان كل فريق يضم، بالإضافة إلى أمين موظفى البيت الأبيض ورئيسه المعينين، ممثلين عن وزارتى الخارجية والدفاع ووكالة المخابرات المركزية وكذلك من وكالات الشرطة المحلية المتعددة. كانت الفكرة هى التدريب على إدارة الحكومة الفيدرالية برمتها خلال حرب نووية بعدد رمزى من العاملين.

وفى إحدى مراحل التدريب، جرى حديث عن استدعاء حاكمى ولايتى فرجينيا ومريلاند وعمدة إقليم كولومبيا ولكن سرعان ما نبذت الفكرة بعد أن تبين أن الأشخاص المعنيين لم يكونوا - أمنيا - على درجة عالية من الثقة.



كانت التدريبات تجرى وكأنها فى ظروف أزمة ضاغطة حقيقية، فكان المشاركون يتجمعون بسرعة وينتقلون ويعملون فى ساعات الفجر، ويعيشون فى قاعدة عسكرية ويتناولون غداء مبكرا يشتمل على أنواع صادمة للشهية من أغذية الجيش الجافة سابقة التجهيز. ويستمر التدريب أسبوعين تقريبًا، ولكن كل فريق يتدرب على جزء من البرنامج لمدة ثلاثة أو أربعة أيام فقط. وكان الروتين المعتاد هو أن يغادر فريق واشنطن مسرعا عبر الانفاق ثم - وكأنه على وشك أن يقصف بقنبلة نووية - يسلم المهمة للفريق التالى. وكانت الخطط تنفذ بخداع ذكى مصمم لمنع أقمار السوفييت الصناعية من كشف مواقع الفرق فى أنحاء الولايات المتحدة. وهكذا كانت الفرق ترسل فى منتصف الليل إلى مقراتها التى تتغير من تدريب إلى آخر. وأحيانا تحرك قوافل زائفة مع القوافل الحقيقية التى تحمل معدات الاتصالات. وكان منطق هذه المناورات هو أن السوفييت لن يستطيعوا - بطبيعة الحال - استهداف كل المواقع المتغيرة فى أنحاء الولايات المتحدة.

كانت ذروة هذه التدريبات هى التواجد فى طائرة خاصة: محطة قيادة الطوارىء القومية المحمولة جوا، وهى طائرة بوينج ٧٤٧ معدلة، رابضة فى قاعدة اندروز الجوية، ومجهزة بقاعة اجتماعات ومعدات اتصالات متطورة وعلى متنها يستطيع الرئيس المفترض أن يبقى متحركًا فى الجو، يدير البلاد خلال حرب نووية.

فى أحد التدريبات ظل فريق فى هذه الطائرة لمدة ثلاثة أيام متتالية وهى تحلق فوق السواحل ذهابًا وإيابًا على طول البلاد وعرضها وتتزود أثناء ذلك بالوقود فى الجو.

عندما انتخب جورج بوش الأب رئيسًا فى ١٩٨٨ ابتهج أعضاء برنامج ريجان



بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى، تغيرت مبررات التدريبات، فلم تعد ثمة خشية من احتمال هجوم نووى سوفيتى. ولكن ماذا يحدث إذا هاجم الولايات المتحدة إرهابيون يحملون أسلحة نووية وقاموا بقتل الرئيس ونائبه؟



السرى حيث إن بوش كان على دراية بالبرنامج وقد اشترك به منذ بدايته فليس هو إذن فى حاجة إلى التعرف عليه أو إعادة النظر فيه.

وفى الواقع أنه رغم التحسن الكبير فى العلاقات مع موسكو فقد أمر بوش باستمرار البرنامج ولكن مع تعديلات طفيفة، فقد عين تشينى فى منصب وزير الدفاع وبهذا تخلف عن مركزه كقائد لإحدى الفرق.

بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى، تغيرت مبررات التدريبات، فلم تعد ثمة خشية من احتمال هجوم نووى سوفيتى - ولكن ماذا يحدث إذا هاجم الولايات المتحدة إرهابيون يحملون أسلحة نووية وقاموا بقتل الرئيس ونائبه؟

أخيراً وخلال سنوات حكم كلينتون الأولى، تقرر أن مثل هذا السيناريو بعيد الاحتمال وقد عفى عليه الدهر، فقد كان من ميراث الحرب الباردة والآن لم يعد يلوح فى الأفق عدو يرغب فى (قطع رأس) الولايات المتحدة، و هكذا وضع البرنامج على الرف.



واستمر الحال على ما هو عليه حتى حدثت كارثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، عندها سارع تشينى ورامسفيلد لتنفيذ أجزاء من النص الذى تدربا عليه لسنوات طويلة مضت، وشرعا يديران العمليات من مخبأ تحت أرض البيت الأبيض يسمى (مركز عمليات الطوارئ الرئاسية). وقد طلب تشينى من بوش الذى كان فى فلوريدا بأن يؤخر رحلة العودة إلى واشنطن كما كان مخططا لها. وفى البنتاجون أمر رامسفيلد نائبه المتردد ولفوفتز أن يغادر العاصمة إلى أحد المخابئ المحصنة ضد الهجمات النووية. فى الوقت الذى أمر تشينى المتحدث باسم مجلس النواب دنيس هاستيرت وزعماء آخرين فى الكونجرس والعديد من أعضاء الوزارة (بضمنهم وزيرة الزراعة آن فينيمان ووزير الداخلية جيل نورتن) أن يتركوا العاصمة إلى مخبأ آمين.

وفى حواره مع مذيع شبكة إن بى سى بعد عدة أيام، فسر تشينى هذه التحركات بقوله: « لقد وضعنا الكثير من الخطط أثناء الحرب الباردة للتعامل مع إمكانية وقوع حادثة نووية» ولم يشر إلى برنامج إدارة ريجان أو المواقع السرية التى طالما تدرب فيها هو ورامسفيلد على إدارة البلاد.

إن اشتراك هذين الرجلين فى تنفيذ برنامج لضمان استمرار أداء الحكومة خارج نطاق الدستور، رغم أهميته بحد ذاته، يوضح حقيقة أدوارهما. فهما كانا دائما فى الصورة منذ ثلاثة عقود ابتداء من إدارة فورد ومابعدها، وحتى عندما كانا خارج المناصب التنفيذية فى الحكومة، لم يبتعدا كثيراً: بقيت صلتهما بمسئولى الدفاع والجيش والمخابرات. بعبارة أخرى: كانا جزءاً من جهاز الأمن القومى السرى المستديم للولايات المتحدة، سكان عالم يأتى فيه الرؤساء ويذهبون، ولكن أمريكا تستمر فى شن الحروب. ■

هوامش:

(١) المقصود بها زيارة رامسفيلد إلى العراق فى ١٩٨٣ التى قابل فيها الرئيس صدام حسين وكانت الحرب الإيرانية العراقية على أشدها وقد أعلن أن الزيارة بغرض التحقق مما انتشر آنذاك من استخدام العراق للأسلحة الكيمائية ضد الإيرانيين، ولكن الواقع أن غرض الزيارة الذى كشفت عنه وثائق سرية أفرجت عنها مكتبة الكونجرس هذا العام، أن رامسفيلد - الذى كان حينها رئيسا لشركة سيرل - ذهب مندوبًا عن جورج شولتز وزير الخارجية آنذاك ورئيس شركة بكتل سابقًا. وكان الغرض من الزيارة إقناع صدام حسين بإمكانية مد أنبوب نفط تنفذه شركة بكتل من البصرة إلى العقبة. وقد رفض الرئيس العراقى الموافقة على الأنبوب بعد مباحثات استمرت حتى عام ١٩٨٤ لتخوفه من إمكانية تخريب إسرائيل للأنبوب، وعدم تمكن الولايات المتحدة من الحصول على تأكيد إسرائيلى - كما طلب العراق - من عدم التعرض للأنبوب، ويقال إن العلاقات الأمريكية - العراقية ساءت منذ ذلك الوقت. ولكن هذه قصة أخرى. المهم أن هذه القصة تكشف استشراء التداخل (وبالتالى الفساد) فى العلاقات الصناعية والسياسية فى الإدارات الأمريكية - المترجمة

(٢) أساس هذا الإجراء هو: أن رئيس الولايات المتحدة هو فى نفس الوقت القائد العام للقوات المسلحة كما هو معروف - المترجمة



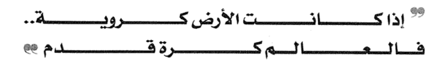
يا عزيز عينى

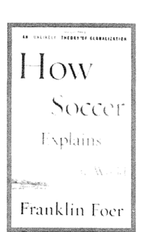
محمد يونس القاضى

يا عزيز عينى	أنا بدى أروح بلدى
يا حكيمباشى	تعالى اكشف على ولدى
جبت الطبيب والحكيم	يكشفوا على قلبى
قاللى الطبيب والحكيم	مالكش دوا عندى
عشر قزايز ورد	للمحبوب بتسلينى
ورا عين م القطيفة	م الجمّال* بتكفينى
مملوك صغير	يشيل الكاس ويدينى
من بعد عمر طويل	ييجى حبى يقابلنى
ما تحسبوش يا بنات	إن الجواز راحة
أول أسبوع يا بنات	ع الفرش مرتاحة
تانى أسبوع يا بنات	خوخة وتفاحة
تالت أسبوع يا بنات	حماتى رواحة
رابع أسبوع يا بنات	فى البيت نواحة
خامس أسبوع يا بنات	ع القاضى سواحة
سادس أسبوع يا بنات	على بيت أبويا رايحة
مفيش لزوم يا بنات	تتجوزوا بالمرة
إن كان جوازكم يا بنات	حيكون كده عرة
وتبقوا عايشين يا بنات	فى العيشة دى المرة
ويكون آخرتها يا بنات	تنطردوا وتخرجوا بره
ويمكن تختم يا بنات	بمضايقة الضرة

● الجمّال: اسم محلات كانت شهيرة تبيع الأقمشة بالقاهرة







فرانكلين فوير

هذا فصل من كتاب صدر منذ أسابيع عن دار نشر كبيرة Harper Collins. قد يكون صادمًا للقارئ العربى الذى سيراه مليئًا بمبالغات تصل إلى حد المغالطات. ربما بحثًا - ملهوفًا - عن إثارة مطلوبة، أو انسياقًا - دون تدقيق - وراء صورة نمطية غابت تفاصيلها الحقيقية وراء ضباب تكاثف خيالاً وجهلاً أحيانًا، أو سوء نية أحايين أخرى.

هل نحن أمام «موضة» لدى الكاتب الغربى - أو بعضهم - تتمثل فى إقحام الإسلام، حقًا أو عسفًا، فى مناقشة أى موضوع؟ أم هو اهتمام بات مفهومًا ومتوقعًا فى السنوات الأخيرة بالإسلام وثقافته؟

ولأنه من طبيعة الأمور أن فى كل شأن «وجهات نظر»، نميل هنا لأن نترك السؤال مفتوحًا، عارفين من هو قارئنا ومتيقنين من أهمية أن تظل «وجهات نظر»/ المجلة نافذة «أمينة» لقارئها العربى يطل منها على اتجاهات فى فكر الآخر (دون تدخل)، وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف.

المحرر

الحل الكروى

[١]

أكبر استاد فى إيران هو استاد أزدى الذى يسع ١٢٠ ألف متفرج. ومع أن المعنى المباشر للكلمة فى القاموس هو «الحرية»، فإنه يمثل شيئًا قريبًا من العكس. فمنذ قيام الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩ والنساء محظور عليهن مشاهدة كرة القدم فى أزدى. وهذا الحظر ليس مقصورًا على هذا الموضع أو حتى على إيران، بل ينطبق على مساحات كبيرة من العالم الإسلامى، مازالت أشكال الحظر مستمرة دون جدل كبير. إلا أن الحقيقة الأساسية فى إيران هى أنها ليست المملكة العربية السعودية. فهى فى العقود الأخيرة للشاه لم تحبس النساء فى البراقع السوداء. بل تولت النساء مناصب حكومية رفيعة، وكن كاتبات ومحاميات ومشجعات للعبة الجميلة.

مع تدفق أعداد كبيرة من الناس من خلال مداخل أزدى، من المستحيل ضمان الالتزام حرفيًا بمبادئ الشريعة. ذلك أن المشجعين سوف يسبون بأقذر لغة وبأشد الألفاظ المحظورة. وسوف يلقون بكلمات التوبيخ التى لا يمكن تبريرها بأى تفسير معقول للقرآن. وبعض هؤلاء الرجال حليقو الذقون ويرتدون ملابس واسعة بشكل يثير الشك. ومع التفتيش الدقيق، قد يتضح أن هؤلاء الرجال ليسوا رجالاً فى الواقع. فنساء طهران يغامرن بالتعرض للعقوبة القاسية لكونهن عاجزات عن ارتياد أزدى. وهن يضغطن صدورهن، ويلففن شعرهن الطويل، ويرتدين الزى الرجالى، ويتسللن إلى داخل الاستاد.

يقال إن هذه الفئة المظلومة من النساء المتعطشات إلى كرة القدم تضم بنات رجال الدين المهمين، وهن النساء الوحيدات اللائى لهن رأى فى حكم البلاد. ومن الواضح أن شكاواهن التى لا تنقطع قد مست وترًا أبويًا حساسًا للتغلب على السابقة الشرعية. ففى عام ١٩٨٧أصدر دكتاتور البلاد الدينى والسياسى فتوى عدلت الحظر المطلق الذى فرضه النظام على تشجيع الإناث للرياضة. فبينما كان يتحدث من خلال لحيته البيضاء الطويلة، أجاز مشاهدة النساء لمباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون الذى نقل الألعاب الرياضية لأول مرة فى الحقبة الإسلامية، ولكنهن لا زلن ممنوعات من الذهاب إلى الاستاد الحافل بهورمون التستسترون. وقد أرضى الحل الوسط الذى قدمه الخمينى الجميع لبعض الوقت.

لكن اللمسة الحكيمة للملالى لم يمكنها تهدئة الرغبة العميقة لدى الإيرانيات. وكشأن كل المشجعين الجيدين، فإنهن يفهمن أن التليفزيون بديل ضعيف للتجربة الحقيقية التى من لحم ودم. ولو عدنا بالنظر إلى الوراء لكان من المحتم أن تطالب المرأة بالعودة إلى استاد البلاد. ومع ذلك، فإن هذا الطلب الجسور يقتضى قدرًا كبيرًا من الشجاعة ووجود ذريعة ما. وقد منحت البطولات التى حققها الفريق القومى فى نوفمبر من عام ١٩٩٧ الأمرين معًا للمرأة الإيرانية.

كانت حملة إيران للتأهل لكأس العالم ترتكز على مباراة نهائية ضد أستراليا تقام فى ملبورن. وكان الإيرانيون فى معظم المباراة يشتتون الكرة وكأن حكومتهم أمرتهم بأن يخسروا المباراة متعمدين، لمنع احتفالات النصر فى طهران التى قد تخرج عن السيطرة (استنتاج غريب. المترجم). ولكن الإيرانيين فى الخمس عشرة دقيقة الأخيرة من مباراة التأهل لكأس العالم. وكانت لحظات تتسم بالرعب واليأس. تخلصوا من كسلهم وأحرزوا هدفين مذهلين أنقذا الفريق من الهزيمة.

فصل من كتاب:
How Soccer Explains the World: An Unlikely Theory of Globalization
(كيف تفسر العالم من خلال كرة القدم؟.. نظرية فى العولمة)
Franklin Foer
261PP. 2004 ،Harper Collins. Pub.

ترجمة: أحمد محمود

للطمـــوحات الإســـلامية!

وبذلك تقدمت إيران إلى كأس العالم لأول مرة منذ إعادة الطائرة من طراز ٧٤٧ آية الله الخمينى من المنفى قبل ذلك بثمانية عشر عاماً.

وبما أن النظام الإيرانى يملك أنفاً رومانياً فيما يتعلق بالحفاظ على النفس، فقد بدأ على الفور الاستعداد للاحتفال، وهو يعرف أن الجماهير الفرحة قد أعطت أجازة لعقلانيتها، وبدون عقلانية ترشدهم قد يكونون من الجنون بحيث يزيلون المتاريس. وكان مشهد كرة القدم قد أخذ يعكس الطموحات الخاصة بإيران الجديدة الأكثر تحرراً. وهى نفس الروح التى قذفت بالإصلاحى محمد خاتمى إلى الرئاسة قبل ذلك ببضعة أشهر. ولأول مرة فى تاريخ الجمهورية الإسلامية، قاد الفريق مدرب أجنبى، وكان برازيلياً اسمه فالدير فييرا. وحين كان يجلس على الخط، كان يرتدى ربطة عنق. وهى الموضة التى دفع بها الشاه لتكون رمزاً لإيران الحديثة، بينما رفضها رجال الدين باعتبارها أمراً مفروضاً من الغرب. وكان الكثير من لاعبى فييرا قد صنعوا حياتهم الرياضية فى الدورى الأوروبى والدورى الآسيوى، وكانوا نماذج مشجعة لتفاعل إيران مع الاقتصاد الكونى.

كانت الحكومة محقة فى شعورها بالقلق. فبعد الانتصار امتلأت شوارع طهران بالمحتفلين. وقد جعلهم الفرح يُحِلون أنفسهم من الأخلاق الرسمية. وأصبح الرقص والشرب وموسيقى البوب الغربية، وهى الأمور التى كانت تقتصر فى العادة على البيوت، أى على المجال الخاص، مادة للاحتفال العام. وإذا كان المحتفلون رجالاً، فقد كان ذلك شيئاً عادياً. ولكن فى الأحياء الراقية، وخاصة بين الشباب، كان المحتفلون من الجنسين. وقد ألقت بعض النساء بالحجاب واحتفلن بدون أغطية الرأس المأمور بها. وحين كان الباسيجى، أى أعضاء الميليشيا شبه العسكرية الدينية، يصلون لفض المظاهرات، كانوا يُقنَعون بالانضمام للمحتفلين أنفسهم.

جرى نزع فتيل الأزمة إلى حد ما. وطلبت الحكومة من الفريق التلكؤ فى العودة من أستراليا، حيث يتوقف فى دبى كسباً للوقت كى يهدأ الوضع فى طهران. وحذرت الإذاعة المواطنين من الاحتفالات العلمانية التى تغضب الله. وخاطبت بعض الرسائل الأخرى نساء البلاد على وجه التحديد ودعتهن «أخواتنا العزيزات»، حيث حثتهن على البقاء فى بيوتهن أثناء احتفالات عودة الفريق إلى الوطن.



حين عاد الفريق أخيراً، بعد ثلاثة أيام، أقامت الحكومة الاحتفال فى استاد أزدى. وصل الأبطال إلى الاستاد بالطائرات الهليكوبتر، وكأن سيلفيو بيرلسكونى هو الذى خطط الحدث. ولكن المشهد الحقيقى لم يكن داخل الاستاد. فقد تحدت آلاف النساء نداءات الدولة وتجمعن على الجانب الآخر من بوابات أزدى، فى درجة حرارة مقدارها ٢٧ درجة. وكما قال عالم الأنثروبولوجيا كريستيان برومبرجر، فإنه حين رفضت الشرطة دخول هؤلاء النساء الاستاد، بدأن الصياح قائلات «ألسن جزءاً من هذا البلد؟ نريد أن نحتفل كذلك». وخوفاً من الزحام، سمحت الشرطة لثلاثة آلاف امرأة بدخول الاستاد فى مقاعد خاصة مفصولة عن بقية الاستاد. ولكن ماذا عن حوالى ألفى امرأة أخرى على الجانب الآخر من المداخل لم يدخلن أزدى؟ فدخول أخواتهن لم يهدئهن. وفى تصميم منهن على الحصول على نصيبهن من الاحتفال، اقتحمن البوابات التى أقامتها الشرطة وشققن طريقهن إلى داخل الاستاد. واعتزاماً على تجنب المشاغبات الكبيرة التى قد توجه المشاعر الفطرية الخاصة بذلك اليوم فى اتجاه خاطئ، لم يكن أمام الشرطة خيار سوى التغاضى عن دخولهن والإقرار بالهزيمة.



الحل الكروى للطموحات الإسلامية

[٢]

حين يكتب مؤرخون آخرون عن تحول الشرق الأوسط، فمن المحتمل أن يتحمسوا لهذه اللحظة التى باتت بالفعل تُعرف بـ«ثورة كرة القدم». وكما هو الحال بالنسبة لحفل شاى بوسطن - ١٠ مايو ١٧٧٣، حين ثار الأمريكيون على عدم إلغاء الرسوم المفروضة على الشاى وقاموا بإلقاء الشاى الموجود على ثلاث سفن فى البحر -، سوف تصبح اللحظة التى أدرك فيها الناس لأول مرة أن بإمكانهم تحدى حكامهم الطغاة. وبالنسبة للإيرانيين، كان الحدث بمثابة انتفاضة نموذجية، ذلك أن كل مباراة تأهيلية لاحقة جعلت الإيرانيين ينزلون الشوارع. وبمرور الوقت، أصبح المعنى السياسى الضمنى لهذه التدفقات واضحاً بصورة كبيرة. وخلال حملة ٢٠٠٢، ومع كل فوز إيرانى على السعودية، وعلى العراق، وعلى الإمارات العربية المتحدة. كان المشجعون المحتفلون ينشدون «زندباد أزدى» (فليحيا أزدى) و«نحن نحب أمريكا». ولكن هذا قد يقلل من أهمية ثورة كرة القدم. إنها أكثر من مجرد حدث. فثورة كرة القدم تمسك بمفتاح المستقبل فى الشرق الأوسط. وربما أمكن تصور هذا المستقبل فى ظل خفقان الراية القومية الموالية للإسلام، والكتابات الموجودة على الجدران التى تمتدح «شعب إيران النبيل»، وهتاف المحتفلين باسم رضا بهلوى ابن الشاه الراحل المقيم فى المنفى. وهى جذور انتفاضة قومية ضد الإسلام.



لكن هل ثورة كرة القدم هى الثورة التى تريدها الولايات المتحدة؟ من فترة ليست ببعيدة كانت النزعة القومية العلمانية تبدو العدو الكبير فى الشرق الأوسط. فالحكام المستبدون مثل جمال عبد الناصر ومعمر القذافى وحافظ الأسد كانوا أكبر شوكة فى خاصرة أمريكا (المعروف أن وفاة عبد الناصر كانت قبل بداية ظاهرة خطف الطائرات.. **المحرر**)، وكانوا يرعون اختطاف الطائرات وشن الحرب ضد إسرائيل. إلا أن القوميين العرب مروا بأوقات عصيبة فى الثمانينيات. فلم يعد بإمكانهم اللجوء إلى الاتحاد السوفيتى من أجل الرعاية، وكشفت حرب الخليج الأولى كيف أنه بإمكان الأمريكان أن يسحقوا بسهولة حتى أقوى من فى هذه الحزمة. بل إنه منذ أيام ناصر وهؤلاء العلمانيون يتنافسون مع الحركات الإسلامية التى كانت تمولها المملكة العربية السعودية. والآن، وبينما كان هؤلاء القوميون لا حول لهم ولا قوة، حققت حماس والقاعدة والواعظون الوهابيون المتشددون الانتصار فى معركتهم للهيمنة على العقل المسلم.

لا شك فى أن الحكام المستبدين القدامى قد أحدثوا قدراً كبيراً من الصداع، ولكن أمريكا كانت تعرف أساساً كيف تتعامل معهم. فقد استطاعت أن تقضى عليهم الواحد تلو الآخر، وتنبذهم فى النهاية باعتبارهم حمقى لا ضرر منهم نسبياً. ومن ناحية أخرى كان الإسلاميون مشكلة غير معتادة لا يمكن احتواؤها. فما هو السبيل لمواجهتهم؟ كان أحد الأجوبة هو ضخ المزيد من العولمة فى المنطقة. ولكن ذلك لم يفلح حتى الآن. ففى أماكن مثل باكستان، زادت مطاعم كنتاكى وأفلام بوليوود - مدينة السينما الهندية - من تفاقم المشكلة. فقد لفتوا عن طريق عرض أسلوب الحياة الغربية الانتباه إلى افتقار العالم الإسلامى المهين إلى الحداثة. ويشير الحل الآخر لمشكلة النزعة الإسلامية، وهو الحل المحافظ الجديد، إلى أن الولايات المتحدة تدفع الشرق الأوسط بكثافة وسرعة نحو الديمقراطية. إلا أن مجرد حقيقة أن الولايات المتحدة هى القوة الوحيدة الملتزمة التزاماً جاداً بوسائل التحول الديمقراطى تعنى أن الكراهية العمياء للرسول قد تقضى على الرسالة. وتبين ثورة كرة القدم أن أفضل ترياق للنزعة الإسلامية قد لا يكون شيئاً جديداً، بل قديماً. ألا وهو العودة إلى النزعة القومية العلمانية.

الواقع أن ثورة كرة القدم تتنبأ بسيناريو واعد، وهو أن الناس لن تقبل بحكم رجال الدين للأبد، خاصة حين يتذكرون تلك الفترة من الحرية الأكبر التى كانت قبل حكم رجال الدين. وحين يثورون، فإنهم قد يلتمسون العون الأمريكى بشكل عابر. ولكنهم سوف يثورون فى الغالب باسم أمتهم. وقد لا نتفق دائماً مع القوميين الجدد. وقد يوجهون انتقاداتهم تجاه الولايات المتحدة. ولكنهم البديل الممكن الوحيد للحكم بالإسلام.

[٣]

يمكن رواية تاريخ إيران الحديثة كما يُروى تاريخ كرة القدم الإيرانية. فهو يبدأ بعد الحرب العالمية الأولى بالشاه رضا الكبير، ملك الملوك، ظل الله، ممثل الله ومركز الكون، مؤسس الأسرة البهلوية. لم يولد رضا خان، الرجل الذى أصبح رضا شاه فى سن النضوج حين كان فى السابعة والأربعين، فى القصر. فقد كان جندياً شبه عسكرى من الأقاليم صنع اسمه بقيادة فرقة من القازاق المدربين تدريباً روسياً. ولكنه كان فى نظر البريطانيين، الذين قفزوا على بحيرة البترول الإيرانية وحاولوا إدارة البلاد بهدوء، الشخص التافه المناسب. حيث كان رجلاً بلا طموحات سياسية، ومعتادا على تلقى الأوامر. وفى عام ١٩٢١ اتخذ الجنرال السير إدموند أيرنسايد مقراً له فى طهران، وقد اقترح بتواضع أن رضا قد يرغب فى تولى السلطة. وكانت الحكومة القديمة قد باتت ذات نزعة قومية قوية ولا يمكن الاعتماد عليها حسب مذاق أيرنسايد. ونجح انقلاب رضا بمباركة بريطانية. وبعد أربع سنوات تلقى رضا المكافأة النهائية على تعاونه. فقد أرسل العاهل العجوز إلى أوروبا، وحمل هو لقبه المطول ومعه كل مظاهر الملكية. وكانت قفزة أكبر من أن يقوم بها فتى قروى بسيط. ولكن كما سيشهد البريطانيون، فقد أثبت أنه يختلف كثيراً عن ذلك الريفى الساذج الطيع الذى تخيلوه فى البداية. إذ سوف يستخدم الجيش كأداته التى لا ترحم لإعادة تشكيل المجتمع الفارسى على صورة المجتمع البروسى، ليكون أمة حديثة تنافس أوروبا. وكما هو شأن نموذجه الآخر المحدث التركى العظيم كمال أتاتورك، فقد شق الطرق ومد السكك الحديدية، وأخمد الممارسات التقليدية، وقلل من شأن الملالى، وحظر التشادور. وأصدر تشريعاً يقضى بتخلص الرجال من عباءاتهم وارتدائهم الحلل الغربية. ولكى يخلق أمه حديثة، أراد خلق رجل إيرانى حديث يفهم قيم الصحة والتنافس الرجالى والتعاون.

أصبح رضا شاه مؤيداً متحمساً للتربية الرياضية، وكان ذلك ميلاً ناحية الرياضة البدنية الألمانية التى أدخلها ضمن المناهج المدرسية. وسرعان ما أصبحت كرة القدم النشاط المميز لدى النظام. وأمر رضا شاه بأن تلعب القوات المسلحة المباريات، حتى فى الأقاليم، حيث لم تكن الأحذية الأوروبية قد ظهرت بعد. وكما قال مؤرخه صاحب العقل الثاقب هوتشانج شهابى فإنه «بحلول منتصف العشرينيات كانت كرة القدم قد أصبحت رمزاً للتمدن، وسرعان ما جرى الترويج للعبة على أعلى مستويات الدولة».

وكما هو حال رضا شاه نفسه، فإن كرة القدم الإيرانية تدين بقوتها فى البداية للبريطانيين. فقد تعلمت النخبة الإيرانية كرة القدم فى المدارس التبشيرية التى يديرها الأجانب. وتعلمت الجماهير الإيرانية اللعبة بالوقوف على خطوط التماس تشاهد موظفى شركة النفط الأنجلو إيرانية. وكانت فكرة التحديث بصورة عامة، وكرة القدم على وجه الخصوص، تمثل صدمة للنظام الإسلامى. ومع أن رضا شاه قمع رجال الدين، فقد كانوا لا يزالون يمارسون المقاومة الهادئة. ففى القرى أمر الملالى برجم لاعبى كرة القدم الإيرانيين. فعند اللعب فى الزى البريطانى كان الإيرانيون يرتدون الشورتات، مما يخالف الشريعة التى تفرض على الرجال تغطية المنطقة ما بين الصرة والركبة.

لكن الأساليب القديمة لم تُتَح لها

كان مشهد كرة القدم قد أخذ يعكس الطموحات الخاصة بإيران الجديدة الأكثر تحرراً. وهى نفس الروح التى قذفت بالإصلاحى محمد خاتمى إلى الرئاسة قبل ذلك ببضعة أشهر



الحل الكروى للطموحات الإسلامية

فرصة الصمود أمام جبروت المحدثين الذين تدعمهم الدولة القوية. فقد استولى نظام رضا شاه على الأراضى من المساجد وحولها إلى ملاعب لكرة القدم. وبمرور الوقت أصبح حماس الدولة أشد. وبينما احتضن رضا شاه اللعبة لأسباب نظرية إلى حد كبير، فقد عشقها ابنه بحب كهواية. ولعبها ولى العهد محمد رضا بهلوى فى مدرسة روزى بسويسرا. وحين عاد إلى الوطن فى عام ١٩٣٦ لعب كمهاجم فى مدرسة الضباط التى التحق بها. وحين أجبر البريطانيون رضا شاه على التنازل عن عرش الطاووس لابنه فى عام ١٩٤١، بعد أن أقدم بغباء على إقامة علاقات حميمة مع النازيين، وضعوا على العرش أكبر متعصب لكرة القدم فى البلاد.

رغم بعد إيران عن كل من الجبهتين الآسيوية والأوروبية، عانى الاندفاع البهلوى تجاه الحداثة من نكسة كبيرة بسبب الاختلالات الاقتصادية الناجمة عن الحرب العالمية الثانية. وفى ظروف البلاد السيئة، أصبح النفوذ الأجنبى، وكان لا يزال هو النفوذ البريطانى مع تزايد النفوذ الأمريكى، بارزًا كما كان من قبل، وبلغ ذروته بالانقلاب الذى قادته الولايات المتحدة للإطاحة برئيس الوزراء المنتخب محمد مُصَدِّق فى عام ١٩٥٣. وفى المدن، بدأت طبقة المثقفين الاشتراكيين ورجال الدين التقليديين تأكيد وجودهم. وكانت أمور مهمة خاصة بالدولة تشغل ذهن الشاه الجديد. ورغم ذلك، وباعتباره مشجعًا مخلصًا، لم يمكنه التغاضى عن الخسائر التى لحقت بالفريق القومى الإيرانى فى الخمسينيات. ولذلك بدأ فى تخصيص الموارد لخلق فريق عظيم.

فى العقد الثانى من حكمه، أثمر العمل الشاق. وكجزء من برنامج النظام المتواصل للنمو المحموم والتحديث، امتلأت المدن التى تحولت حديثًا إلى الصناعة بملايين المهاجرين من الأقاليم. وقد بدأ هؤلاء الوافدون، الذين يتمتعون لأول مرة بالراحة من العمل الشاق فى الزراعة، فى ملء أوقات فراغهم بكرة القدم. وكان المتحضرون حديثًا الذين لا يمكنهم الحصول على تذاكر لدخول الاستاد يشاهدون كرة القدم على شاشة التلفزيون؛ وهى الوسيلة التى ازدادت جماهيرية فى أواخر الستينيات. ولكن شعبية هذه الرياضة ترتكز على مباراة واحدة لُعبت ضد إسرائيل فى أعقاب حرب ١٩٦٧.

وعلى عكس سائر العالم الإسلامى، كان للإيرانيين تحالف هادئ مع الدولة اليهودية مخالف لصخب أواخر الستينيات. (كثيرًا ما حققت إسرائيل نجاحًا كبيرًا فى تنمية التحالفات غير العربية على حواف العالم الإسلامى). وبسبب هذا التحالف لم ينضم الإيرانيون إلى الدول المسلمة الأخرى التى رفضت حتى دخول المجال الرياضى مع الإسرائيليين.

وقد لُعبت المباراة ضمن دور الأربعة فى كأس الأمم الآسيوية. وبينما احتفظ النظام بعلاقات مع إسرائيل، لم يكن الشعب الإيرانى يتبنى الموقف نفسه على الإطلاق. وفى وقت سابق من الدورة، حين لعبت إسرائيل مع هونج كونج، رمى الإيرانيون المشجعين اليهود بالزجاجات. وكما قال هوتشانج شهابى، فقد كانت المباراة مع إسرائيل دراسة حالة فى القبح. فقد أطلق المشجعون البالونات المغطاة بالصليب المعقوف. كما هتفوا «الهدف الثانى فى الشبكة، مؤخرة موشى ديان المسكينة مشقوقة وملتهبة».



هناك نظريات كثيرة تفسر المنطق الذى وراء قرار الشاه السماح بإجراء هذه المباراة. ويقول إيرانيون كثيرون باقتناع إن الشاه نظم المباراة لتنفيس الشعور المعادى لإسرائيل بطريقة غير ضارة. ويؤكد آخرون أن الإسرائيليين جعلوا نتيجة المباراة ٢-١ مساندة لصديقهم الشاه. ومهما كان الأساس المنطقى لقرار الشاه، فقد اكتسب انتصار إيران أهمية أسطورية. وقد سجله المغنون الشعبيون فى أغنية. وأصبح اللاعبون شخصيات قومية يقلدها الأطفال فى آلاف من مباريات الكرة الشراب التى تقام فى الشوارع.

وإذا كان النظام استغل المباراة بذكاء ضد إسرائيل كى يدعم موقفه، فقد كان استغلاله أكثر وضوحًا فى السنوات التالية. وانتعشت اللعبة فى السبعينيات مع المنافسة المكثفة بين الأندية. وتعلق أفراد العائلة المالكة فى الشعبية الجديدة وبدءوا علانية تأييد نادى التاج. وللتغطية على قواعد الملكية، تعاطفت زوجة الشاه مع فريق بارسبوليس منافس التاج الكبير. ومع ارتباط الملكية الشديد هذا بكرة القدم، فمن المحتم أن يستهدف معارضو النظام الإسلاميين ذلك، وغالبًا ما كانوا يقاطعون المباريات لإعلان احتجاجاتهم.

وكان لنظام الشاه الكثير من الأخطاء، وخاصة التعامل مع معارضيه بوحشية لا سبيل إلى إنكارها. ولكن أكبر عيوبه، وهو العيب القاتل، هو برنامج الشاه الخاص بالتحديث. فقد كان يدفع بالبلاد بشدة، وبسرعة، كى تصبح حضرية وصناعية. فقد تم القضاء على قرون من الحياة الفارسية خلال جيل من التحول المحموم. إلا أنه حين طرد الثوريون الشاه فى عام ١٩٧٩ حاولوا بشدة القضاء على الرمز الرياضى لبرنامج التحديث هذا. فقد استولوا على ملعب كرة القدم فى جامعة طهران، واستخدموا الاستادات أماكن للصلاة فى يوم الجمعة. كما أمموا نوادى كرة القدم، وحولوا التاج إلى الاستقلال وبارسبوليس إلى بيروزى (النصر). وأوضح المتزمتون المتقشفون فى صحفهم ومنشوراتهم أنهم يعتبرون كرة القدم دعوة منحطة. ويقول شجب ثورى نمطى: «ألم يكن من الأفضل بدلاً من التصرف كالمهرجين مثل البريطانيين والأمريكيين من أجل «اللمعان» فى الحلبات الدولية أن يلمع - اللاعبون - فى صحبة أخوة... الجهاد فى قرانا، حيث تنقص أبسط أسباب الراحة؟ هل حُلت كل مشاكلنا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى نتحول إلى الرياضة؟».

[٤]

خلال فترة قصيرة جدًا نجح النظام الإسلامى بالفعل فى القضاء على الثقافة الشعبية الإيرانية، وتخلص من المغنيات والمطربين، رافضًا أى فيلم سينمائى يكشف عن قدر زائد عن الحد من اللحم. ولكن حين امتد ذلك الحظر إلى كرة القدم، أصبح من المستحيل الدفاع عن موقف النظام. فقد وضع الحكومة الجديدة فى معارضة مباشرة مع هواية كبيرة للشعب الإيرانى. وبسرعة كبيرة أدرك الملالى أن القضاء على كرة القدم لا يستحق ثمنه السياسى. وبما أن رجال الدين لم يتمكنوا من تدمير كرة القدم، فقد فعلوا ثانى أفضل شيء. ذلك أنهم حاولوا الاستفادة منها واستغلال اللعبة من أجل كل ما لها من قيمة. فقد اندس عملاء النظام بين جماهير المشجعين وحاولوا قيادة الهتافات التى تحمد الله. وجرب النظام كذلك وضع شعاراته على لوحات تحيط بالملعب. فبدلاً من الإعلان عن توشيبا وكوكاكولا، كانت اللوحات تصرخ قائلة: «فلتسقط الولايات المتحدة»، و«لابد من تدمير إسرائيل».

لكن ربما لم تتخيل الحكومة بشكل جاد أن تلك الرسائل السياسية يمكن أن تنجح، ولو بطريقة لا شعورية، فى شد انتباه المشجعين. فالواقع أن الجماهير فعلت شيئًا قريبًا من عكس هز قبضاتها والصياح بالهتافات الإسلامية. فقد طردوا قادة الهتافات المتدينين خارج الاستاد. وكانت تلك رسالة لا لبس فيها لإخراج المسجد من الرياضة سمعتها الحكومة فى النهاية. وتوقف النظام عن الزج بالدعاية السياسية الموجهة فى كرة القدم، وبدأ يرسم مسارًا أكثر واقعية مع التركيز على تقليل خسائره والحد من التأثيرات غير الإسلامية التى تصاحب اللعبة. وكان فى ذلك شديد الحيلة والذكاء بشكل غير عادى. فقد أصر فى بعض المباريات على تأخير طفيف فى البث، بحيث يكون لدى الرقباء الوقت الكافى لمحو لغة الجماهير السيئة أو الرسائل السياسية



إنها أكثر من مجرد حدث.
فثورة كرة القدم تمسك بمفتاح المستقبل فى الشرق الأوسط. وربما أمكن تصور هذا المستقبل فى ظل خفقان الراية القومية الموالية للإسلام

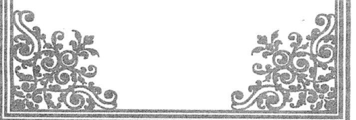




حب الوطن فرض عليّه

محمد يونس القاضى

حب الوطن فرض عليّه — أفديه بروحى وعينيه
ليه بس ناح البلبل ليه — فكرنى بالوطن الغالى
قضيت أعز شبابى فيه — وفيه حبايبى وعزالى
وإن شاف هوان والا أسية — أفديه بروحى وعينيه
يا مصر أنا رضعت هواك — بيجرى فى دمى
أحب نيلك وسماك — أنت أبويا إنت أمى
أرواحنا وشبابنا فداك — وفداكى روحى وعينيه
ماليش يا مصر حبيب غيرك — أميل إليه فى الدنيا دى
ونا اللى متربى فى خيرك — وإزاى راح أنسى هوا بلادى
ونيلك الحلو الصافى — أفديه بروحى وعينيه
حب الوطن فرض عليّه — ومن يلومنى فى حبه ده مين
ده ورده أحلى فى عنيه — من كل ورد تشوفه العين
يا أعيش كريم يا أموت كريم — وأفديه بروحى وعينيه
حب الوطن فرض عليّه — أفديه بروحى وعينيه



لا شك فى أن الحكام المستبدين القدامى قد أحدثوا قدراً كبيراً من الصداع، ولكن أمريكا كانت تعرف أساساً كيف تتعامل معهم. فقد استطاعت أن تقضى عليهم الواحد تلو الآخر

التى يمكن سماعها من خلال التلفزيون. وبالنسبة لمباريات أخرى، كان يخفف صياح الجماهير بطريقة إلكترونية ليصبح مجرد ضجيج مسموع وغير مفهوم. وأثناء كأس العالم لعام ١٩٩٨ كانت الحكومة الإيرانية تعيش فى حالة خوف من معارضيها فى المنفى، وخاصة جماعة من شبه الماركسيين تسمى «مجاهدى خلق» كانت تملأ الاستاد فى فرنسا، وكانت تأتى معها بالرايات وتعد الهتافات بعناية. ولتحاشى نقل رسائلها المدمرة بشكل يثير الارتباك، لم يكن التليفزيون الإيرانى يذيع أية لقطات للجمهور الحقيقى. بل كان يقوم بعمل مونتاج يضع من خلاله صوراً من مباريات سابقة، ولم تكن الصور مقنعة بصورة كبيرة. إذ كانت الجماهير التى يعرضها التلفزيون ترتدى المعاطف الشتوية الثقيلة، وهى الملابس التى لا تتناسب بحال من الأحوال مع فرنسا فى شهر يونيو.

فما الذى يخشاه النظام إذن من كرة القدم؟ فى مشهد كوميدى مؤثر فى فيلم للمخرج عباس كياروستامى «الحياة تمضى» الذى تدور أحداثه فى اعقاب وقوع زلزال، يكافح الرجال لضبط الهوائى لاستقبال مباراة بين النمسا واسكوتلندا. ولابد من ملاحظة أن هاتين ليستا من بين عمالقة كرة القدم المعاصرة. وهذا هو المثير فى الأمر. فالإيرانيون يرغبون بشدة فى مشاهدة كرة القدم الدولية لأنها تربطهم بالغرب المتقدم الرأسمالى غير المسلم. وحين تذاع مباريات من كأس العالم، لا يمكنهم تحاشى اللافتات الموضوعة على جانب الملعب تعلن عن «بلاى ستيشن» و«دوريتوس» و«نايكى»، وهذا أسلوب حياة محظور على الإيرانيين الانضمام إليه. وهذه الصلة يدركها المحافظون. وفى صحفهم يطمس من يقومون بعمل مونتاج للصور الفوتوغرافية الإعلانات التى تمجد الملابس الغربية.

مرة أخرى، ليس هناك سوى ذلك القدر الكبير من الحد من الأضرار الذى يمكن للمحافظين القيام به. ذلك أن بإمكانهم طمس الإعلانات وليس اللاعبين أنفسهم. فأية صورة لديفيد بيكام، على سبيل المثال، بشعره الذى تتنوع تسريحاته بين «بظ» و«موهوك» و«ديل الحصان»، تمثل فكرة الحرية. وهى الفكرة التى وعاها اللاعبون الإيرانيون. وبلا استثناء تقريباً، يلعب أفراد الفريق القومى بلا لحى وبشعر جرى تسريحه بعناية. وهم يحظون بحب كبير، واحترف كثير منهم اللعب فى ألمانيا وإنجلترا وسنغافورة، وغيرها من مواقع الاقتصاد الكونى المتقدمة. ولم يمكنهم أن يكونوا أكثر اختلافاً عن نموذج الرجولة الإيرانية المتدينة الذى يود رجال الدين فى مدينة قُم المقدسة نقله.

[٥]

أبرزت انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٩٧ الأمل الأبيض الكبير، وهو رجل الدين والمفكر محمد خاتمى. وكان خاتمى قد أيد فى كتاباته تطابق الإسلام والليبرالية. وكان مؤيدوه يحلمون بصوت عال بأن يؤدى انتخابه إلى حقبة جديدة من الديمقراطية والمجتمع المدنى وحرية التعبير وحقوق أكبر للمرأة. وبينما كانت آمال الكثير من الإيرانيين ترتكز على خاتمى، فلم يسمح معظمهم بقدر أكثر من اللازم من التفاؤل. إذ كان خاتمى الجواد المتوقع خسارته فى السباق. ذلك أن منافسه على أكبر ناطق نورى، وهو رجل دين كذلك، جاء بمباركة المرشد الأعلى أية الله خامنه إى، وكان يمثل قوى النزعة المحافظة فى المؤسسة الحاكمة. وفى إيران يمكن لرجال الدين، متى شاءوا تقريباً، مد ذراعهم الطويلة باستخدام الميليشيات لشق طريقهم بالقوة.

أبرز خاتمى أجزاء من أجندة أكثر ليبرالية. ولكن الخطاب السياسى الإيرانى ليس سوقاً نموذجية للأفكار. فهناك بعض الأفكار التى لا يمكن الجهر بها. فلا بد من نقلها بطريقة ضمنية وباستخدام الرموز، مثل الأبطال الرياضيين المحيطين بالمرشح.

من بين ألعاب وأنشطة وقت الفراغ الإيرانية نجد أن أقدمها وأكثرها احتراماً هو «زورخانه»، أو دار القوة. وبشكل أكثر تحديداً ليست «زورخانه» رياضة وإنما



الحل الكروى للطموحات الإسلامية

صالة ألعاب تمارس فيها الرياضة. وهى ألعاب محلية تشمل حمل الأشياء الثقيلة وعروض القوة الوحشية الأخرى التى تشبه المصارعة ورفع الأثقال. وطقوس «زورخانه» محددة بعناية. فالحركات تبدأ بمدح آل البيت. وبسبب هذه الأصول الإسلامية، فلدى المحافظين الإيرانيين انجذاب لا يدعو للدهشة نحو «زورخانه». وتخصص صحفهم أكواماً من التغطية للرياضة. وتتجاهل كرة القدم بشكل أساسى. والتقى ناطق نورى فى حملته الانتخابية بالمصارعين وأشاع حبه للرياضة على نطاق واسع.



كان ناطق نورى قد حول نفسه دون أن يدرى إلى سيف ماض فى يد خاتمى. فبدون أن يُضطر خاتمى إلى نطق الكثير من الكلمات عن الديمقراطية أو الغرب، استطاع أن يثبت نفسه للإيرانيين المتعطشين للإصلاح عن طريق الانحياز إلى استاد كرة القدم. فقد أحاط خاتمى نفسه باللاعبين المشهورين الذين أيدوه. وما من سبيل لقياس الأثر المطلق لهذه الإستراتيجية. ولكن المنطق واضح وضوحاً كافياً. فقد كان أهل البلاد من الشباب الناشئ فى إيران ينظرون إلى الغرب وإلى كرة القدم كمصدر للإلهام. فقد كانوا ينظرون إلى التحالف مع كرة القدم على أنه يشير إلى المكان الذى ترتكز عليه مشاعر خاتمى. وفى النهاية فاجأ خاتمى الجمهور وحصل على الرئاسة.

ولكن الحصول على الرئاسة وتحقيق آمال مؤيديك العليا أمران مختلفان. ومن سوء الحظ أن خاتمى لم يمكنه قط تحقيق أحلام الشباب الإيرانى ذى الميول العلمانية، لأنه لم يكن قط ذلك المخلوق الذى تخيلوه. فقد كان مفكراً ليست لديه الشجاعة أو القوة كى يتحدى رجال الدين الحاكمين تحدياً تاماً. والأهم من ذلك أنه نفسه كان رجل دين تقليدياً.

خلال السنوات الثلاث الماضية، كان السخط على خاتمى يخرج من مكمنه من حين لآخر. وقد أعقب الكثير من مناسبات السخط تلك كأس العالم. أى المباريات المتصلة به. وكما يحدث دائماً، حاول النظام استباق تلك الانفجارات بإشارات نموذجية. فبعد مباراة مهمة تؤهل لكأس العالم لعام ٢٠٠٢، صنعت الحكومة كعكة باستخدام ١٢ ألف بيضة وزعتها فى أنحاء طهران فى شاحنات مبردة. ولكن الحلوى لم تكن كافية لاستعادة ولاء الشباب. فقد بدأوا البحث عن بديل لكل من الملالى المحافظين والملالى الإصلاحيين مثل خاتمى. وحتى الآن لم يتخذ البديل شكلاً واضحاً، إلا أن هناك أمارات تدل على الاتجاه. فهناك حنين قوى بين الشباب إلى أيام الشاه، حتى وإن لم يعيشوا هم أنفسهم تلك الأيام. وتوزع الأشرطة المهربة للنجوم الشعبيين من الماضى على نطاق واسع. وهاهى ربطة العنق تُبعث من جديد. إنه نفس الدافع الذى وراء ثورات كرة القدم التى تهتف باسم ابن الشاه.

فما الذى ينبغى أن يحققه الغرب من ثورة كرة القدم؟ المقبول ظاهرياً أنها تمثل التحدى الحتمى الذى تشكله العولمة للإسلام. ولكن هذه ليست القصة كاملة. فَكُرَة القدم تحقق نجاحاً كبيراً فى العالم الإسلامى دون أن تلغى التشدد. وهاهو حزب الله يرعى فريق كرة قدم فى لبنان، وكان فيما مضى قد اشترى حقوق بث كأس الأمم الأفريقية لشبكة الإذاعة الخاصة به. كما استوردت دول الخليج العربى ذات التوجه الوهابى نجوم الغرب العواجيز للعب فى بطولات الدورى الخاصة بها. وقد شيدت الملاعب الفخمة بالرخام وورق الذهب، مثل استاد الملك فهد الدولى المهيب بالرياض ذى التأثير البدوى.

إن ما يجعل ثورة كرة القدم مختلفة هو أنها دخلت بهدوء فى العاطفة القومية وحولتها ضد الدولة. ذلك أن الإخلاص الإيرانى للإسلام فى عظم الإخلاص الإيرانى لإيران. فدائماً لم يكن الاثنان الشىء نفسه، وهناك تاريخ قريب من العلمانية القومية، العلمانية التى تقوم مقام البديل. قد لا تكون البديل الأمثل، ولكنها سوف يجب أن تكون كذلك فى الوقت الراهن. ■



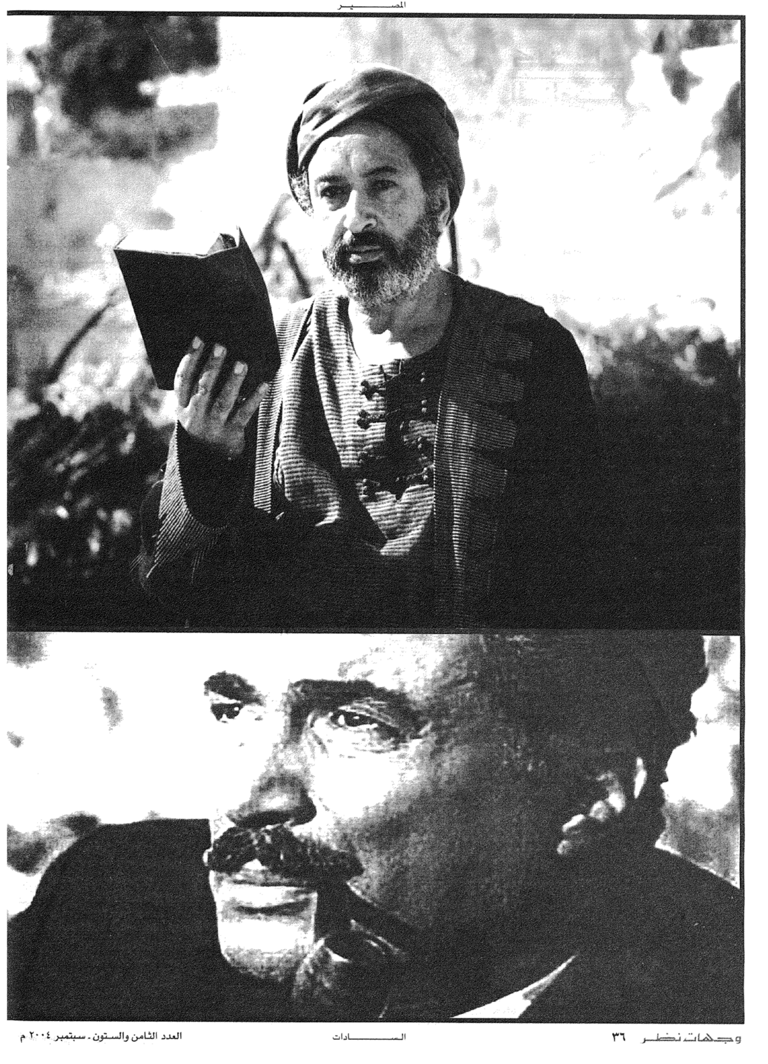
زورونى كل سنة مرة

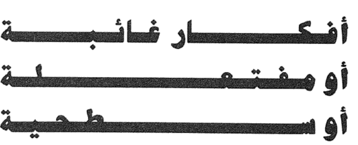
محمد يونس القاضى

زورونى كل سنة مرة — حرام تسونى بالمرة
أنا عملت إيه فيكم — تشاكونى وأشاكيكم
أنا طول عمرى أداديكم — حرام تسونى بالمرة
يا كبدى ع اللى مالوش حد — بطول عمره يقاسى الوجد
وتنزل دمعته ع الخد — حرام تسونى بالمرة

أنا هويت وانتهيت

أنا هويت وانتهيت — وليه بقى لوم العزول
يجب إنى أقول يا ريت — الحب ده عنى يزول
مادمت أنا بهجره ارتضيت — خللى بقى اللى يلوم يلوم
أنا وحبيبى فى الغرام — مافيش كده ولا فى المنام
أحبه حتى فى الخصام — وبُعده عنى يا ناس حرام
مادمت أنا بهجره ارتضيت — منى على الدنيا السلام





أفكار غائبة
أو مفتعلة
أو سطحية
سينما بلا هوية !





سينما بلا هوية!



سعد القرش

هل يمكن أن تكون للسينما قومية وهوية؟

وهل مطلوب منها ذلك؟

هذا مقال يقدم «وجهة نظر» فى الموضوع من خلال قراءة لتاريخ السينما ولعدد من الأفلام المصرية والعربية.

بعد مرور نحو مائة عام على بدايات فن الرواية العربية، حصل نجيب محفوظ على أرفع جائزة عالمية فى الآداب، (جائزة نوبل عام ١٩٨٨). ولكن السينما العربية لم تستغرق هذا الوقت، كى تعبُر الضفة الأخرى من العالم، بمشاركات مشرِّفة فى مهرجانات دولية، حصل بعضها على جوائز. وقبل مشاركة هذه الأفلام، ممثلة العالم العربى، إلى جانب أعمال من دول راسخة فى الإنتاج السينمائى، كان الجمهور المحلى قد تجاوب مع الفن الجديد، الذى جمع أفضل ما فى الفنون الستة السابقة؛ فلأول مرة يجد الناس، على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية والطبقية، فناً يصلح لمخاطبة الجميع، ولا يملك أحد إزاءه حق ادعاء فهم فن موجه للنخبة، أو التعالى باحتكار ملكية عمل إبداعى، فى صالونات البيوت.

ولدت السينما بعافية مستمدة من خبرة مبدعى الفنون الأخرى، لتنطلق مباشرة من الاستوديوهات إلى الشارع.

فإلى أى مدى ساعدت الأفلام العربية جمهورها، الذى كان من بين أهم أسباب نجاحها التجارى، فى رفع وعيه، وتنبيهه إلى حقوقه السياسية والثقافية والجمالية؟

كان بالإمكان أن يحدث ذلك، لو توفر فائض وعى وطنى وثقافى، لدى رواد هذه «الصناعة». ولكن كثيرين منهم لم يفعلوا؛ إما لأنهم يريدون الربح السريع وحده، أو أن لهم قضية وهماً، كما فى حالة بعض رائدات السينما المصرية، وتنقصهم المعرفة الثقافية السابقة على السينما، فضلاً عن عدم الإيمان بالجمهور، أو المعرفة به.

والآن وبعد هذه السنين، ورغم الاعتراف بجهد كل من وضع لَبِنة، فى صرح السينما العربية، يمكن القول إنها، رغم المحاولات المهمة شكلاً ومضموناً، أخطأت فى حق الجمهور، ولم تتبن قضاياه الحقيقية، وأضاعت سنوات من عمر الوطن، فى أفلام يُغنى بعضها عن الآخر، ولا تضيف كثيراً إلى رصيد جماليات السينما، أو تنبيه الشارع إلى حقوقه.

كانت البدايات لأجانب، مقيمين أو عابرين أو مستثمرين، إلى أن انتبه اقتصاديون وطنيون ومثقفون، إلى خطورة هذا الفن، وأهميته فى تشكيل الوعى العام، فأنشأوا الاستوديوهات، فى مقدمتها ستوديو مصر، على يد الاقتصادى المصرى طلعت حرب.

وتنهض السينما العربية فى هذه المهمة القومية، على وعى صانعيها وثقافتهم، فلم يعودوا هواة، بل متخصصين، يحملون فى ذاكرتهم تاريخاً يمتد آلاف السنين، ورصيداً سينمائياً بعضه يتصدى للمقارنة بما تقدمه الدول الكبرى سينمائياً.

ويعى المثقفون من السينمائيين العرب، أن العالم لم يعد يريد منا أفلاماً، ليفهم بها كيف نفكر، على غرار روايات عربية تستهدف إثارة دهشة القارئ الغربى، وتكرس صورتنا الذهنية السيئة، وغير الحقيقية فى إدراكه الجمعى التاريخى، حيث تجد هذه الأعمال رواجاً، لأنها كتبت على مقاس خياله «الاستشراقى»، وبالطريقة التى تمنى هو أن يكتب بها عنا.

السينما القومية التى نطمح إلى أن تكون تياراً، وليس مجرد تجارب لمبدعين أفراد، لا يريدها العالم أن تكون بالطبع نسخة سبق أن صدرها إلينا، بل صيغة جمالية، لا تشبه إلا نفسها. وتحمل رائحة تاريخنا، وهمومنا الخاصة، باعتبارها من بين القضايا التى تؤكد أشواق الإنسان، إلى الحب والخير والعدل والجمال. وتجمع الخاص والعام، المحلى والخارجى، فى لغة لا تتجاهل المدارس والتيارات السينمائية والثقافية العالمية، وتبدع لنفسها نهجاً خاصاً، يدل عليها مثل بصمات الأصابع.

عن الهوية القومية والسينما

قبل البحث عن هوية قومية للسينما العربية، ينبغى التسليم بأن هذه السينما ليست كتلة متجانسة، ولا يصح النظر إليها كمعنى كلى مطلق، بل كتيارات وتوجهات، تتأثر بالمعطيات المحيطة بكل بلد، وبتغيراتها فى البلد نفسه، بل فى أفلام المخرج الواحد.

والهوية القومية للسينما لا تعنى أن يتبنى المخرج، وهو المسئول الأول عن الفيلم، شعارات وطنية زاعقة، أو الإثقال على الفيلم بقضايا ذهنية، تحول دون المتعة، وهى الشرط الأول للفن، بقدر ما تعنى امتلاك المخرج حداً أدنى من الوعى، بشروط الفن والحرفة والانتماء معاً، فالفيلم الجيد وطن وهوية، مادام يتمتع بالصدق الفنى، ولا يهم كثيراً «ماذا يقول»، بل «كيف» تُحكى الحكاية.

ولا يكتسب الفيلم، أو الفن عموماً، صفة «العالمية»، التى تتردد بلا معنى، منذ حصل نجيب محفوظ على نوبل. إلا من قدرة مخرجه على التوجه إلى الإنسان عموماً، بغض النظر عن لغة الفيلم. ولا تتحقق العالمية، إلا من الوعى بالهوية القومية، حين يستوعب المخرج تراثه الحضارى، وقضاياه الآنية، فى رؤية لا تتشابه مع غيرها، وإنما تكون هى ما هى، أى تدل على نفسها، حتى يقول المشاهد: «هذا فيلم عربى»، ثم يزداد التخصيص، فيقول فيلم مصرى أو سورى أو تونسى.

ولأن انتقاد السينما والسينمائيين، فى كل مكان، لم يكن بحاجة إلى تخصص أو تعب، إذ يسهل توجيه أصابع الاتهام بإدانة من تشاء، فإن المدخل الأهم يجب أن ينصب على مدى وجود تيار قومى عربى قبل اختراع السينما، وامتداده فى الفكر العربى.

إن طرح سؤال الهوية يؤكد أزمة مزمنة، فالأمم فى مرحلة الصعود، لا تنشغل إلا بالبناء، والزهو بالتحقق، والرغبة فى الإضافة، والنظر إلى أعلى، والتفاعل المتكافىء مع القوى الأخرى. أما فى مراحل الضعف، فيتم الاكتفاء بعقد مؤتمرات وندوات، تعويضية ذات طابع دفاعى، عن الجذور والانتماء والهوية.. إلخ.

وإذا قلنا «سينما عربية»، فإن لمصر منها النصيب الأكبر. فهل كانت لدى السينمائى المصرى، منذ البداية، الدراية الكافية بأهمية هذا الفن وخطورته، على مدى نحو مائة عام؟

فى نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، كانت التيارات الفكرية العربية متعارضة، بين المشرقيين والمغاربة والمصريين، لدرجة التصادم، وبينهم ضاع مفهوم العروبة، ولم يجد من يتحمس لبلورته كمصطلح؛ فقد كان المفكر التونسى خير الدين التونسى (١٨١٠ / ١٨٨٩ م) بعيداً عن روح القومية الحديثة التى تعتبر كل أمة فريدة بحد ذاتها. فما يقوله عن الأمة العربية ينطبق على جميع الأمم الإسلامية.

فى حين كان مفكر مثل شبلى شميل (١٨٥٠ / ١٩١٧ م) يتوق إلى اليوتوبيا بالدعوة إلى الوطنية العالمية بديلاً للتضامن الدينى والرابطة القومية، وقد قاده موقفه إلى مساندة وجهة نظر الاحتلال الإنجليزى بشأن مد امتياز قناة السويس عند مناقشته فى مجلس التشريع فى سنة ١٩٠٩.

ولعل مصطلح (الأمة العربية) يعود إلى المفكر الكاثوليكى السورى نجيب عازورى (١٨٧٠ / ١٩١٦ م) الذى نشر فى باريس عام ١٩٠٥ كتاب (يقظة الأمة العربية) ونادى فيه بأن تكون «بلاد العرب للعرب»، مؤكداً أن المصريين «غير جديرين بعد بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وعليهم أن يكونوا شاكرين على تمتعهم بإدارة بريطانية صالحة».

وشأن معظم الذين يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة، ويفرضون الوصاية على التوجه المستقبلى، لمصر وغيرها، كان المثقفون العرب فى ذلك الوقت. ولا أدرى هل كان أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ / ١٩٦٣) فى دعوته المصرية، ينطلق من رد فعل لمحاولات فرض الوصاية، أم أنه كان مقتنعاً بفكرة عدم اعتبار المصريين جزءاً من الأمة العربية.

ووسط الغلاة، من دعاة الشوفينية المصرية، و«الوطنية العالمية»، كان صاحب صحيفة (المؤيد) الشيخ على يوسف (١٨٦٣ / ١٩١٣ م) يريد ألا يغضب أحداً بتأكيده على أن «القطر المصرى قبلة الشعوب العربية وروح نهضتها المنتظرة، فهى ترقبه كما يرقب الملاح إبرة البوصلة التى أمامه ليهتدى بها وينعطف إلى الجهة التى تدل عليها».

ولم يقتنع الذين دعوا إلى عزل مصر عن محيطها العربى، بكفاية اللغة دليلاً على عروبتها، فاللسان الفرنسى فى الجزائر لا يعنى فرنسة البلد، و اللغة الإنجليزية فى الولايات المتحدة لا تؤكد أن الثقافة الأمريكية، إن وجدت، إنجليزية الهوى أو الهوية؛ فاللغات «لم تصنع التاريخ القومى، بل التاريخ «القومى» هو الذى صنع هذه اللغات. المجتمعات التى تشعر بهوية واحدة كانت فى الواقع تخلق لغة خاصة بها إن لم تجد لغة متوفرة لها». (د. نديم البيطار. حدود الهوية القومية).

كانت المرحلة التاريخية شديدة الاضطراب، وفى ضباب معاركها غير المتكافئة، يسهل الخلط، بحسن نية أو بسوء؛ فقد كانت معظم الدول العربية تحت الاحتلال، أو مرشحة له، أو للحماية، تمهيداً لإعلان حرب أوروبية، أطلق عليها ظلماً (الحرب العالمية الأولى). ولم يكن



.«يعنى ايه كلمة وطن ؟
يعنى أرض ؟، حدود ؟، مكان ؟
ولا حالة م الشجن ؟»

(أمريكا شيكا بيكا)

الاتصال بين الشعوب العربية ميسوراً، ولعل هذا ما دفع مفكرى كل بلد، للتفكير فى تاريخه الخاص، وتراكم خبراته وثقافاته، وصولاً إلى حد أدنى من الاطمئنان، إلى وجود هوية قُطرية.

وبينما كانت معارك الصالونات بين المثقفين العرب دائرة، فى العواصم العربية والأوروبية، كان الشارع المصرى غائباً عنها أو مغيباً، إذ «تجنبت كل الحركات القومية، أو القُطرية ذات الطابع السياسى فى المشرق العربى منذ البداية الدخول إلى ساحة مصر الملكية، وربما إلى ساحة مصر الجمهورية أيضاً بعد ثورة ١٩٥٢.. ولعل ذلك يعكس فى مجمله غيبة هذه الحركات عن الشعب المصرى الذى كان مشغولاً بمقاومة الاحتلال البريطانى فى إطار الوطنية المصرية». حتى حزب الوفد، وهو أول حزب شعبى مصرى يحظى بالأغلبية، فى الحياة السياسية المصرية، فى النصف الأول من القرن العشرين، «لم يكن بطبيعته، خصوصا فى سنواته الأولى متحمساً للاتجاهات العربية».

ويفرق الدكتور عبد العظيم أنيس بين تحفظ قيادات ثورة ١٩١٩ فى مصر إزاء الفكر القومى العربى المشرقى، وتعاطف المصريين الشديد مع نضال الشعوب العربية، فى المشرق ضد الاستعمار، بعد الحرب العالمية الأولى، موضحاً أن هذا التعاطف كان شيئاً مختلفاً عن الالتزام القومى بالمعنى المعروف فى المشرق، وبقى التيار الليبرالى المصرى مرتبطاً بفكرة الوطنية المصرية، التى أعادها أدباء مثل توفيق الحكيم إلى جذورها الفرعونية فى (عودة الروح)، كما أعادها طه حسين ثقافياً إلى جذور بحر متوسطية فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر).

ولعل نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ كانت بداية اهتمام الشارع المصرى بالشأن العربى العام، حيث قامت مظاهرات بالقاهرة يوم السبت الثالث من مارس عام ١٩٥١، احتجاجاً على حصار قوات فرنسية قصر السلطان محمد الخامس فى المغرب، وأصدرت جماعة العلماء بالأزهر الشريف بياناً تطلب فيه مقاطعة كل ما هو فرنسى، «واعتبرت فرنسا أن مصر تتحمل مسئولية كبرى فى الاضطرابات (فى المغرب) وتشجيعها واتهمتها بأنها تتدخل بذلك فى شئون فرنسا الداخلية، بل إن المقيم الفرنسى فى مراكش أدلى بتصريح للصحف الفرنسية فى ٧ مارس ١٩٥١. نشرته صحيفة (المصرى) القاهرية. قال فيه: إذا كان هناك أى هياج، فإنه فى القاهرة. والشعب المصرى هو الذى سيدفع الثمن».

فى تلك الأجواء، هل كنا ننتظر من السينما، فى ذلك الوقت المبكر، أن تتبنى قضايا ذات توجهات عروبية؟.

وليس فى مراجعة السينما العربية الآن، أى تعسف، بمطالبتها مثلاً بخصوصية قومية ما، كما أن هذا الطموح، إن وجد، لا يسىء للسينما أو السينمائيين العرب، الذين صنعوا فى سنوات لاحقة، أفلاماً ذات توجهات وطنية أو قومية أو تحررية، ذات أبعاد إنسانية، من دون التنازل عن شروط الفن. ولاتزال بعض هذه الأفلام تتصدى لاختبار الزمن، خاصة ما كان منها لمخرجين يملكون الوعى بأنهم لا يخاطبون جمهور أزمة، ولايرصدون حدثاً مؤقتاً، يفقد الفيلم بعده قيمته الفنية، التى يفترض أنها صالحة لجيل لم يولد بعد.

وربما أمكن تفسير غياب الرؤية الوطنية عن كثير من الأفلام العربية، فى النصف الأول من القرن العشرين، بعدم وجود تاريخ طويل للطبقة المتوسطة، التى كان بإمكانها أن تختصر سنوات من عمر هذه السينما، ورغم وجود ممثلين لهذه الطبقة، فقد ظلوا مجرد ممثلين لها، وغير مؤثرين على المستوى العام. كما أن السينما «عندنا لم تبدأ فناً وإنما بدأت حرفة»، ومن المتوقع أن تكون السينما التى يصنعها «حرفيون متخلفون فكرياً»، على مقاس صانعيها، وهم غالباً «بلا قضية جاءوا إلى السينما ليعبروا عنها ولا يؤمنون بهذا الإنسان الذى يصنعون من أجله سينماهم».

ومن يراجع مضمون أفلام السنوات العشرين الأولى، من عمر السينما المصرية، يجد بيسر اتجاهاً قوياً لإطالة مدى الظروف غير الآدمية للمواطنين، الذين أصبحوا أقرب إلى الرعايا، فى بلد لايخص إلا الأثرياء، سياسياً واجتماعياً ومالياً؛ وكانوا هم المستفيدين من سينما تميل إلى تخدير البسطاء، ولا يرغب صانعوها فى توعيتهم، وربما لا يملكون القدرة على أداء هذا الدور أصلاً. هذا يؤكد أن «تاريخ السينما المصرية لا يعدو أن يكون تاريخاً تجارياً.. تاريخاً لإثارة غرائز الجمهور بكل الوسائل سعياً وراء الكسب المادى».

وإذا كانت السينما العربية، كأحد مصادر البهجة الشعبية، قد تجاهلت السياسة، والقضايا الكبرى، فى السنوات الأولى، فإن عيون رجال الحكم كانت شديدة اليقظة، تحسباً لمغامرة مخرج بإثارة قضايا فساد الحكم، وهذا يثبت إدراك الساسة لخطورة السينما فى تشكيل الوعى العام، وقدرتها على التأثير، كما حدث حين صودر فيلم (لاشين)، الذى أخرجه فريتز كرامب، عام ١٩٣٨، (جاء ترتيب الفيلم رقم ٢٢ فى قائمة أحسن فيلم مصرى، التى اختارها سينمائيون مصريون عام ١٩٩٦، بمناسبة الاحتفال بمئوية السينما)، وصودر الفيلم بحجة أن به مساساً بالذات الملكية ونظام الحكم، حيث يتناول فساد أحد الحكام، وغضبه على شاب مخلص، بتدبير اتهام، ينتهى به إلى السجن، فيثور الشعب، ويخرج الشاب الوطنى من سجنه، وتعم العدالة. وكان مقرراً عرض الفيلم فى الأشهر الأولى من عام ١٩٣٨، ولكن منتج الفيلم، ستوديو مصر أجبر على تغيير النهاية التى انتصر فيها السلطان العادل (بدلاً من قتله) وحظى بحب الشعب بعد سحق المؤامرة والمتآمرين. وأعيد عرض الفيلم مرة أخرى فى ١٤ / ١١ / ١٩٣٨.

ولم يكن (لاشين) أول فيلم مصرى يؤكد خوف مؤسسة الحكم من الفن، وتربصها به، فقد سبقه، عام ١٩٣٧، فيلم (ليلى بنت الصحراء) الذى قامت ببطولته وأخرجته بهيجة حافظ (١٩٠٨ / ١٩٨٣)، وتدور أحداثه حول محاولات كسرى أنو شروان اغتصاب فتاة عربية، ولكنها تقاومه. ومن المصادفات السيئة قبل عرض الفيلم، أن تزوج شاه إيران الأميرة فوزية، شقيقة ملك مصر آنذاك. ومنع عرضه، ودفعت الحكومة المصرية تعويضاً مالياً للسيدة بهيجة حافظ بسبب خسائرها الناجمة عن منع عرض الفيلم، وتم اختصار بعض مشاهد الفيلم، وتغيير اسمه إلى (ليلى البدوية)، قبل إعادة عرضه، يوم ١٣ / ٣ / ١٩٤٤.

وبعد معركة السلطة مع هذين الفيلمين، تجنب صناع الأفلام الاقتراب من السياسة، إلا قليلاً، وجاءت معالجاتهم فى حدود لا تثير جهاز الحكم، المتأهب لهدم البهجة، والتضحية بالصناعة معاً، إلى أن حلت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، فبدأ اللجوء إلى أفلام تمتص الغضب الشعبى، كفرصة لإنقاذ شرف السينما والحكم الفاسد أيضاً.

وعقب تأميم قناة السويس، عام ١٩٥٦، سعت السينما العربية، مدفوعة بفورة حماسة مستمدة من الزهو الوطنى، عبر أفلام متفاوتة المستوى، إلى إنتاج أعمال تخرج من حدود الشوفينية المحلية، نحو آفاق قومية، ولو بإعادة معالجة قضايا وحوادث تاريخية قديمة، على نحو يرضى «سلطة قائمة»، ففى (الناصر صلاح الدين)، الذى أخرجه يوسف شاهين وعرض عام ١٩٦٣، كانت معظم جمل الحوار مكتوبة على مقاس جمال عبد الناصر شخصياً، ومنها:

.«يا سلطان العرب»، (وكان الإسلام آنذاك هو كلمة السر والسحر).

.«يا منقذ العروبة»، (أية عروبة فى زمن صلاح الدين الأيوبى / الكردى؟)، حتى تستطيع أن تقرأ اسم الفيلم هكذا: جمال عبد «الناصر صلاح الدين».

وإذا كان مصطلح «العروبة» شاذاً ومتعسفاً، ويلوى عنق الحقيقة التاريخية، بحسن نية، فى فيلم (الناصر صلاح الدين)، فإن فيلم (ناصر ٥٦) الذى أخرجه محمد فاضل وعرض عام ١٩٩٦، يلمح فى نهايته، إلى وجود «الشارع العربى»، بكثير من الصدق الفنى، فى حوار بين عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر بعد إعلانه تأميم شركة قناة السويس، وكانت أصداء القرار وتبعاته أكثر صعوبة مما قدر الثوار، وأوضح ناصر طبيعة المعركة التى بدأت، فيما بعد، بشن العدوان الثلاثى (الإسرائيلى / البريطانى / الفرنسى):

.«الأسلحة اللى فى ايدينا أقل وأنبل.. والأسلحة اللى فى ايديهم أكتر وأسوأ».

وسوف يظل عبد الناصر، لخمسين عاماً تالية، موضع اختلاف واتفاق السينمائيين العرب، لدرجة أن يستهين مواطن سورى، فى فيلم (رؤى حالمة) للمخرجة السورية واحة الراهب، بمظاهرات الغضب الشعبية، فى الشارع الذى رفض تنحى عبد الناصر، بعد هزيمة يونيو حزيران عام ١٩٦٧، ويقول لبطل الفيلم، وهو ناصرى الهوى:

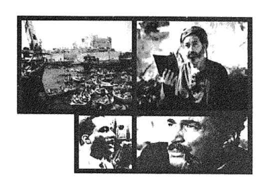
.«فليحررْنا منه (عبد الناصر) أولاً، وبعدها نقاتل معه».

إن الوطن يكتسب أهميته من البشر، الذين يستحقهم أو يستحقونه، والمواطنة كالأبوة ليست منحة من أحد، أباً كان أم مسئولاً؛ ففى فيلم خيرى بشارة (أمريكا شيكا بيكا)، الذى عرض عام ١٩٩٣، يشعر عدد من الشباب بالهوان، والضياع الجسدى والنفسى، فى غابات رومانيا، فى طريق أوهمهم أحد اللصوص الجدد فى مصر، بأنه سيصل بهم إلى الولايات المتحدة، لتحقيق أحلامهم هناك، ويموت أحدهم ويتعرضون للسطو والمهانة، فيصرخ أحدهم متسائلاً:

.«يعنى ايه كلمة وطن ؟
يعنى أرض ؟، حدود ؟، مكان ؟
ولا حالة م الشجن ؟».

وحين تنهار العلاقات

ســـــينما بلا هـــويـة!



بين أبناء الأسرة، فى فيلم يوسف شاهين (عودة الابن الضال)، الذى عرض عام ١٩٧٦، ويفتقدون الحد الأدنى للغة حوار تصلح للتفاهم، تنتهى الأحداث بمذبحة تأتى على الجيل القديم، الذى أوصلهم إلى هذه المأساة، ولا يستطيع أن يجد حلاً. ويبقى هذا الأمل رهناً بقدرة الناجيين من المذبحة: فتى وفتاة يتأهبان لدخول الجامعة.

هذا الوطن، الذى نتنفسه ونرتديه تحت جلودنا، من المستحيل نزعه أو التبرؤ منه، وفى فيلم محمد فاضل (حب فى الزنزانة)، الذى عرض عام ١٩٨٣، يضيق الحبيبان بمطاردات الشرطة، وظلم لصوص الانفتاح، ويصبح الوطن طارداً، لا يسع اثنين ينشدان الأمان. ويلتمسان هذا الأمان فى الهجرة، ويدبر لهما شخص جوازى سفر، يمكنهما من المغادرة بسلام، ويسألها عن البلد الذى يعجبها، وتفضل أن تعيش به، فتقول بعفوية وسرعة:

.«ما هى دى البلد اللى تعجبنى».

ولكن..

هل فشلت التيارات القومية والحركات السينمائية فى بلورة ملامح سينما عربية؟

يصعب التعميم؛ لأن السينما فن جماهيرى يحقق ديموقراطية المشاهدة، بقدر ما يؤكد خصوصية كل مخرج، فى صياغة فيلمه بأدوات جمالية وفكرية، لا تتجاهل الظروف المحلية، كما تتفاعل مع العصر، فى صيغة تدل على المخرج وعلى انتمائه القومى معاً.

فلسطين.. تحولات القضية

عبر نحو أربعة آلاف فيلم، منذ بدأ إنتاج أفلام روائية عربية، لم تطرح السينما قضية فلسطين، بصورة تناسب مأساة، ستصبح جرحاً مزمناً، يستهلك أجيالاً من المشاهدين، والسينمائيين، والدبلوماسيين، والعسكريين، والخانعين، والخونة، بعد انتهاء زمن الثوار.

جاءت البداية بفيلم (فتاة من فلسطين)، ويحمل رقم ٣٧٧ فى ترتيب إنتاج السينما العربية، وعرض فى الأول من نوفمبر عام ١٩٤٨، وأخرجه وقام ببطولته محمود ذو الفقار (المصرى) (١٩١٢ / ١٩٧٠)، أمام المطربة السورية سعاد محمد. ويحكى قصة حب بين طيار مصرى وابنة خالته التى قتل الإسرائيليون أباها. وخلال مشاركة البطل فى حرب ١٩٤٨، تسقط طائرته، فى قرية فلسطينية، ويعالج فى بيت فتاة فلسطينية، كان مركزاً لإمداد الفدائيين بالسلاح، ولكنه يصاب بعاهة مستديمة، ويقع فى صراع نفسى، يدفعه للإعراض عن التفكير فى الارتباط بمن عجز عن الانتقام لها فى الحرب، من قتلة أبيها، إلا أنها لاتزال تعتبره بطلاً، أدى واجبه الوطنى، وأمامه رسالة أخرى فى الحياة، تتلخص فى تحقيق السعادة لنفسه ولها، بتكوين أسرة، تكون ذخيرة، لنضال قادم، وتؤكد له أن «عاهات الحروب زينة الأبطال».

أنتج فيلم (فتاة من فلسطين) بمبادرة من صناع سينما وطنيين، أدركوا أنهم يقومون بدور فى إيقاظ الشعوب العربية، التى لابد أنها أدركت أيضاً أن اسم الفيلم يكاد يصبح (فتاة هى فلسطين). فى السنوات التالية، تحولت فلسطين إلى (أرض الأبطال) و(أرض السلام)، ما بين الأقواس فيلمان أخرجهما، على التوالى، نيازى مصطفى وكمال الشيخ، ويتناولان قضية المقاومة المسلحة المشروعة، وأبطالها فدائيون يتسللون إلى داخل فلسطين. وأثار الفيلمان قضايا أخرى، من بينها مأساة اللاجئين، الذين طردهم الصهاينة ومنهم بعض أهالى قرية دير ياسين، التى تعرضت لمذبحة شهيرة، ارتكبها الصهاينة. فضلاً عن تناول قضية الأسلحة الفاسدة التى قضت على مقاتلين مصريين فى حرب ١٩٤٨، وإلقاء جانب من المسئولية عنها، على خونة لا يترددون فى الإثراء، ولو بالمتاجرة بدماء الشهداء من أبنائهم.

وتصبح قضية فلسطين، إلا فيما ندر، عبئاً فنياً على كثير من الأفلام العربية، تماماً مثلما تحولت القضية، إلى مبرر لاستمرار كثير من الأنظمة الدكتاتورية، بحجة انتظار المواجهة مع العدو الصهيونى، المدعوم بمساندة معلنة من القوى العالمية.

ولا تكتسب الأفلام عن القضية الفلسطينية أهميتها الفنية، من حسن نية صانعيها؛ فما أكثر الأعمال التى تسىء، بحسن نية أيضاً، إلى القضايا الكبرى. ومن بين إساءات السينما العربية لقضية فلسطين، أن الإشارة إليها تكون عابرة، من باب إبراء الذمة أحياناً، والفدائى الذى يهب نفسه للدفاع عنها، يذهب كنوع من الانتحار، لا الاختيار الحر، مدفوعاً بتجربة شخصية مريرة، يريد الخلاص منها، بإيهام نفسه بأنه أهل للقضايا الكبرى. كما فعل بطل فيلم (أرض الأبطال)، حيث تطوع فى حرب فلسطين، بعد اكتشافه زواج أبيه بفتاة كان يريدها لنفسه. ولو أن بطل فيلم (نهر الحب)، الذى أخرجه عز الدين ذو الفقار عام ١٩٦٠، فاز بحبيبته، لأصبحت للفيلم نهاية أخرى، أكثر صدقا، من مغازلة الحماس الوطنى للجمهور، بتطوع البطل فى حرب ١٩٤٨، ليذهب شهيد القضية، لا السيدة!

كان على السينمائيين العرب الانتظار، عشرات السنين، إلى أن تنهض من الداخل، وبإمكانات متواضعة، أشبه بحجارة الأطفال المقاومين فى مواجهة الدبابات والجرافات، صناعة سينمائية «حقيقية» فى فلسطين.

وإذا اختلفنا على القيمة الفنية لبعض هذه الأفلام، فإن لها وظيفة أخرى شديدة الأهمية، وهى أنها تصحح مفاهيمنا الخاطئة، عن الفلسطينى فى الداخل، الذى أصبح فى الصورة الذهنية العربية، عبئاً على الحياة نفسها، ويائساً منها ومن نفسه، كأنه مشروع للانتحار والموت لا للحياة.

ومن بين الأفلام الفلسطينية، التى تعد سلاحاً مهماً لفنانين فلسطينيين يقدمون أفلاماً ذات أبعاد إنسانية «زواج رانا»، «يد إلهية». وهى أفلام تنهى فكرة أن تكون «القضية» ضيفاً على أفلام عربية أخرى؛ بعضها يكاد يحمل الفلسطينيين جزءاً من المسئولية عن المأساة، وبعضها يحنو عليها حنواً قاسياً، أشبه بمعاملة الأوصياء، وكبار أفراد الأسرة، لطفل يتيم، تعويضاً له عن فقد أبيه. والأغرب من هذين النمطين، هو عدم وضوح الرؤية، وغياب الوعى أو تسطيحه؛ ففى فيلم (إسكندرية ليه)، الذى أخرجه يوسف شاهين، وعرض عام ١٩٧٩، ومن بين كثير من القصص، والتفاصيل، والعلاقات التى لا يتسع لها فيلم واحد، توجد قصة حب بين الفتاة اليهودية سارا سوريل وطالب مسلم فقير وثائر، وتثمر هذه العلاقة طفلاً أشقر، بعد هجرة الأم من مصر، بما يشير إلى أنهم «يهود ديموقراطيون جداً ومستعدون للاختلاط والامتزاج مع كل الأجناس والأديان ولو بعلاقة غير شرعية»، حيث يكتشف شاهين فى اليهود «مزايا لم يكتشفوها هم أنفسهم فى أنفسهم»، وحمل الفيلم «تعاطفاً مع اليهود بلا مناسبة وشرحاً ساذجاً لقصة إسرائيل». (والرأى لسامى السلامونى).

ويرجح أحمد رأفت بهجت أن علاقة الحب بين اليهودية والمسلم «كانت محصلتها فى اعتقادى فوز الفيلم بجائزة مهرجان برلين عام ١٩٧٩ مناصفة مع الفيلم الألمانى (ديفيد)».

وسيعود شاهين لإثارة هذا الموضوع لاحقاً، فى فيلم (الآخر) الذى عرض عام ١٩٩٩، ويعانى قدراً هائلاً من الخلط والارتباك؛ فالمخرج يريد أن يحذرنا من مخاطر العولمة، ولأنه يفكر ويكتب أعماله ويخرجها بالطبع، فلا وقت لديه ليدرك أن العولمة ليست هى «الآخر»، وأن «الآخر» الفرنسى، ليس أكثر رحمة من «الآخر» الأمريكى، إلا فى الدرجة لا النوع. ولا نجد خيطاً متصاعداً لهم ما، يشغل المخرج، ويريد الفيلم أن يعالجه: من ظهور المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد، فى المشاهد الأولى، فى مكتبه بجامعة كولومبيا، مع البطل الشاب العائد من الولايات المتحدة، إلى الحفل الغريب الذى أعلن فيه إقامة مجمع للأديان الثلاثة، بجوار منتجع يملكه والدا البطل الشاب (أمه أمريكية رمز للعولمة!!). فى هذا الحفل، وبلا مناسبة، تسمع حواراً مباشراً وجافاً وتقريرياً مثل:

.«لا خوف من العولمة».

.«مش هى دى العولمة».

ثم فجأة يعلن أحدهم، وسط التفاف المتعولمين وحفاوتهم:

.«كأس للعولمة».

ويلاحظ أنه يقولها بحماسة المدافع، المقتنع المنتفع، إلا أن سياقها وطريقة نطقها، يشير إلى السخرية من العولمة والمتعولمين معاً.

خطورة التحول بالقضية، أنه يأتى على لسان إدوارد سعيد الذى يظهر، فى الفيلم، باسمه وشخصيته الحقيقية، حيث يدعو بطل الفيلم، إلى التخلى عما ظنه «الملتزمون» العرب جزءاً من «الثوابت»، حين ينصح سعيد الشاب المصرى بالتخلى عن ثنائية «الأنا» و«الآخر»، وأن نستبدل بكلمتى«أنا» و«أنت» كلمة واحدة، هى «نحن»، ولم يقل لنا (الفيلم أو سعيد): هل يقبلنا الآخر بالشروط نفسها، التى نتخلى بها عن هذه «الأنا»، وكيف ومتى يتخلى هو عن أناه؟[1]

وإذا كانت الجماعات الدينية ترى أن لمشكلات الحياة حلاً سحرياً، فى النص المقدس، الذى ربما لم يطبق أو يختبر عبر أكثر من ألف عام، قائلين: «كل شىء موجود فى النص»، فإن الفنان يجب أن يتجاوز هذه الأحلام، بمزيد من الجرأة. وقد تنازل شاهين عن ذلك، بالإغراق فى الحلم المجانى، إذ يرى على لسان البطل، أن مشكلة التطرف والإرهاب، فى الجزائر تحديداً، يمكن أن يحلها الحب:

.«كان أحسن نتعلّم نحب بعض بدل ما نقطّع بعض حتت».



من بين الأفلام الفلسطينية، التى تعد سلاحاً مهماً لفنانين فلسطينيين يقدمون أفلاما ذات أبعاد إنسانية «زواج رانا» و«يد إلهية». وهى أفلام تنهى فكرة أن تكون «القضية» ضيفاً على أفلام عربية أخرى



قائل هذا «الكلام» المسطح شاب مزدوج الجنسية والثقافة، يجهل الواقع المركب، الذى أدى إلى إرهاب تختلف صوره من بلد إلى آخر، وفقاً للسياق الاجتماعى والسياسى والثقافى، فضلاً عن المحيط الإقليمى.

وفى عام ٢٠٠١، عرض فيلم (أيام السادات) للمخرج محمد خان. ومن بين أكثر من مائة وخمسين دقيقة، هى زمن الفيلم، تحظى القضية الفلسطينية بأقل من دقيقة، فى حوار بين السادات وحلاقه!

قال السادات للحلاق إنه ليس من الحكمة أن يتنازل. الحلاق. عن جزء من حقه المغتصب، انتظاراً لاستعادته كاملاً، كما يقول الرافضون لاتفاقيات كامب ديفيد. وسأل الحلاق عن عدد الكراسى، فى محل الحلاقة الخاص به، فأجاب :ثمانية. فقال له السادات:

. «المحل ده، فجأة اتسرق، اتنهب، لقيت نفسك فى الشارع.. جبت لك كرسى جوه المحل بتاعك، تقوم تقول: يا المحل كله يا بلاش؟».

وأضاف:

. «جبت لك كرسى، وأنت وشطارتك» (فى استرداد بقية الكراسى).

وعن العرب قال السادات للحلاق:

. «مش عايزين يجتهدوا، ومش عايزين يفهموا».

وقال له الحلاق:

. «الناس (المصريون) زعلانين علشان العرب والفلسطينيين ما حضروش مؤتمر ميناهاوس».

رد السادات:

. «ما جوش علشان مش فاهمين».

تحتل القضية الفلسطينية فى «أيام السادات»، من دون أن يقصد إلى ذلك كاتب الفيلم، زمناً يتناسب مع ما كانت تشغله، فى رأس السادات من هموم ومشكلات. حيث لم يع أنه يواجه ظاهرة صهيونية شديدة التركيب، وظل يبسط الأمور كما أراد أن يفهمها الحلاق فى الفيلم. والمشكلة أن مثل هذا الفيلم أحادى النظرة والملىء بالمغالطات التاريخية، سيصبح «وثيقة فنية» تعتمد عليها الأجيال القادمة، حين تريد أن تفهم «ماذا حدث».

أحادية هذا الفيلم كانت ببساطة لأن كاتب السيناريو ومستوحاة من مؤلفين لا ثالث لهما، هما «البحث عن الذات» وصاحبه السادات، و«سيدة من مصر» وصاحبته أرملته «جيهان»، متجاهلاً مثلاً ما حكاه محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية (الذى استقال احتجاجا على كامب دافيد) فى مذكراته الثرية بالمواقف الدرامية.

طيارة من لغم!

إذا كان فيلم (أيام السادات) يسهم فى تسطيح الوعى وتزويره، فإن فيلماً لبنانياً (إنتاج مشترك مع الجانب الفرنسى) قد أثار جدلاً، ووجهت إليه أصابع اتهام، باعتباره يروج للتطبيع مع إسرائيل. ويحمل فيلم المخرجة اللبنانية رندة الشهال صباغ اسم (طيارة من ورق)، وقوبل بحفاوة كبرى، مستمدة من حصوله على جائزة الأسد الفضى، من مهرجان البندقية السينمائى عام ٢٠٠٣. وتنطلق مخرجته من الدعوة إلى التسامح الإنسانى، والانتصار لحق الفتاة العربية، فى عمل يبدو بسيطاً، ولكنه يناقش قضايا مهمة وجادة، وتتخلل هذه الجدية مشاهد تدعو للضحك، فى سرد كوميدى.

ولأول مرة تعالج السينما العربية قضية الانفصام الذى يعانيه الدروز العرب، الواقعون تحت الاحتلال الإسرائيلى؛ إذ يفترض أنهم عربيو الانتماء، ولكنهم مضطرون إلى أداء «الخدمة» العسكرية، تحت جيش الاحتلال. موضوع شائك، اختارت المخرجة لبطولته وجهاً معبراً (فلافيا بشارة)، حيث أدت دور فتاة درزية، تعيش مع أسرتها فى قرية على الحدود مع إسرائيل، وتربطها علاقة حب بجندى درزى عربى، يؤدى الخدمة فى جيش الاحتلال الإسرائيلى.

تبدأ الأحداث بلغم أرضى لا ينفجر، وينتهى الفيلم بانفجار لغم آخر، تختفى فى دخانه الحدود، والأسلاك الشائكة، والفتاة نفسها، بما يوحى بعدم وضوح الرؤية، وانفتاح النهاية على توقعات متعددة.

فى بداية الفيلم تلعب (ليا)، مع شقيقها الصغير، بطائرة ورقية تطيحها الريح، فتذهب لاستعادتها، حيث استقرت فوق الأسلاك الشائكة، وهى منطقة محظورة وخطرة، ويحذرها مجند شاب، داعياً إياها إلى العودة، خوفاً عليها من الألغام، ومن رصاص الإسرائيليين الجاهز للانطلاق، على من يتجاوز الحدود. هذا المجند يقف فى برج المراقبة الحدودى، ويسجل كل شىء، بحكم الواجب الموكول إليه، وهو يعرف الكثير من أسرار أهل المنطقة، التى لم تعد أسراراً، فهم يتبادلون الأحاديث، مع أهالى القرى الواقعة داخل الأرض المحتلة، عبر مكبرات الصوت، ومن بين مهام الحارس العسكرية، أن يسجل كل هذه الأحاديث، كما يراقب أصحابها بالمنظار.

كاميرا المخرجة تبدو محايدة، فى سرد التفاصيل الإنسانية الصغيرة، من دون رفع أية شعارات، فى مشاهد مشحونة، تؤكد خضوع الأهل لتقاليد تسرق براءة صبية لاتزال طفلة، لا تعرف عن الزواج شيئاً، وحزن شقيقها الصغير عليها، حيث يمشط لها شعرها، ثم بعد رحيلها إلى منطقة محتلة لن يبلغها يوماً، يظل محتفظاً بفرشاة شهدت آخر ذكرى بينها.

تفرض التقاليد العشائرية على البنت أن تتزوج أحد الأقارب، من داخل الطائفة، وهكذا تم انتزاع الصبية (ليا)، وهى فى السادسة عشرة، من زميلاتها وطائراتها الورقية، ليدفع بها إلى الجانب الآخر، زوجة ينتظرها قريب، أصبح زوجاً، لا يعرفها ولا تريده. أما الفتى الذى تريده، فينتمى إلى الطائفة نفسها، ولكنه مجند فى الجيش الإسرائيلى.

وحدها تذهب الصبية، التى أصبحت عروساً إلى زوجها، فى الأرض المحتلة، بعد أن شهدت الحدود بين الأسرتين شداً وجذباً، حول ترتيبات العرس، وهى القضايا والتفاصيل السرية، بين أفراد العائلة، فى الأحوال الطبيعية، بينما تفرض قسوة الاحتلال انتهاك هذه الأسرار، وإشاعتها فى مكبرات الصوت. وتذهب البنت إلى بيت الزوجية، وتشعر أنه أشد قسوة من سجن الاحتلال ذاته. وهى فى هذه السن، لا تشعر بوطأة الاحتلال أصلاً، حيث لا تنظر إلا إلى السماء، بفضائها الرحب، فى لهوها بطيارتها الورقية. ويزيد قسوة السجنين معاً (البيت والاحتلال) أن من تحبه موجود هنا، ويراقب خطوات الزواج.

وتنضج الصبية على المأساة؛ فلم تعد صغيرة، كما لم تصبح زوجة. ترفض ليا زوجها، وتصرح له، بعيداً عن الميلودراما المفتعلة، بأنها لا تحبه، ولا تريد الاستمرار معه. بينما يزداد تعلق الحارس بها، ويغرم بمتابعتها بمنظاره، معجباً بجمالها وفتنتها، وجرأتها على التمسك بحبها له، حيث ترضى بالنظر إليه، عوضاً عن أهلها، بل لم تعد تريد العودة إليهم. وبالتوازى مع الشجارات الزوجية، وروح النفور بين الزوجين الصغيرين، يجد الحارس بعض العزاء، إذ يخدم معه مجند درزى أكبر سناً (قام بالدور زياد رحبانى)، لايزال قلبه يخفق، هو الآخر بحب قديم، طرفه الآخر على الناحية الأخرى من الحدود، ولكنه يعيش أيامه، كما يليق بفيلسوف بوهيمى.

ولأن الصبية لم تفقد روح التمرد، فهى تغامر بإنقاذ روحها فى نهاية الفيلم، كما غامرت بدون وعى فى بدايته، لإنقاذ الطيارة الورقية غير العابئة بالحدود.

فى المغامرة الأولى حذرها الحارس، وفى الأخيرة كانت قد نضجت، بالقدر الذى يدفعها إلى الجرأة، على أن تواجه ما ترفض، حيث يتحول التمرد إلى ثورة، والفكرة المجردة إلى خطوة على أرض لا تعرفها جيداً، حتى لو انتهى ذلك بانفجار لغم، فى كل العلاقات والتقاليد ودوائر القيود التى تبدأ بالأسرة، ولا تنتهى بالاحتلال.

ذكاء الفيلم يتجلى فى حياد السرد، وهو حياد ظاهرى خادع، يخفى تحت السطح بركاناً، قابلاً للانفجار بحممه الملتهبة، وكأن المخرجة تريد أن تضعنا فى مواجهة الأزمات العشائرية والعائلية والسياسية والعنصرية، وتقول: ابحثوا عن حل. هذا بعض ما تسبب فيه الاحتلال، أمام مجتمع عاجز سياسياً وعائلياً.

تحت سطح هذا الحياد، يعيد الفيلم الاعتبار إلى الفرد، الإنسان، الذى تحول فى نظر كثير من النظم العربى. التى تدعى الثورية. إلى مجرد رقم فى قائمة الرعايا لا المواطنين، وبالتالى يفرض الوصاية على أحلامه الصغيرة، ويتم تأجيلها إجبارياً، حتى ينتهى الأوصياء من حسم «القضية»!! ■

هامش

(١) توفى إدوارد سعيد فى نهاية سبتمبر عام ٢٠٠٣، وفى الثانى من نوفمبر عام ٢٠٠٣، أقيمت ندوة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة تكريما لدوره الفكرى، وأثارت جدلاً بين بعض المثقفين العرب إزاء بعض الأفكار التى طرحها، فى حوار مصور، يعود تاريخه إلى وقت تصوير مشاهد سعيد فى الفيلم، وأجراه معه فى مكتبه، المخرج خالد يوسف، الذى كان مساعداً لشاهين فى فيلم (الآخر).

وقال سعيد إنه يفضل أن يزور العرب أشقاءهم الفلسطينيين معتبراً أن هذه دعوة للتضامن مع «الشعب الفلسطينى المدنى» وجزء من المقاومة بدلاً من مجرد المراقبة من الخارج، كما استنكر ما وصفه بمنطق المثقفين العرب، عن التطبيع مع إسرائيل، مؤكداً أن التطبيع «فكرة نظرية».

وأضاف أن حل القضية يتلخص فى قيام دولة واحدة، يتعايش على أرضها شعبان، مطالبا بوضع أسس جديدة للتعايش، حيث لاتزال إسرائيل الدولة الوحيدة فى العالم، التى تعد وطناً لليهود، فى أى مكان، بالمخالفة للتعريف العادى لفكرة المواطنة.



متواجد في مراك

تجارة العضلات!

أندروسيمزومات ريندل

فيما مضى كان العالم الغنى يسلب أفريقيا ثرواتها المعدنية أما الآن فإنه يسرق - كما نرى فى الألعاب الأولمبية - مواهبها الرياضية بثمن بخس.

فى أغسطس من العام الماضى ذهب افضل عداء حواجز فى كينيا إلى سريره ليلا وهو يحمل اسمه: ستيفن تشيرونو لآخر مرة ليستيقظ فى صباح اليوم التالى أكبر سنا بأربعة شهور وباسم آخر هو: سيف سعيد شاهين من قطر حسبما هو مدون فى جواز سفره الجديد. ولكن عندما نودى على اسمه لتسلم الجائزة الكبرى فى سباق الحواجز فى زيورخ يوم ١٥ أغسطس ٢٠٠٣ لم يستطع تذكر اسمه الجديد!!

منذ عام ٢٠٠٠ حصلت قطر على عدة عدائين للمسافات الطويلة من كينيا وفريق كامل من رافعى الأثقال البلغار أما منافستها فى المنطقة البحرين التى استضافت سباق السيارات (فورميولا وان) (تاريخ البحرين فى سباق السيارات: صفر) كانت تتسوق أيضا فى أفريقيا. فى عام ٢٠٠٢ اصبح ثلاثة لاعبين من كينيا وهم ايبل تشيروليوت وليونارد موتشيرو وجريجورى كونتشيلا مواطنين بحرينيين. ولا يتوقف تدفق الرياضيين من البلدان الفقيرة إلى الغنية: يذهب الرياضيون من انجولا والكاميرون والجابون والسنغال والمغرب وكينيا إلى فرنسا، ومن جامايكا وغويانا الى كندا ومن نيجيريا إلى أسبانيا والبرتغال وألمانيا، ومن الصومال واريتريا إلى الولايات المتحدة. وفى الألعاب الأولمبية القادمة، سوف يمثل العشرات من الرياضيين بلدانا لم يولدوا بها ولا علاقة لهم بها.

كان الزحف إلى أفريقيا فيما مضى من اجل ثرواتها المعدنية.. الآن من أجل مادتها الرياضية الخام!

وصف جون بيل من جامعة كيل ذلك بأنه (هجرة العضلات)(١) وقد حدث دائما انتقال الثروات بكل أنواعها من عالم الأغلبية الفقيرة إلى عالم الأقلية الغنية ولكن الثروات الآن تشمل العضلات أيضا.

لقد اغتنت بلجيكا من مطاط أفريقيا الوسطى والآن يعمل نادى كرة القدم (رويال انتويرب) مع (مانشستر يونايتد) على حصد اللاعبين الأفارقة من (نوادى المزرعة)(٢) وتقديمهم إلى الأطراف الأوروبية.

وتعتبر هذه (المدارس) التى كان من روادها النادى الهولندى (اجاكس) ثم تبعه (اف سى كوبنهاجن) وفينورد وباريس سانت جرمان وموناكو، بمثابة النظائر الحديثة للمخافر الكولونيالية. إنها موجودة من اجل العمل على ازدهار السلطة والثروة الاقتصادية لرياضة العالم الغنى. يقول بيل (من ٣١١ لاعباً يشكلون الفرق الوطنية الستة عشر فى كأس الأمم الأفريقية لعام ٢٠٠٢ كان ١٩٣ أو ما يعادل ٦٢٪ يعملون بالأجر كامل الوقت فى الفرق الأوروبية).

إن المركز العالمى لصناعة كرة القدم يحقق الثروة على حساب أمم فى الأطراف وتفرغ الاتحادات الأفريقية من مهاراتها. ويحدث ذلك فى كل الالعاب تقريبا ففى جمهورية الدومنيكان هناك أكاديميات تابعة لنوادى كرة القدم الأمريكية الشمالية، وفى نيوزلندا يشترى اتحاد الرجبى باستمرار لاعبين من الجزر البولونيزية: ساموا وفيجى وتونجا، ففى كأس العالم ٢٠٠٣ كان ٩ من ٣١ لاعباً نيوزلندياً، من أصول بولونيزية.

ويقول ستيفن جونز مراسل الصنداى تايمز للعبة الرجبى أن فرق الجزيرة تتعرض للتدمير.



إن ازدهار عملية تغيير الهويات الرياضية يعنى أن الموقع العالمى فى عالم الرياضة مهم مثل إحساس أمة ما بنفسها كعضو على مائدة الصدارة السياسية مثلا فى مجلس الأمن. وهكذا توصل الرياضة رسالة: أنه لا مكان فى النظام العالمى إلا للأفراد الموهوبين. وتساق أجيال من الرياضيين إلى خارج بلدانهم ويعتبر الأبطال المحليون نموذجا وقدوة للشباب فى تحقيق الهجرة والوصول إلى من يدفع من السادة الأغنياء.

إنها القصة القديمة ذاتها: الفقراء يقدمون العضلات فى حين يسيطر الأغنياء على قواعد اللعبة ويقبضون الفوائد. إذا كنت رياضيا موهوبا فإن الباب إلى الرياضة العالمية مفتوح أمامك. والفضل لثقافة «القعود والمشاهدة»(٣) التى تنتشر فى البلاد الغنية حيث يتضاءل دور الشباب الغنى المتخم والمترهل والبدين فى ميدان الألعاب، فى حين تمتلئ دورات الألعاب الرياضية وسباقات كرة القدم وركوب الدراجات بالأفارقة والأوروبيين الشرقيين والأمريكيين الجنوبيين

عن مجلة:

The New Statesman

ترجمة بثينة الناصرى

ولكنهم يلعبون لحساب صاحب المال الغربى تحت توجيه مدربين وخبراء فنيين غربيين.

هل لهذا أهمية؟ بالتأكيد: إن الرياضة هى أقصى تعبير ثقافى واقتصادى فى أزماننا ولكن المكانة والمساحة الإذاعية التى تحتلها بعض (الألعاب العالمية الرسمية) تضمن التهام الألعاب الرياضية الشعبية المحلية.

لقد تضاءل وتهمش تنوع التعبيرات الرياضية (مثله مثل تنوع اللغات) فلم تعد ثمة أهمية للسباقات المحلية والدورات الإقليمية أو ما كان معروفا عاليا من السباقات القومية مثل (جولة كولومبيا) لسباق الدراجات. إن الرياضة العالمية الحديثة تنمط المكان وتثبت وتراقب قواعد الزى وتوزيع أسطح الملاعب الخ.



فى كتابه الأخير الذى يؤرخ للألعاب الأولمبية أشار ديفد ميلر إلى أن عدد الناس حول العالم (٧٨ ٪) الذين يتعرفون على الحلقات التى ترمز للألعاب الاولمبية اكبر من عدد الناس الذين يتعرفون على الرموز الأخرى مثل: رمز شركة شل (٧٢ ٪) واقواس ماكدونالد (٦٦ ٪) ورمز سيارة مرسيدس (٦١ ٪). وتقدر قيمة سوق الألعاب فى أنحاء العالم بمبلغ ٥٠٠ بليون دولار سنويا، اكثر من ضعف الدين الخارجى الكلى لأفريقيا وتقدر رعاية الألعاب العالمية وحدها بمبلغ ٢٦ بليون دولار. وفى ٢٠٠٣ أنفقت بريطانيا اكثر من ٤ بلايين جنيه إسترلينى على معدات وأجهزة رياضية. وينقل ميلر عن ديك باوند رئيس لجنة الألعاب الأولمبية قوله: «ابعد الرعاية والتجارة عن الرياضة اليوم، فماذا يبقى؟ ماكينة ضخمة معقدة وجيدة التشغيل جرى تطويرها على مدى ١٠٠ سنة.. ولكن بدون وقود».

تلتهم برامج الألعاب الرياضية الحديثة الميزانيات بما يجاوز إمكانية أكثر البلدان الفقيرة. رغم ذلك فإن عدائى كينيا، وراكبى دراجات كولومبيا، وملاكمى المكسيك، ورياضيين من كلّ الأنواع من الاتحاد السوفيتى السابق ولاعبى كرة القدم من كلّ جزء من أجزاء العالم الفقير يلهمون مشاهدين غربيين، ويجذبون جمهور الملاعب ومشاهدى التلفزيون. ويستثمر العالم الغنى قليلا فى إنتاجهم ولا يقدم للبلدان المنتجة شيئا من أرباح صادراتهم. ويواجه مدراء دورى كرة القدم إنجلترا طلبات اللاعبين الأفريقيين عن اجازات لتمثيل أممهم فى المسابقات غير الأوروبية بالاحتقار الذى لا يستطيعون إخفاءه. وللمفارقة، ظهر آرسن فينغر، مدير آرسنال على شاشة التلفزيون مؤخرا أثناء حفلة جمع تبرعات إغاثة الرياضة برعاية البى بى سى لتقديم صك بمبلغ ١٠٠٠٠٠ إسترلينى نيابة عن كامل الدورى للمشاريع التى تعنى بفقراء العالم. وذلك المبلغ يساوى أجر أسبوع واحد للاعب كبير فى إنجلترا.

يمكنك القول أن ما يهم فى الحياة، هو توفير مياه نظيفة إلى العالم الفقير،و ليس مسلسلا تلفزيونيا رائجا للرياضة العالمية. ولكن الواقع غير ذلك تماما: فجدول أوسمة الألعاب الأولمبية وكلّ بطولة عالمية رئيسية، وبيان نتائج نهائيات كأس عالم لاتحاد كرة القدم العالمى والتصنيف العامّ لجولة فرنسا(تور دى فرانس) كلّ ذلك يعطى صورة للمجتمع العالمى الحديث. فالذين يتصفحونها فى الانترنيت أكثر من أولئك الذين يتصفحون جداول البنك الدولى أو الأمم المتّحدة لنسبة الأمية أو وفيات الأطفال فى العالم. وربما كان من الممكن ان تكون التجارة العالمية فى العضلات قضية شخصية تماما لا تعنى سوى الرياضيين المعنيين لولا أن الرياضة المعاصرة أصبحت نظاما رمزيا يعكس، أو يبدو انه يعكس، المعرفة بالعالم، وبذلك يؤثر على القرارات السياسية.

نشرت التايمس مؤخرا جدول نقاط «نهائية» للأداء الأوليمبى منذ عام ١٨٩٦. وضع الولايات المتّحدة على القمّة، مع بريطانيا العظمى فى المركز الثالث. والسودان جاءت فى آخر القائمة، مع رواندا ودولتين أخريين. ولم يذكر المسح بأنّه لسنوات طويلة لم تتنافس العديد من البلدان فى العالم. وأن أى جدول أوسمة يأخذ فى الحسبان الأصول الإثنية - بالعودة إلى أصول الرياضيين - سيأتى بنتيجة نهائية مختلفة جدا. حيث سوف تنزلق الولايات المتّحدة وكندا وفرنسا بسرعة إلى القاع. وعلى اكثر احتمال لن تجنى قطر والبحرين شيئا. ويمكن أن يكون لدينا جدول آخر للمجتمعات التى تنتج معظم ملابس وأجهزة الألعاب الرياضية.

كيف يمكن إنقاذ الرياضة من تجارة العضلات؟ بالتأكيد يجب أن يكون هناك هيئة واحدة تتخذ القرارات فى مسألة تغيير الانتماءات. ينبغى ألا تترك المسألة كما هى الآن إلى هيئات الألعاب الرياضية القومية الهشة، مثل تلك التى فى كينيا، لإعطاء الموافقة على تغيير جنسية الرياضيين. كما لا يجب أن تقتصر مسألة استضافة البطولات الدولية وما تجلبه من مكانة وازدهار اقتصادى، على الدول الغنية.

على سبيل المثال، حصول الولايات المتّحدة على كأس العالم فى كرة القدم لعام ١٩٩٤ بالرغم من أنّ لعبة كرة القدم للرجال ليست من الألعاب التى لها أهمية تذكر فى الولايات المتحدة. ومن جهة أخرى من المخزى أنّه رغم النجاح الضخم للرياضيين الكينيين والأثيوبيين فى دول أخرى ولكن أيا من الدولتين (كينيا وأثيوبيا) لم تحصل على بطولات ألعاب رياضية عالمية.

ويقترح راكب الدراجة الأسترالى برادلى ماك جى الفائز فى السباق التمهيدى لجولة فرنسا (تور دى فرانس) للسنة الماضية استراتيجية أكثر شمولا. فقد اشتمل عقده للسنوات الماضية الثلاث مادة تلزم فريق ركوب الدراجات الفرنسى (إف دى جى دوت كوم) الذى ينتمى إليه ماك جى، لتمويل برنامج تنمية للراكبين الناشئين فى مسقط رأسه نيو ساوث ويلز باستراليا. وينبغى أن تتضمن عقود الرياضيين القادمين من دول نامية - بصرف النّظر عن نوع اللعبة التى يمارسونها - مواد شبيهة بذلك، فمقابل كل نجم يمتصّه النظام العالمى، يجب ان تنشأ بدائل من خلال ضمان التمويل للمناطق التى لها سجل ثابت فى إنتاج الرياضيين.

أما فى الوضع الراهن فإن صناعة الألعاب الرياضية غير مدعومة. والتجارة العالمية فى العضلات فقط صناعة استخلاص أخرى تأخذ اكثر مما تعطى. عندما ننتقد العولمة، وندعو إلى إصلاح القواعد التجارية العالمية لكى يتاح للبلدان الفقيرة فرصة عادلة لبيع المنتجات الأولية مثل القطن فى الغرب، يجب ان نضيف مطلبا جديدا: التجارة العادلة للرياضيين. ■





كيف يمكن إنقاذ الرياضة من تجارة العضلات؟ ينبغى ألا تُترك إلى هيئات الألعاب القومية الهشة كما لا يجب أن تقتصر مسألة استضافة البطولات الدولية وما تجلبه من مكانة وازدهار اقتصادى، على الدول الغنية

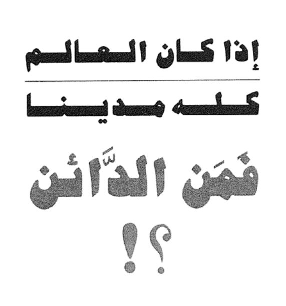


هوامش:

(١) كان المصطلح الذى استخدمه الكاتب ويعنى به (هجرة العضلات)brawn drain وربما يبدو مقابلا لمصطلح شائع آخر هو (هجرة العقول) Brain drain - المترجمة

(٢) (نوادى المزرعة) يقصد بها (فرق الحارات) أو النوادى المحلية - المترجمة

(٣) (القعود والمشاهدة) يقصد بها ثقافة الكومبيوتر والإنترنت حيث ينشغل بها اكثر الشباب فى البلاد الغنية التى يتوفر فيها ذلك مما يجعلهم يقضون معظم وقتهم جالسين أمام الأجهزة لا يفعلون شيئا سوى التهام الطعام والتحديق فى الشاشة - المترجمة.



إذا كان العالم كله مدينا فمن الدائن ؟!

محمد يوسف عدس

يتحدث هذا الكتاب عن الاقتصاد بلغة جديدة ويتناول الأفكار والمسلمات الاقتصادية التقليدية بالتحليل والنقد، ويثير حولها شكوكا منطقية ويكشف عما فيها من تناقض، وفى كل هذا تنكشف للقارئ حقائق مذهلة لم تكن لتخطر له على بال.

فهل تصدق مثلاً أن دول العالم كله مدينة، ليس فقط الدول الفقيرة أو دول العالم الثالث، بل إن أكثر الدول ديونًا هى الدول الأغنى والأكثر إنتاجًا وتقدمًا، وديون هذه الدول هائلة.. لا تتناقص أبداً بل فى صعود مستمر، وقد وصفها المؤلف بحق بأنها: «اللامعقول واللامنطقى.. الذى يصعب على العقول فهمه».

من أمثلة هذا «اللامعقول» أن بريطانيا مدينة بمبلغ ٤٠٠ بليون جنيه إسترلينى، وتبلغ ديون كندا ٦٥٠ بليون دولار، وألمانيا مدينة بأكثر من خمسين بليون مارك، أما اليابان فقد بلغ دينها العام ٢ تريليون دولار، وأصبح دين الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٥ تريليونات دولار.

يقول المؤلف: هذا الدين المتصاعد أبدا يتناقض تناقضًا صارخًا مع وجود ثروة حقيقية واضحة فى هذه الدول التى توصف بأنها دول غنية ومتقدمة. علمًا بأن هذه الأرقام تمثل الديون العامة فقط أى الديون الحكومية، فإذا أضفت إليها الديون الخاصة (المتعلقة بالأفراد والشركات) تجد نفسك أمام أرقام فلكية.. فمثلاً مجموع الديون العامة والخاصة فى الولايات المتحدة بلغ ٢٦ تريليون دولار، ولست أزعم أننى أعرف كم صفرًا ينبغى وضعها على يمين هذا الرقم ليصور حقيقته، ولكنى على يقين أنه رقم مفزع، كما أننى أعرف أنه من الناحية العملية يستحيل تسديد هذا الدين الهائل لأسباب اقتصادية كثيرة لعل أبسطها أن مجموع ما فى بنوك أمريكا والعالم وما فى خزائن الشركات وجيوب الأفراد من دولارات لا يبلغ خُمس هذا الرقم، وهذا واحد من عدد كبير من الألغاز الخفية فى عالم الاقتصاد.

The Grip of Death: A Study of modern money, Debt Slavery and Destructive Economics

(قبضة الموت: دراسة فى النقود الحديثة وعبودية الدين والاقتصاد التدميرى)

Michael Rowbotham

Jon Carpenter Pub, 1998, pp. 336, $29.95

فإذا كانت كل دول العالم. بلا استثناء مدينة. فإن هذا يجعلنا نعتقد أن العالم بأسره فى حالة اقتصادية مزرية.. وهذا شىء يبدو غير منطقى وغير مفهوم.. ويسلمنا هذا الاعتقاد إلى أن نتساءل: إذا كان العالم كله مدينًا فمن هو الدائن؟ وكيف حدثت كل هذه الديون؟ ومن أين جاءت؟

وماذا نقول عن دول العالم الثالث التى ترزح تحت أعباء ديون ثقيلة وقد أسلمت زمام قيادتها للدول المتقدمة وأخذت تقلد وتبنى مؤسساتها المالية والاقتصادية على غرار مؤسسات هذه الدول، ويُقال لشعوبها اكدحوا فى العمل والإنتاج والتصدير، وسوف تتخلصون من الديون وتتحررون من الفقر وتصبحون مثل أمريكا، ولكن أحداً لا يذكر لنا أبداً حقيقة أن أمريكا هذه هى أكبر دولة مدينة فى العالم؟

فهل هذه حالة عبثية أم أننا لا نحسن فهم ما نراه؟!

وهل نستطيع أن نفهم حقيقة أن يكون الشعب الأمريكى وهو أغنى من دبّ على هذه الأرض من البشر هو أكثر شعوب العالم مديونية!

كان من المفترض وفقًا للمبادئ الاقتصادية المتداولة أن النقود هى وسيط طبيعى ومقياس دقيق وأنها لا تفعل أكثر من أن تعكس حقائق الواقع الاقتصادى، ولكنها فى الحالة التى عرضناها لا تفعل ذلك، فهناك ندرة مزمنة فى النقود حتى أن الدول المتقدمة تقلص ميزانيات المشروعات والخدمات الصحية والتعليمية بحجة عدم توفر المال الكافى.. إذن لابد أن يكون هناك خلل جوهرى فى المنظومات الاقتصادية، خلل يجعلنا لا نثق فى كثير من الافتراضات والمسلمات الاقتصادية، بل فى كل المعطيات المالية الأخرى التى تضع الاقتصاد وخصوصًا الاقتصاد النقدى والديون غير الواقعية فى نطاق اللامعقول.

محاولة للفهم:

يأتى هذا الكتاب ليتحدى هذه المسلمات ويكشف لنا: أن الثقة العامة فى النقود والأحكام النقدية ليست فى موضعها، وأن الحياد الظاهرى للمنظومات المالية الحالية زيف كامل،

إن بريطانيا مدينة بمبلغ ٤٠٠ بليون جنيه إسترلينى، وتبلغ ديون كندا ٦٥٠ بليون دولار، وألمانيا مدينة بأكثر من خمسين بليون مارك، أما اليابان فقد بلغ دينها العام ٢ تريليون دولار، وأصبح دين الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٥ تريليونات دولار



وأن النقود (الحديثة) ليست وسطًا طبيعيًا محايدًا، وأنها . كما يتم خلقها الآن. تمنح نفسها طبيعة خاصة وتحيزًا خطيرًا، وهى تعمل فى إطار عالمها الحسابى الخاص بها، وتعكس حقائقها الخاصة وتصورها الاقتصادى الخاص، ويحيطها سدنتها بعبارات غامضة زائفة ومضللة.

فإذا انتهى الكتاب من تقرير هذه الحقائق مفصلة ينتقل بعد ذلك إلى تفسير هذه الألغاز، وأول هذه الألغاز هو الندرة النقدية فى مجتمعات متقدمة تتمتع بالثراء ووفرة الإنتاج، وأول ما يصدمنا من حقائق أن نعرف السبب وهو كما يشرحه المؤلف راجع إلى أن النظام المالى النقدى قائم على أساس من الديون، وبتعبير مباشر وأكثر دقة يقول: «إن النقود تنشأ فى توازٍ مع الديون، ذلك لأن خلق النقود وتداولها متروك للبنوك إلى جانب عدد من مؤسسات الإقراض الأخرى. ويظن أكثر الناس أنهم عندما يقترضون من البنك فإنهم يقترضون أموال أناس آخرين سبق أن قاموا بإيداع نقودهم فى البنك، وهذا وإن كان يمثل بعض الحقيقة إلا أنه لا يمثل الحقيقة كلها، فالصحيح أن نقود القرض لا تكون بالضرورة موجودة فى البنك لحظة طلبها وإنما هى تنشأ ابتداء عندما تتم عملية الاقتراض. وهذه حقيقة أخرى بالغة الإثارة: أن البنك بعملية القرض نفسها يضيف إلى رصيده نقودًا جديدة لم يكن يملكها (قبل القرض)، وأن البنك بهذه القروض يرفع رصيده ولا ينقصه!.

أعترف أننى شخصيًا لم أستطع أن أفهم أو أستسيغ هذه الحقيقة لأول وهلة.. وقلت لنفسى لابد أن مؤلف هذا الكتاب يهزأ بعقلى.. كما أعترف أيضًا أن هذا اللغز الذى صدمنى وحيرنى كثيرًا بدأ ينحل خطوة خطوة كلما تقدمت فى قراءة الكتاب، وأدركت أننى أمام مؤلف عبقرى استطاع أن يحرر عقله من أسر الأفكار التقليدية السائدة فى عالم الاقتصاد وأن يتخلص من جبروتها، بل استطاع أن يحطم الهالة المقدسة التى تحيط بها وأن يقدمها إلينا عارية من كل زيف أو ادعاء.. وتأكدت أن مثل هذا الرجل لابد أن يُتهم بالجنون وقد حدث بالفعل.. ولكنه لم يثنه عن عزمه أو يحرفه عن مواصلة رسالته فى الكشف عن التزييف والخداع الذى تمارسه مراكز القوى الاقتصادية الكبرى فى العالم على الشعوب بدعوى التنمية والتقدم وإشاعة الرخاء.

المؤلف:

لم أشعر برغبة ملحة فى لقاء مؤلف كتاب قرأته كما شعرت بالنسبة لمؤلف «قبضة الموت»، فقد لمست فى كتابته حرارة الداعية المخلص جنبًا إلى جنب مع رسوخ فكره الأكاديمى فى مجال تخصصه.. اقترحت على جامعة جرينتش دعوة «مايكل رُوبثام» مؤلف الكتاب فى محاضرة يعرض فيها أفكاره وتكون فرصة للطلاب والأساتذة لمناقشته.. وقد تولى ابنى. وهو محاضر بالجامعة. دعوة «روبثام» فاستجاب على الفور.. استمتعت بمحاضرة ذات مذاق خاص لمست فيها قوة منطق المؤلف وقدرته على التحليل والإقناع.. ثم دعاه ابنى بعد المحاضرة لتناول طعام الإفطار وكان شهر رمضان قد انتصف، ووجدها «روبثام» مناسبة مثيرة للاطلاع على تقاليد الأسر المسلمة فى رمضان فقبل الدعوة مبديًا شكره وامتنانه.

أما بالنسبة لى فكانت فرصة متاحة لمزيد من الحوار حول أفكار هذا الرجل العجيب وحياته، استغرق الحوار شطرًا من الليل دون ملل، فعلمت كثيرًا عن منطلقاته الإنسانية وأنه صاحب رؤية إصلاحية يشاركه فيها كثيرون مثله من أحرار الفكر فى بريطانيا وكندا واستراليا وفى دول أوروبا.. إنه يدعو إلى بناء اقتصاد متحرر من الفائدة وإلى نظام نقدى غير مؤسس على الديون، فلما لمس شدة اهتمامى بهذه الأفكار الجديدة قال: «أدرك مصدر اهتمامك هذا. إن لم أكن مخطئًا فى تقديرى... إنه عقيدتك الإسلامية.. أليس كذلك؟ فأجبت: بلى.. لقد أصبت الحقيقة.. وما يثيرنى حقًا هو أنك بجهدك العقلى وتوجهك الأخلاقى متجردًا من أى أيديولوجية إسلامية مسبقة قد توصلت إلى نفس النتيجة. كان حوارًا مثمرًا وممتعًا بلا شك، سمه. إن شئت . حوار حضارات أو حوار أديان، أو حوارًا إنسانيًا خالصًا لوجه الله والحقيقة، ففيه شىء من كل هذا.. بلا قصد ولا ترتيب مسبق ولا مؤتمرات دولية!

نقود تنشأ من لا شىء:

نعود إلى كتاب «قبضة الموت» الذى لا مفر منه!، وقد انتهينا إلى نقطة رأينا فيها كيف تخلق البنوك أرصدتها من خلال القروض، ولنا أن نستنتج أن حجم الديون فى اقتصاد ما هو مقياس لكمية الأموال التى يجرى عليها التداول، وفى هذا أمثلة شارحة يوردها المؤلف بالتفصيل، منها: أنه قد جاء فى تقرير للبنك المركزى «بنك إنجلترا» سنة ١٩٩٧ تقرير لجملة النقد الوطنى بمبلغ ٦٨٠ بليون جنيه إسترلينى، من هذا المبلغ أصدرت وزارة الاقتصاد البريطانية ٢٥ بليون جنيه فقط، وهنا نتساءل: من أين جاءت بقية المبلغ وهو ٦٥٥ بليون جنيه وهو يمثل ٩٧٪ من جملة النقود المتداولة فى الاقتصاد البريطانى؟ والإجابة ببساطة: أن الذى خلق هذه النقود هى البنوك التجارية، وأن هذه الكمية الهائلة من النقود نشأت من لا شىء.. وسوف يصاب الناس بالذهول لأنهم يعلمون أنه إذا فعل هذا واحد منهم اعتبر مزيفًا للنقود، وليس لمرتكب هذه الجريمة مكان إلا السجن يقضى فيه بقية عمره.. والفرق الوحيد بين جريمة التزييف وما تفعله البنوك التجارية أن النقود التى تخلقها البنوك ليست هى الأوراق النقدية ولا العملات المعدنية وإنما هى نقود غير حقيقية أو غير طبيعية تمثل قيمة الديون والعقارات والمنازل المرهونة، ومعنى هذا أن الحكومة تعتمد فى إنشاء النقود اللازمة لتسيير الاقتصاد على وقوع أبناء شعبها فى الديون، ومعناه أيضًا أن كل جنيه موجود سواء فى التداول أو مودع فى حساب بنكى هو دين معلق فى رقبة شخص ما أو مؤسسة أو شركة..

هنا سيتوقف الناس عن الأسئلة وينظرون إليك بريبة ولسان حالهم يقول: هذا رجل قد خرج من عقله!.. وقد يعترض أحدهم فيقول إذا كان خلق النقود بهذه الطريقة متروكًا للبنوك فلابد أن يكون هناك سبب وجيه لذلك.. ويقول المؤلف: «على العكس تمامًا فليس هناك أى سبب وجيه لذلك.. بل أكثر من هذا: توجد أدلة لا حصر لها على الآثار المدمرة لهذه الطريقة فى خلق النقود المعتمدة على استخدام القروض وما يترتب عليها من فوائد، ليس فى حياة الأفراد فقط بل فى حياة الشعوب أيضًا.

الشراء بالرهن:

ويسمى اصطلاحًا Mortgage وهى عبارة فرنسية الأصل ومعناها «رهن الموت» أو «قبضة الموت»، وهى الترجمة الحرفية باللغة الإنجليزية التى اختارها المؤلف عنوانًا لكتابه.

وكان شراء الأراضى بهذه الطريقة معروفًا منذ القرون الوسطى ولكنه كان محرمًا بحكم القانون المسيحى، لأن الإنسان لا يضمن بقاءه على قيد الحياة حتى يتم تسديد أقساط ثمن الأرض، فإذا مات تُنتزع ملكيتها منه بمقتضى العقد المبرم.. وقد تبدو الصورة فى أيامنا هذه أقل كآبة، حيث يتمكن قلة من الناس من تسديد قروضهم بفوائدها فى مجرى حياتهم بينما تظل الأغلبية من المشترين ديونهم معلقة فى رقابهم حتى الموت.

من هذا البند وحده تضخمت أرصدة البنوك بأرقام فلكية: ففى أستراليا مثلاً بدأ بنك «الكومنويلث» سنة ١٩١٢ برصيد بلغ مقداره عشرين ألف دولار، فإذا به سنة ١٩٨٤ يقفز إلى ما يقرب من ثلاثين ونصف بليون دولار، وكان تعليق «المعهد الأسترالى للديمقراطية الاقتصادية» سنة ١٩٨٩ فى تقرير له بعنوان «لعبة النقود» كالآتى: «فى تقييم الثروة الأسترالية بالنقد قامت البنوك بإصدار نقود على شكل ديون، ومن ثم حصلت على أرصدة تساوى ما يقرب من ثلث إجمالى الثروة فى أستراليا.. فهل تنبهت إلى اللعبة؟! هل صدم هذا الواقع عقلك كشىء مخالف لكل منطق؟: إن مؤسسة ما لا تنتج شيئًا أكثر من أرقام فى سجلات يمكن أن تستولى على ملكية موجودات أعظم بكثير مما تملكه صناعتنا الكبرى التى يعمل فيها مئات الألوف من الناس، والذين يعتمد على إنتاجهم المادى كل اقتصاد أستراليا!

وجاء التحذير الأقوى والأكثر وضوحًا على لسان لورد «جوشوا ستامب»، وكان مديرًا سابقًا لبنك إنجلترا».. قال فى محاضرة ألقاها سنة ١٩٣٧: «يخلق النظام البنكى الحديث النقود من لا شىء فالعملية ليست أكثر من «خفة يد»، بارعة هى أكثر الأشياء التى اخترعها عقل الإنسان إثارة للذهول.. ذلك لأن هذه البنوك ولدت فى سفاح وعاشت فى خطيئة متواصلة الحلقات.. فالبنوك تكاد تملك الكرة الأرضية.. فإذا شئت إن تكون عبدًا للبنوك وفى نفس الوقت تدفع ثمن عبوديتك فدع البنوك تُصدر النقود».

ولا يتوقف خطر النظام البنكى القائم على الديون والفوائد المركبة على أن يسلب الأفراد ملكيتهم للمنازل التى يشترونها لسكناهم، أو أن يخرج الشركات والمؤسسات من ملكياتها ويدفعها إلى الإفلاس، بل يمتد هذا الخطر إلى الحكومات والدول التى تضطر إلى الاقتراض لإطعام شعوبها الجائعة فإذا هى تهوى فى

«الـدائـن والمـديـن»

مستنقع من الديون لا تستطيع تسديدها ولا حتى تسديد فوائدها فتضطر للاقتراض من جديد لتتمكن من تسديد الفوائد المستحقة على الديون، وتدخل بذلك فى حلقة جهنمية مفرغة لا سبيل إلى الفكاك منها، كما هو حادث بالنسبة للدول الأفريقية خاصة ودول العالم الثالث بصفة عامة.

الديون شرط أساسى لتوفير النقود:

فى المنظومات المالية الغربية. كما رأينا. لابد من وجود الديون لأنها هى الشرط الأساسى لتوفير المال اللازم لحركة الاقتصاد، وليست هذه حالة باقية عند مستوى معين تثبت عنده وإنما هى حالة دائمة التعاظم والتفاقم، فقد كان مجموع الديون الصناعية سنة ١٩٦٣م (فى بريطانيا) ٣,٣ بليون جنيه إسترلينى بنسبة ١١٪ تقريباً من الدخل القومى الذى بلغ آنذاك ثلاثين بليون جنيه، ارتفع هذا الدين سنة ١٩٩٦م (أى بعد ثلاث وثلاثين سنة إلى ١٤٠ بليون جنيه بنسبة ٢٠٪ من الدخل القومى البالغ قيمته ٧٢٠ بليون جنيه.

أما ديون الأفراد سنة ١٩٦٣ فقد كانت ٤ بلايين جنيه بنسبة ١٤٪ من الدخل القومى فإذا بها ترتفع سنة ١٩٩٦ إلى ٤٩٠ بليون جنيه بنسبة ٧٠٪ من الدخل القومى.

هذا الطراز من النمو الاقتصادى القائم على تصاعد الديون له انعكاسه المباشر على الأسعار والدخول، فالمنتجون يرفعون أسعار السلع لتعويض الديون والفوائد البنكية، وبذلك تزداد تكاليف الحياة المعيشية على المستهلكين، ويضطرون لمزيد من القروض وتسديد أقساطها وفوائدها، وبهذا تزداد الهوة بين الدخول المتدنية والأسعار الصاعدة مما يؤدى إلى تضاؤل القوة الشرائية عند المستهلكين.

الكوابح والضوابط:

لكى تعمل البنوك فى المنظومة الاقتصادية الغربية بفاعلية تضع لها الحكومات. عادة. ضوابط أو كوابح حتى لا تسرف فى خلق نقود على هيئة ديون إلى ما لا نهاية، حيث يُفترض أن يمثل النظام النقدى هرماً من الرصيد Credit له قاعدة راسخة من النقود الحقيقية أو (الطبيعية) وأعنى بذلك العملات المعدنية والنقود الورقية التى تصكها الحكومة، على هذه القاعدة يتم بناء هرم تتقارب أضلاعه كلما ارتفع بفعل قوانين تضعها الدولة تحدد بها حجم هذا الهرم ونموه، ومن ثم يتوقف نمو الهرم عند نقطة معينة وارتفاع معين لا يمكن أو لا يصح تجاوزه.. من أهم هذه القيود ما يسمى بـ «نسبة السيولة» التى لا يصح أن تقل عن ١٠٪ من الأموال المتداولة فى البنك، ومعنى هذا أنه من حق البنك أن ينشئ فى تعاملاته نقوداً بنسبة ٩٠٪ عن طريق القروض، حتى إذا بلغ الهرم قمته لم يعد من حق البنك أن يمنح عملاءه قروضاً جديدة، حتى يتم حقنه بدفعة جديدة من النقود الحقيقية «السيولة» التى تصدرها الحكومة محررة من الديون، وبذلك يستطيع البنك حينئذ أن ينشئ هرماً جديداً من القروض على أساس من هذه القاعدة الجديدة. هذا هو المفترض من الناحية النظرية، ولكن هذه النظرية لا يتم تطبيقها فى الواقع العملى، فقد وجدت البنوك سبلاً كثيرة للالتفاف حول هذا القيد، يذكرها المؤلف بالتفصيل فى كتابه..

يلفت المؤلف نظرنا أيضاً إلى حقيقة أخرى من استغلال البنوك الشائن للعملاء، تتمثل فى الفرق الهائل بين الفوائد التى تمنحها للمودعين على ودائعهم، والفوائد الباهظة التى تفرضها على المقترضين، وهكذا نرى أن المنظومات البنكية تقوم على الربا الفاحش منذ عصور، حتى أصبحت مصدراً للاضطرابات الاقتصادية وأصبحت بقروضها وفوائدها الباهظة عبئاً على المواطنين وعلى الاقتصاد الوطنى.

والخلاصة هنا أن الاقتصاديين يصورون لنا أن النظام البنكى يعمل فى إطار ضوابط وكوابح صارمة فى حين أن هذا لم يحدث فى الماضى ولا هو حادث الآن!

من أهم وأخطر الضوابط الحكومية هو تدخل الحكومة فى تحديد سعر الفائدة على القروض، فمن خلال رفع سعر الفائدة أو خفضه تتحكم الدولة فى النشاط الاقتصادى العام، لأن سعر الفائدة هو الذى يشجع أو يثبط الاقتراض، ومن ثم يتم التحكم فى حجم النقود المتداولة وفى حركة النمو الاقتصادى. فإذا رفعت الحكومة سعر الفائدة يُفاجأ الناس وأصحاب الأعمال بأعباء إضافية على الديون والفوائد المستحقة عليهم، ومعنى هذا أن الحكومة فى سعيها لتقليل حجم الأموال المقترضة تفرض «أوتوماتيكياً» على أناس آخرين أعباء جديدة تؤدى بهم إلى الإفلاس، أو الخروج من ممتلكاتهم نهائياً، مثلاً يجد أصحاب المنازل المشتراة عن طريق «الرهن العقارى» أنفسهم عاجزين عن دفع أقساط الديون والفوائد الصاعدة فيتدخل البنك ويستولى على مساكنهم ويطردهم منها.. ويقول المؤلف: «لا أجد فى هذا ذرة من عدل على الإطلاق.. وهو أمر منافٍ للأديان وللأخلاق الإنسانية».

جوهر المشكلة كامن فى قلب النظام البنكى القائم على القروض والفوائد المركبة وهو نظام. بطبيعته. محكوم بالغلو والشطط والجشع، مما يؤدى بالضرورة إلى فواجع إنسانية وكوارث اقتصادية متكررة.

وفى هذا يصف لنا المؤلف السيناريو المتكرر لدورة الازدهار والأزمات الاقتصادية.

يبدأ الاقتصاد فى الانتعاش والحركة وتتوفر الاستثمارات وتنشأ وظائف جديدة ويتسع حجم العمالة ويزيد الإنتاج ويعم الرخاء، حتى إذا بلغت الحركة الاقتصادية قمة سخونتها وازدهارها يهبط غول التضخم المالى.. ويهرع أصحاب النظريات الاقتصادية يهددون وينذرون: أوقفوا التضخم المالى فالاقتصاد يندفع نحو الركود، فى هذه الأثناء تكون كثير من الشركات والأعمال قد أعلنت إفلاسها، واستولت البنوك على منازل وعقارات وأملاك آلاف من البشر، وفقد ملايين الموظفين والعمال وظائفهم بسبب إفلاس الأعمال وإغلاق الشركات والمصانع. ولكى يخفض أطباء الاقتصاد المحموم حرارته المفرطة، ولكى يهبط التضخم المالى، يرفعون سعر الفائدة ويفرضون مزيداً من القيود على القروض ويخفضون سقف الإنفاق الحكومى إلى أدنى مستوى، فيتراوح الاقتصاد فى مكانه ويعم الركود والكساد ويغرق الناس فى بحر من البؤس الإنسانى، ويقبض الناس أيديهم عن الإنفاق والشراء حتى لا يتبخر ما بقى من مدخراتهم، فلا يجدون ما ينفقون عندما يزج بهم إلى طابور العاطلين.

ثم تبدأ دورة اقتصادية جديدة بتخفيض سعر الفائدة.. وتمر فترة انتظار حتى تعود الثقة من جديد عند المستثمرين والمستهلكين، ويتوفر المناخ الاقتصادى المناسب لانطلاق دورة جديدة من الانتعاش.. حتى إذا بلغت ذروتها نبدأ فى فترة ركود اقتصادى أخرى ويتكرر السيناريو!

فما معنى هذا؟.. معناه أن هذه الدورات الاقتصادية المضطربة صعوداً وهبوطاً، وما يترتب عليها من مآس لا تأتى محض صدفة وليست حادثاً طارئاً أو عارضاً، إنما هى جزء لا يتجزأ من طبيعة النظام المالى نفسه.. هى حريق لابد أن يشتعل بفعل آليات «جوانية» تتنامى مع حركة النمو الاقتصادى وسخونته، حتى إذا بلغت نقطة معينة يشتعل الحريق وتنطلق صفارات الإنذار ويأتى رجال الإطفاء للإنقاذ.

ومعنى هذا أيضاً أن الضوابط والكوابح التقليدية فى أى نظام مالى لا تعمل عملها. كما نظن. بطريقة تلقائية



تقول البنوك إن القروض جُعلت لخدمة العملاء، ولكن الحقيقة التى لا يتحدث عنها أحد هى أن البنوك تُقرض النقود لتعود إليها أضعافاً مضاعفة، فكأنها تخلق النقود لخدمة نفسها لا لخدمة العملاء



لتؤدى النتائج المتوقعة منها، ولكن تضطر الحكومات للتدخل من وقت لآخر لكبح جماح التقلبات الاقتصادية قبل حلول الكارثة.

وهناك مشكلات أخرى كثيرة فى النظريات الاقتصادية الشائعة تؤكد تناقضها واضطرابها، وهناك أسئلة قد لا تخطر على بال أحد منها مثلاً: إذا كان أغلب الناس والشركات والحكومات كلها غارقة فى الديون.. فمن يملك النقود؟!

تقول البنوك إن القروض جُعلت لخدمة العملاء، ولكن الحقيقة التى لا يتحدث عنها أحد هى أن البنوك تُقرض النقود لتعود إليها أضعافًا مضاعفة، فكأنها تخلق النقود لخدمة نفسها لا لخدمة العملاء.. وأكبر دليل على ذلك هو أن البنوك عندما يحدث الركود الاقتصادى ويكف الناس عن طلب القروض تتوفر لدى البنوك فوائض مالية تستثمرها فى سوق المال العالمى فى شراء الأسهم والسندات، وتستحوذ على مزيد من العقارات والأراضى بأسعار رخيصة غير تنافسية فى السوق المحلية، فالبنوك تفترض أن لها حقًا مقدسًا فى امتلاك ثروة الأمة بما يساوى الديون التى تقرضها للعملاء.

وشراء المنازل فى بريطانيا مثلاً (بنظام الرهن) يعطى هذه الحقيقة شحمها ولحمها، ذلك لأنه إذا كان ٣٦٪ من المنازل المسكونة مشتراة عن هذا الطريق فمعناه أن البنوك تمتلك بالفعل ٣٦٪ من مجموع المنازل فى بريطانيا.

والخلاصة: أن المنظومات الاقتصادية فى العالم تنطوى على خفايا وكوارث كامنة تتربص بالناس من حيث لا يشعرون، وفى النظريات الاقتصادية السائدة فروض ومسلمات ما أنزل الله بها من سلطان، لا يمكن أن تثبت أمام التحليل الدقيق القائم على منطق العدل ولا أمام مبادئ الأخلاق والدين، وستظل أوضاع المحتاجين والمستضعفين فى تدهور مستمر ما بقى النظام المالى والبنكى مؤسسًا على الديون والفوائد.

وإذا كان «مايكل موبثام» قد أطلعنا فى كتابه «قبضة الموت» على أطراف مأساوية من تطبيقات هذا النظام فى الدول المتقدمة مثل بريطانيا وأمريكا وأستراليا فإن المأساة الحقيقية الكبرى تتمثل فى ديون العالم الثالث التى عالجها بتحليلاته الجزئية ونظراته الثاقبة، ويقترح لها حلولاً عبقرية فى كتاب آخر له بعنوان: «وداعاً أمريكا: العولمة والديون وإمبراطورية الدولار». ■

نهب.. ومضاربات.. واتفاقات مجحفة

الثراء الزائف

أحمد السيد النجار

■ تبدو الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة كصورة مبهرة للثراء والرفاهية والقوة الاقتصادية التى تشكل أساسا متينا للقوة الشاملة فى تلك الدول، وتبدو هذه الدول المتقدمة كحلم وصورة للمستقبل الاقتصادى الذى تأمل الدول النامية فى الوصول إليه عبر مسيرة تطورها المأمولة إلى دول صناعية متقدمة. وعند تأمل تجربة التطور الاقتصادى فى تلك البلدان، فإنه يتم التركيز عادة على العوامل الاقتصادية-الاجتماعية-السياسية الداخلية كعوامل تقف وراء هذا التطور الاقتصادى والثراء الشديد الذى تتمتع به تلك البلدان، ويضاف إلى تلك العوامل فى الكثير من الحالات، ما نهبته الدول الاستعمارية من ثروات وخيرات وعمال البلدان التى خضعت للاستعمار فى العهد الاستعمارى، كما يضاف إليها أيضا اختلال معدل التبادل الدولى بين السلع التى تنتجها الدول النامية وبين السلع التى تنتجها الدول المتقدمة لصالح الأخيرة، كعامل مساعد لاستمرار ثراء الدول المتقدمة. كما يظهر الاقتصاد الطفيلى المتمثل فى أسواق العملات ومجالات المضاربة الساخنة، كآلية لنزح الأموال من الدول النامية إلى الشركات والمضاربين من الدول المتقدمة، فى ظل تحرير تجارة الخدمات ضمن اتفاقات جات والاتفاقات اللاحقة لها التى عقدت فى إطار منظمة التجارة العالمية. وتظهر الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة فى النهاية كدول غنية ومانحة للقروض ودائنة للدول النامية، وتظهر أيضا كدول تتدفق منها الاستثمارات المباشرة وغير المباشرة لكل دول العالم التى تسعى دائما لجذب الاستثمارات من هذه الدول الغنية.

لكن الصورة النهائية للدول الغنية كدول مقرضة ودائنة تتدفق منها الاستثمارات إلى مختلف بلدان العالم، هى صورة زائفة بدرجة كبيرة، لأن الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة هى أكبر الدول المدينة فى العالم. بل إن البعض منها وبالتحديد الولايات المتحدة وبريطانيا تثريان بالأساس من خلال ريع الوضع الخاص لعملتيهما كعملتى احتياط لكل بلدان العالم، حيث يهيمن الدولار على قرابة ثلثى سلة الاحتياطيات الدولية بينما تدور حصة الاسترلينى من هذه السلة حول نسبة ٥٪ من الإجمالى العالمى، وتقوم الدولتان بإصدار أوراق نقدية اعتمادا على النمو فى التجارة الدولية التى تقوم الدول المختلفة بتسوية التزاماتها الناجمة عنها بالعملات الحرة الرئيسية وعلى رأسها الدولار الأمريكى، بما يمكن الولايات المتحدة والدول المتقدمة صاحبة العملات الحرة الرئيسية من إصدار أوراق نقدية وإطلاقها للأسواق العالمية والحصول مقابلها على السلع والخدمات التى تنتجها مختلف دول العالم.

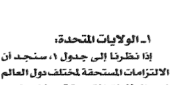
وبعيدا عن نهب الدول صاحبة العملات الحرة الرئيسية لباقى دول العالم بالاستناد لوضع عملاتها كعملات احتياط دولية، تتم من خلالها تسوية الالتزامات الدولية الناجمة عن التجارة فى السلع والخدمات، بما يسمح لهذه الدول بالتوسع فى إصدارها بناء على ذلك بشكل يتجاوز أى نمو فى اقتصاداتها، فإن مديونية الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة هى عبارة عن المديونية الحكومية فى تلك البلدان، للأجانب الحائزين للسندات التى أصدرتها وباعتها لهم، وهى أيضا عبارة عن قيمة الأسهم وسندات الشركات والاستثمارات المباشرة فى كافة القطاعات والودائع المصرفية والعقارات وحتى السلع المعمرة المملوكة للأجانب داخل الدولة والتى يحق لهم بيعها أو سحبها بشكل فورى أو فى أجل محدد والحصول مقابل ذلك على ثمنها السوقى، وإخراجه من اقتصاد هذه الدولة أو تلك من الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة. لكن مثل هذه المديونية تتسم بأنها بلا أعباء سياسية، كما أن الدولة المدينة تتحول إلى الطرف الأقوى لأنها ببساطة فى وضع مهيمن وتستطيع من خلال قوانينها المحلية أن تتحكم فى حركة الاستثمارات الأجنبية المباشرة واستثمارات الحافظة والودائع المصرفية وكل الاستثمارات التى دخلت فعليا إلى اقتصاد هذه الدولة. بل إن الدول الرأسمالية المتقدمة التى تعد فى مجموعها المدين الأكبر فى العالم، تعيد ضخ جزء مهم من الأموال الأجنبية التى تتدفق إليها من بلدان العالم النامى والفقير، إلى هذه البلدان نفسها بشروطها السياسية والاقتصادية التى قد لا تتوافق مع مصالح الشعوب وحتى الحكومات فى غالبية الدول النامية والفقيرة.

المديونية الخارجية الصافية للولايات المتحدة تبلغ نحو ١,٧ مرة قدر مديونية الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم وهى البرازيل والصين وروسيا والمكسيك والأرجنتين وإندونيسيا وتركيا والهند وبولندا والفلبين

أولا: الأثرياء المدينون:

للوهلة الأولى، يبدو وصف بعض الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة بأنها أكبر الدول المدينة فى العالم، وكأنه نوع من الدعاية الأيديولوجية المضادة للنموذج الاقتصادى-السياسى الذى تتبعه هذه الدول، لكن قراءة البيانات الصادرة عن صندوق النقد والبنك الدوليين، وهما مؤسستان اقتصاديتان حكوميتان دوليتان تمتلك الدول الرأسمالية الصناعية الكبرى هيمنة على صناعة القرار فيهما، توضح أن وصف هذه الدول بأنها أكبر الدول المدينة فى العالم وبأنها تنمو وتثرى بأموال العالم، هو أمر دقيق للغاية وفقا للبيانات التى تقدمها هذه الدول لصندوق النقد والبنك الدوليين. وتبرز الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا ومنطقة اليورو كدول مدينة كبيرة، كما هو واضح من الجدول (١)

"الدائن والمدين"



١ ـ الولايات المتحدة:

إذا نظرنا إلى جدول ١، سنجد أن الالتزامات المستحقة لمختلف دول العالم لدى الولايات المتحدة قد بلغت نحو ٩١٢٧.١ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، أى ما يوازى الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى فى العام المذكور. ونظرا لأن الولايات المتحدة لها مستحقات لدى مختلف دول العالم تقدر بنحو ٦٨٦٣ مليار دولار فى العام نفسه، فإن صافى التزامات الولايات المتحدة المستحقة لمختلف دول العالم أى المديونية الأمريكية لدول العالم قد بلغت نحو ٢٢٦٤.١ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، أى ما يوازى قرابة عشرة أضعاف الديون الخارجية للبرازيل التى تعد «أكبر» دولة مدينة فى العالم والتى بلغت مديونيتها الخارجية نحو ٢٢٧.٩ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢. كذلك فإن المديونية الخارجية الصافية للولايات المتحدة تبلغ نحو ١.٧ مرة قدر مديونية الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم وهى البرازيل والصين وروسيا والمكسيك والأرجنتين وإندونيسيا وتركيا والهند وبولندا والفلبين الذين بلغت مديونية كل منهم بالترتيب نحو ٢٢٧.٩، ١٦٨.٣، ١٤٧، ١٤١، ١٣٢.٣، ١٣٢.٢، ١٣١، ١٠٤.٤، ٦٩.٥، ٦١.٢ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢، وبلغت مديونيتهم مجتمعين نحو ١٣١٥ مليار دولار عام ٢٠٠٢، ونظرا لأن عدد سكان هذه الدول العشر المدينة الكبرى قد بلغ نحو ٣١٨٤.٧ مليون نسمة فى عام ٢٠٠٢، فإن نصيب الفرد من الديون الخارجية فى تلك الدول، بلغ نحو ٤١٢.٩ دولار فى العام المذكور. وبالمقابل فإن عدد سكان الولايات المتحدة بلغ ٢٨٨.٤ مليون نسمة، وبالتالى فإن نصيب الفرد من المديونية الخارجية الصافية المستحقة على الولايات المتحدة، بلغ نحو ٧٨٥٠.٦ دولار فى عام ٢٠٠١، أى أن نصيب الفرد الأمريكى من المديونية الخارجية الصافية لبلاده يبلغ أكثر من ١٩ ضعف متوسط نصيب الفرد من المديونية فى الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم والتى أوردناها آنفا (جمعت وحسبت من: World Bank, World Development Indicators 2004, Several Tables).

انظر الجدول رقم «١».

٢ ـ بريطانيا:

تمثل بريطانيا حالة فريدة فيما يتعلق بميزان علاقاتها المالية مع باقى دول العالم، فهى تتمتع بفائض كبير فى ميزان استثماراتها الخارجية المباشرة بقيمة ٣٦٧.٨ مليار دولار، بينما تسجل عجزا قيمته ٨٧.٥ مليار دولار فى استثمارات الحافظة، لكن الودائع المصرفية العائدة لبريطانيين فى مختلف بلدان العالم لا تتجاوز ١٨٩١.٥ مليار دولار، ويقابلها ودائع مصرفية موجودة فى بريطانيا ومملوكة لمواطنى الدول الأخرى بقيمة ٢٣٢٢.١ مليار دولار، بما يجعل التزامات بريطانيا المصرفية إزاء الخارج تزيد بمقدار ٤٣٠.٦ مليار دولار عن حقوق مواطنيها لدى الخارج. والنتيجة النهائية لكل ذلك هى أن بريطانيا مدينة صافية للدول الأخرى بمقدار ٤١ مليار دولار، بما يعنى أن نصيب الفرد من المديونية فى بريطانيا بلغ نحو ٦٩٢.٦ دولار فى عام ٢٠٠١، والشيء الفريد فى وضع بريطانيا هو القدرة الهائلة لجهازها المصرفى على جذب المدخرات من مواطنى وشركات الدول الأخرى، إذ تزيد الودائع الأجنبية فى الجهاز المصرفى البريطانى، عن قيمة الودائع الأجنبية فى مجمل الأجهزة المصرفية فى كل دول منطقة اليورو بأكثر من ٢٠٠ مليار دولار، كما تزيد عن الودائع الأجنبية فى الجهاز المصرفى الأمريكى العملاق بمقدار ٩٠٠.٨ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، ويعود هذا الوضع الفريد إلى أن بريطانيا رغم انتهاء إمبراطوريتها الاستعمارية، إلا أنها احتفظت بتدفقات مالية كبيرة من مواطنى وشركات مستعمراتها السابقة، ربما من باب الدراية بقطاعها المصرفى الذى يتمتع بسمعة طيبة وانطباع دولى جيد. كذلك فإن سعر الفائدة على الاسترلينى يزيد كثيرا عن سعر الفائدة على اليورو الأوروبى والدولار الأمريكى منذ عدة أعوام. وقد بلغ سعر الفائدة على الاسترلينى فى شهر أغسطس ٢٠٠٤، نحو ٤.٩٪، مقارنة بنحو ١.٦٪ على الدولار الأمريكى، ونحو ٢.١٪ على اليورو الأوروبى، وهو ما يجعل الودائع الإسترلينية أكثر جاذبية للمودعين من مختلف بلدان العالم فى السنوات الأخيرة. كما أن بريطانيا كانت من أقل البلدان تدقيقا فى طبيعة الأموال الأجنبية التى تتدفق عليها، أو بمعنى آخر كانت واحدة من المحطات المفضلة لغسيل أموال الفساد والاقتصاد الأسود.

٣ ـ كندا:

بلغت قيمة المديونية الخارجية الصافية لكندا نحو ١٢٧.٧ مليار دولار عام ٢٠٠١، بما يعنى أن كل مواطن كندى مدين بنحو ٤٠٦٧ دولارا. ورغم أن الاستثمارات الكندية المباشرة فى الخارج تزيد عن الاستثمارات الأجنبية المباشرة فى كندا بمقدار ٤٣ مليار دولار، بما يعنى أن كندا دولة دائنة فى هذا الصدد، إلا أنها مدينة فى مجالات أخرى بشكل أكبر كثيرا. والحقيقة أن الديون الكندية ناتجة بالأساس عن وجود استثمارات أجنبية فى الحافظة فى كندا بقيمة ٣٣١ مليار دولار وبما يزيد بمقدار ١٨٥.٨ مليار دولار عن قيمة استثمارات الكنديين فى الحافظة فى بلدان أجنبية، وناتجة أيضا عن وجود ودائع مصرفية أجنبية فى كندا قيمتها ١١٨.٥ مليار دولار بما يزيد بمقدار ٥٠.٤ مليار دولار عن قيمة الودائع الكندية فى مصارف الدول الأجنبية. ولولا أن كندا دولة دائنة فيما يتعلق بالاستثمارات الأخرى لكانت مديونيتها الصافية أكبر كثيرا.

٤ ـ دول اليورو:

بلغت قيمة التزامات دول منطقة اليورو، لصالح الدول الأخرى، نحو ٦٧٠٨.١ مليار دولار عام ٢٠٠١، فى حين بلغت مستحقاتها لدى الدول الأخرى نحو ٦٥٧٣.٥ مليار دولار، أى أن ديونها لمختلف دول العالم بلغت نحو ١٣٤.٦ مليار دولار فى العام المذكور، بما يعنى أن متوسط نصيب الفرد فيها من هذه الديون قد بلغ نحو ٣٥٥ دولارا. ومن الضرورى الإشارة إلى أن هناك تفاوتا حادا بين أوضاع الدول المختلفة الموجودة فى منطقة اليورو فيما يتعلق بمديونيتها الخارجية، حيث تعتبر الدول الثلاث الرئيسية فى هذه المنطقة وهى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، دولا دائنة، حيث زادت الأصول الخارجية الإجمالية لهذه الدول بالترتيب عن التزاماتها أو ديونها الخارجية بقيمة ١٠٢.١، ١٩١، ١٨.٥ مليار دولار فى عام ٢٠٠١. لكن الدول الأخرى فى منطقة اليورو تعد دولا مدينة بقيمة تزيد كثيرا عن دائنية ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، بما أدى فى النهاية إلى ظهور منطقة اليورو كمنطقة مدينة.

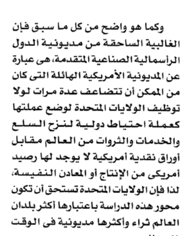
٥ ـ اليابان:

تعد اليابان، حالة عكسية تماما، حيث أن إجمالى الأصول العائدة لمواطنيها فى الخارج، تزيد عن إجمالى الأصول العائدة للأجانب داخل اليابان بمقدار ١٤٦٢.٤ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، وهو وضع ناجم عن تحقيق هذه الدولة لفائض هائل فى موازينها الخارجية وبالأساس ميزانها التجارى بما يجعلها مصدرة لرأس المال من خلال الإقراض وكل أشكال الاستثمارات المباشرة وغير المباشرة بصورة اضطرارية تقريبا لأن بقاء أموال الفوائض التجارية التى تزيد عن طاقة الاقتصاد اليابانى على استيعاب الاستثمارات الجديدة ستجعل من اقتصادها اقتصادا محموما ومن سوق رأس المال وأسواق العملات فيها، أسواقا محمومة ومضطربة بصورة تهدد الاستقرار الاقتصادى فيها.

نصيب الفرد الأمريكى من المديونية الخارجية الصافية لبلاده يبلغ أكثر من ١٩ ضعف متوسط نصيب الفرد من المديونية فى الدول العشر المدينة الكبرى فى العالم



"الدائن والمدين"



وكما هو واضح من كل ما سبق فإن الغالبية الساحقة من مديونية الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة، هى عبارة عن المديونية الأمريكية الهائلة التى كان من الممكن أن تتضاعف عدة مرات لولا توظيف الولايات المتحدة لوضع عملتها كعملة احتياط دولية لنزح السلع والخدمات والثروات من العالم مقابل أوراق نقدية أمريكية لا يوجد لها رصيد أمريكى من الإنتاج أو المعادن النفيسة، لذا فإن الولايات المتحدة تستحق أن تكون محور هذه الدراسة باعتبارها أكثر بلدان العالم ثراء وأكثرها مديونية فى الوقت نفسه!!

ثانيا: العملاق الثرى والمدين الأكبر:

قبل تناول المديونية الأمريكية لابد من التعرف على مستوى الثراء الأمريكى المتمثل فى قيمة الناتج القومى الإجمالى لهذه الدولة ومتوسط نصيب الفرد فيها من هذا الناتج، والترتيب الأمريكى بين دول العالم فى الحالتين.

١- الثراء الأمريكى:

تعد الولايات المتحدة هى أكبر دولة مدينة فى العالم، رغم أنها تعتبر فى الوقت نفسه أكثر بلدان العالم ثراء، وفقا لكل التقارير التى تصدرها المؤسسات الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين والأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها. وقد بلغ متوسط نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى فى الولايات المتحدة نحو ٣٥٤٠٠ دولار عام ٢٠٠٢، وهو ما وضعها فى المرتبة الثالثة عالميا بعد النرويج (٣٨٧٣٠ دولارا للفرد)، وسويسرا (٣٦١٧٠ دولارا للفرد). كما بلغ الناتج القومى الإجمالى للولايات المتحدة نحو ١٠٢٠٧ مليار دولار وتلتها اليابان بناتج قومى إجمالى بلغ ٤٣٢٣.٩ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢ وفقا لحساب هذا الناتج على أساس سعر الصرف السائد.

وإذا أخذنا بنصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى الحقيقى المحسوب وفقا لتعادل القوى الشرائية بين العملات المختلفة وبين الدولار، فإن نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى فى الولايات المتحدة يأتى فى المركز الثانى عالميا بعد النرويج، حيث بلغ ٣٦١١٠ دولارات، مقابل ٣٦٦٩٠ دولارا للفرد فى النرويج، فى حين يتراجع متوسط نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى فى سويسرا إلى ٣١٨٤٠ دولارا، نظرا لأن أسعار الصرف السائدة للفرنك السويسرى مقابل الدولار، تزيد كثيرا عن قيمته الحقيقية تجاهه والتى تتحدد بتوازن القدرات الشرائية بينهما.

كما بلغ الناتج القومى الإجمالى الأمريكى المحسوب وفقا لتعادل القوى الشرائية ١٠٤١٤ مليار دولار، وتلاه الناتج القومى الإجمالى الصينى الذى بلغ ٥٧٩٢ مليار دولار، بينما تراجعت اليابان للمركز الثالث بناتج بلغ ٣٤٨١ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢.

ووفقا لكل المؤشرات تعتبر الولايات المتحدة دولة شديدة الثراء. ويسود تصور انطباعى أن هذه الدولة لديها من الموارد والثروات والقدرات والأصول الإنتاجية ما يحقق لها هذا الثراء الهائل، لكن هذا الانطباع بعيد عن الحقيقة والصواب، فصحيح أن الإمبراطورية الأمريكية كانت لديها ثروات معدنية ونفطية هائلة، فضلا عن الموارد المائية والغابات والأراضى الصالحة للزراعة والرعى، إلا أنها استنزفت الجانب الأعظم من مواردها القابلة للنضوب، ولم تعد ثرواتها الطبيعية هى سر ثرائها، بل مجرد جزء محدود من أساس ثرائها.

ورغم الأهمية الكبيرة للتقدم الصناعى والتكنولوجى للولايات المتحدة كسبب رئيسى لثرائها وكقاعدة تمكنها من أن تقف فى موقع متقدم وسط الدول الغنية، إلا أنه لا يكفى لتفسير المستوى البالغ الارتفاع للثراء الأمريكى فى الوقت الراهن والذى يجد تفسيره فيما يمكن تسميته بالإثراء الأمريكى بأموال العالم التى تتدفق على السوق الأمريكية كاستثمارات مباشرة وغير مباشرة، تساهم بصورة كبيرة وفعالة فى تمويل التنمية فى الاقتصاد الأمريكى. وكانت الولايات المتحدة تعد من أكثر الدول تساهلا مع تدفق أموال الفساد والاقتصاد الأسود من البلدان النامية إليها، بما جعلها قبلة لهذه الأموال لزمن طويل، قبل أن تتخذ إجراءات مشددة لمكافحة تجارة المخدرات وأموالها فى تسعينيات القرن العشرين، وتتخذ إجراءات أكثر تشددا لمواجهة تدفق الأموال إلى المنظمات التى تعتبرها واشنطن إرهابية. كما تثرى الولايات المتحدة على حساب العالم من خلال استغلال وضعية الدولار الأمريكى باعتباره عملة الاحتياط الدولية الرئيسية، حيث يشكل الدولار عملة الاحتياط الرئيسية فى العالم، وهو العملة التى يتم تسعير العديد من المواد الخام بها وعلى رأسها النفط، وهو أيضا العملة التى يتم بواسطتها تسوية الجانب الأكبر من مدفوعات التجارة الدولية فى السلع والخدمات، فضلا عن أن جانبا مهما من حركة الإقراض الدولية يتم بالدولار. وقد وظفت الولايات المتحدة دور عملتها كعملة احتياط دولية لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية الخارجية حتى لو كان ذلك من خلال إجراءات تنطوى على استغلال باقى دول العالم ونزح مواردها.

٢ ـ المديونية الخارجية الأمريكية وهيكلها:

تتركز المديونية الأمريكية التى أشرنا إليها آنفا، فى إجمالى استثمارات الحافظة المملوكة للأجانب فى الولايات المتحدة، والتى بلغت قيمتها فى عام ٢٠٠١، نحو ٤١٣٢.٢ مليار دولار. والتى تعتبر ديونا على الحكومة الأمريكية بقيمة سنداتها التى باعتها للأجانب، وديون على القطاع الخاص بقيمة أسهم وسندات الشركات الأمريكية التى يمتلكها الأجانب. وللعلم فإن جزءا مهما من ممتلكات الأجانب مزدوجى الجنسية من الأسهم والسندات والودائع ومختلف أنواع الأصول، لا تحتسب على أنها التزامات خارجية أو ديون أمريكية، بل تحتسب على أنها ممتلكات لأمريكيين، رغم أن كثيرين من مزدوجى الجنسية ينتمون بالفعل لبلدانهم الأصلية وليس للولايات المتحدة.

ونظرا لأن مواطنى الولايات المتحدة بمن فيهم مزدوجو الجنسية، يمتلكون استثمارات غير مباشرة أو استثمارات فى الحافظة فى بلدان أجنبية بقيمة بلغت نحو ٢١١٠.٥ مليار دولار عام ٢٠٠١، فإن صافى المديونية الأمريكية فيما يتعلق باستثمارات الحافظة، بلغ نحو ٢٠٢١.٧ مليار دولار، أى نحو ٨٩.٣٪ من صافى المديونية الخارجية الشاملة للولايات المتحدة الأمريكية. وهذا الأمر يعنى أن الغالبية الساحقة من الأموال المملوكة للأجانب والمستثمرة فى الولايات المتحدة فى الأسهم والسندات، أو بمعنى آخر غالبية الديون الخارجية الأمريكية، هى عبارة عن أصول ورقية يتلقى مالكوها الأجانب عوائدها، لكنهم بلا سلطان فى إدارتها، إلا فى الحالات التى يمتلك فيها بعض المستثمرين الأجانب نسبة كبيرة من أسهم بعض المشروعات بما يتيح لهم المشاركة فى إدارتها. أما فى الظروف العادية وفى الغالبية الساحقة من الحالات، فإن مديرين تنفيذيين أمريكيين يديرون الأصول العينية الإنتاجية والخدمية التى يمتلك الأجانب أسهما وسندات فيها.

أما القسم الثانى من المديونية الأمريكية فهو المتمثل فى الاستثمارات الأجنبية المباشرة الموجودة فى الولايات المتحدة والتى بلغت قيمتها نحو ٢٥٢٦.٧ مليار دولار فى

كانت الولايات المتحدة تعد من أكثر الدول تساهلا مع تدفق أموال الفساد والاقتصاد الأسود من البلدان النامية إليها، بما جعلها قبلة لهذه الأموال لزمن طويل، قبل أن تتخذ إجراءات مشددة لمكافحة تجارة المخدرات وأموالها فى تسعينيات القرن العشرين



الدائن والمدين

عام ٢٠٠١، والتى تعد ممتلكات عائدة للأجانب فى الولايات المتحدة وتشكل بالتالى التزامات خارجية على الولايات المتحدة، إذ يمكن للمستثمرين الأجانب، إذا أرادوا بيع استثماراتهم المباشرة أو الخروج منها أن يحصلوا على القيمة السوقية لهذه الاستثمارات ويخرجوها من الاقتصاد الأمريكى الذى يمكن بالفعل أن يتعرض لزلزال عنيف لو حدثت حالة نزوح للاستثمارات الأجنبية المباشرة وغير المباشرة منه.

ونظرا لأن مواطنى الولايات المتحدة بمن فيهم مزدوجو الجنسية، لهم استثمارات مباشرة فى الخارج تقدر قيمتها بنحو ٢٢٨٩.٩ مليار دولار، فإن صافى المديونية الأمريكية الناجمة عن ميزان الاستثمارات المباشرة، بلغ نحو ٢٣٦.٨ مليار دولار فى عام ٢٠٠١، أى ما يزيد بنحو ٨.٩ مليار دولار عن قيمة الديون الخارجية الإجمالية للبرازيل.

أما بالنسبة للودائع المصرفية فإن الولايات المتحدة لديها ودائع أجنبية بلغت قيمتها نحو ١٤٢١.٣ مليار دولار عام ٢٠٠١، ويقابلها ودائع مصرفية أمريكية فى الخارج بقيمة ١٤١٦.٨ مليار دولار فى الخارج، بما يعنى أن المديونية الأمريكية الصافية فى هذا المجال محدودة ولا تتجاوز ٤.٥ مليار دولار فى العام المذكور.

وبناء على كل ما سبق، يمكننا القول أن الولايات هى الدولة التى عليها أكبر التزامات إزاء الدول الأخرى ومواطنيها، أو بمعنى آخر هى الدولة المدينة الأكبر فى العالم، ولو افترضنا أن كل الأجانب من دول وأفراد وشركات، الذين يمتلكون أصولا وأسهما وسندات وودائع مصرفية لديها، قرروا التخلص منها والحصول على قيمتها، فإن ذلك سيعنى بلا أدنى شك، حدوث زلزال كبير فى الاقتصاد الأمريكى وانهيارا مروعا فى قيمة العملة الأمريكية وفى المكانة الاقتصادية الأمريكية فى العالم. وتعد الطريقة الوحيدة لمنع مثل هذا الانهيار فى هذه الحالة الخيالية، هى لجوء الولايات المتحدة لسياسات تسلطية تتناقض تماما مع أى منهج ليبرالى، لتأجيل وتقسيط سداد التزاماتها للدائنين لآجال طويلة ملائمة لقدرات الاقتصاد الأمريكى على السداد، بل وربما تلجأ إلى مختلف أشكال الالتفاف واختلاق الذرائع لتعطيل هذا السداد أو حتى لمصادرة الأموال والسطو المباشر على أصول بعض الدائنين لها.

ولعل السلوك الأمريكى فى مواجهة الأموال العربية منذ أحداث ١١ سبتمبر، نموذجا على السياسات التسلطية التى يمكن أن تتبعها الولايات المتحدة فى مواجهة الأموال التى تريد أن تخرج من السوق الأمريكية، فمع صعود النزعات العنصرية المعادية للعرب والمسلمين عامة فى الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ سبتمبر، تحت دعاوى محاصرة التمويل المالى للجماعات الأصولية والتى شملت الإجراءات الخاصة بها، مراقبة أموال الجمعيات الخيرية الدينية الإسلامية، بدأت بعض الأموال والاستثمارات العربية المتوطنة فى الولايات المتحدة تتجه نحو النزوح، فواجه بعض ممن يملكون هذه الأموال والاستثمارات من أفراد وشركات وجمعيات، إجراءات تمييزية، وتعرض البعض منهم لتجميد أمواله تحت دعاوى تجفيف التمويل الذى يذهب للجماعات «الإرهابية»، خاصة بعد أن أصدرت الولايات المتحدة قانون تشديد مكافحة غسيل الأموال الذى وضع الأموال العربية بالذات، تحت مراقبة مكثفة وتمييزية تشكل مصدرا للإزعاج وللمخاوف للمستثمرين العرب. كذلك فإن إقامة عدد من الأمريكيين لدعاوى تعويض تبلغ قيمتها نحو تريليون دولار ضد عدد من رجال الأعمال السعوديين وضمنهم بعض الأمراء من الأسرة المالكة بدعوى مسئوليتهم الضمنية عن أحداث ١١ سبتمبر بسبب تمويلهم لبعض الجمعيات الخيرية الإسلامية، قد أثار الكثير من المخاوف لدى كل المستثمرين العرب فى الولايات المتحدة بأن تكون أموالهم هدفا لمثل هذه الدعاوى التى تشكل نوعا من الاستهداف العنصرى الذى يشكل محاولة صريحة للسطو على أموال يمكن أن تخرج من الاقتصاد الأمريكى.

كما أن التراجع التاريخى لسعر الفائدة على الدولار الأمريكى لأدنى مستوى له منذ نصف قرن تقريبا حيث بلغ فى نهاية عام ٢٠٠٣ وبدايات عام ٢٠٠٤، نحو ١٪، قد جعل الاستثمارات الأجنبية وضمنها الاستثمارات العربية فى الودائع المصرفية الدولارية فى الولايات المتحدة، غير مجزية اقتصاديا، وتستحق الانسحاب منها بالفعل. وقد تراجع سعر صرف الدولار الأمريكى من نحو ١.١١ يورو فى يناير ٢٠٠٢، إلى نحو ٠.٩٥ يورو فى يناير ٢٠٠٣، قبل أن ينحدر إلى نحو ٠.٨٢ فى شهر أغسطس من العام الحالى.

وقد تعرض المستثمرون العرب فى الأسهم الأمريكية بالذات لخسائر كبيرة بسبب تباطؤ الاقتصاد الأمريكى وتخبطه وانفجار قضايا الفساد الأمريكى الذى فاق أكثر التوقعات تشاؤما. وكان من الطبيعى أن تنسحب بعض الاستثمارات الأجنبية الموجودة فى الولايات المتحدة وضمنها بعض الاستثمارات العربية، هربا من بورصة متخبطة وتعيش واحدة من أسوأ لحظاتها بسبب الفساد الذى يسيطر على إدارات بعض شركاتها الكبرى.

وعلى ضوء كل هذه التطورات حدثت بعض عمليات السحب للأموال العربية من الولايات المتحدة، فضلا عن تراجع التدفقات الاستثمارية العربية الجديدة إلى الولايات المتحدة بما ساهم فى تخفيض تدفقات الاستثمارات الأجنبية المباشرة إليها من نحو ٣١٤ مليار دولار عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١٤٤ مليار دولار عام ٢٠٠١، إلى نحو ٣٠ مليار دولار فقط فى عام ٢٠٠٢ (راجع: United Nations conference on Trade and Development, World Investment Report 2003, p. ٢٤٩).

وتفاوتت التقديرات بشأن حجم الأموال العربية المسحوبة من الولايات المتحدة، حيث أشارت صحيفة الفاينانشيال تايمز البريطانية المتخصصة فى الاقتصاد والمال فى شهر أغسطس من عام ٢٠٠٢، إلى أن ما يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ مليار دولار من الأموال العربية قد تم سحبها من الولايات المتحدة منذ أحداث ١١ سبتمبر. وفى نوفمبر من نفس العام أشارت صحيفة فرنسية أسبوعية هى «لو جورنال دو ديمانش» إلى أن ما يزيد على ٤٠٠ مليار دولار من الأموال السعودية والخليجية المستثمرة فى الولايات المتحدة قد سحبت منها بسبب المخاوف من قيام إدارة بوش بإصدار قانون جديد يزيد من صعوبة سحب الأموال العربية من الولايات المتحدة الأمريكية ويجمدها لحين الانتهاء من التحقيقات الخاصة بشبكة القاعدة ومصادر تمويلها. وكان قرار الإدارة الأمريكية بتجميد أموال ١٥٠ من رجال الأعمال العرب منذ أحداث ١١ سبتمبر قد أثار الهلع بين الكثيرين من رجال الأعمال العرب بصفة عامة، وأعطى انطباعا لكل الدول والمستثمرين عما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة إذا حاولت الأموال الأجنبية المتوطنة فيها أن تخرج منها.

وهذا يعنى أن الإمبراطورية الأمريكية المهيمنة عالميا والتى تعد أثقل الدول مديونية، لديها القدرة على التحكم فى الدائنين لها، وليس العكس، وذلك لأن مديونيتها الخارجية تعود إلى دول وأشخاص دخلوا للسوق الأمريكية وفقا للقوانين الداخلية التى تعمل بها والتى يمكن أن تغيرها واشنطن عند الضرورة لعرقلة نزوح هذه الأموال، فى حين أن الديون العادية للدول المدينة

الدولار باختصار، عملة لها نفوذ وهيمنة دولية وتستند فى مكانتها كعملة احتياط دولية إلى الوضع الذى حازته منذ الحرب العالمية الثانية والذى تأسس واستقر على دعائم القوة العسكرية والهيمنة السياسية للولايات المتحدة على الصعيد العالمى



العادية مثل البرازيل والمكسيك وروسيا والصين والجزائر وتركيا ومصر، تترسب عن قروض حصلت عليها هذه الدول بشروط اقتصادية وسياسية فى إطار اتفاقات دولية بينها وبين الدول أو المؤسسات التى قدمت إليها هذه القروض، ولابد من الالتزام بآجال سدادها وبالفوائد المتفق عليها، وإلا اعتبرت الدولة فى حالة عجز مالى أو حتى إفلاس إذا توقفت عن الوفاء بالتزاماتها الدولية، وعندها تضطر للخضوع لبرنامج اقتصادى يعده صندوق النقد الدولى كوكيل للدول الدائنة، مقابل إعادة جدولة ديونها.

ثالثا: الدولار.. عملة نهب العالم:

حظى الدولار بوضعه كعملة احتياط دولية منذ الحرب العالمية الثانية، نتيجة خروج الاقتصاد الأمريكى من تلك الحرب وهو أقوى وأكبر اقتصاد فى العالم حيث كان ناتجه المحلى الإجمالى يشكل قرابة ٤٥٪ من الناتج العالمى آنذاك. وقد استمر هذا الوضع بقوة الدفع الذاتى وبحفاظ الولايات المتحدة على قيادتها السياسية والعسكرية للغرب أثناء الحرب الباردة رغم تراجع حصة ناتجها المحلى الإجمالى من الناتج العالمى إلى نحو ثلثه عام ١٩٦٥، ثم إلى نحو ٢٨٪ منه عام ١٩٩٠. وبعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى السابق وما ترتب على ذلك من انفراد الولايات المتحدة بموقع القوة الأعظم منذ ذلك الحين وحتى الآن، استمر الدولار محافظا على وضعه كعملة الاحتياط الدولية الرئيسية رغم تراجع حصة الناتج الأمريكى من الناتج العالمى إلى ما يزيد قليلا على خمس الناتج العالمى عام ١٩٩٥، وعزز الدولار مكانته عام ٢٠٠٠ بعد دورة طويلة وقوية من النمو وبالذات فى المجمع الصناعى العسكرى الذى تعزز بقوة بسبب صفقات الأسلحة الضخمة التى باعتها الولايات المتحدة للدول العربية الخليجية بعد حرب الخليج الثانية، والتى لم تكن تلبى حاجة حقيقية لتلك الدول، بقدر ما تعد «ضريبة حماية» مدفوعة للمجمع الصناعى العسكرى الأمريكى، وهى فى النهاية أسلحة تتقادم وتتقادم فى مخازنها بلا جدوى، بما يجعل المدفوعات المتعلقة بشرائها، هدرا حقيقيا للأموال العربية، لمصلحة المجمع الصناعى العسكرى الأمريكى كنوع من الإذعان من بعض الحكومات الخليجية لمطالب هذا المجمع، فى مقابل الحماية التى تسبغها الولايات المتحدة على هذه الحكومات. وقد أدت دورة النمو القوية للاقتصاد الأمريكى فى عهد كلينتون إلى رفع حصة الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى من الناتج العالمى.

والدولار باختصار، عملة لها نفوذ وهيمنة دولية وتستند فى مكانتها كعملة احتياط دولية إلى الوضع الذى حازته منذ الحرب العالمية الثانية والذى تأسس واستقر على دعائم القوة العسكرية والهيمنة السياسية للولايات المتحدة على الصعيد العالمى، فضلا عن ضخامة الاقتصاد الأمريكى وموقعه القيادى العالمى الذى تراجع بشكل متواصل حتى منتصف تسعينيات القرن الماضى، لكنه ظل حتى فى ذروة تراجعه، يحتل موقع القيادة فى الحجم والتطور التكنولوجى عالميا، قبل أن يحقق صعودا قويا لحصته من الناتج العالمى، فى الفترة الثانية للرئيس السابق بيل كلينتون، قبل أن يبدأ رحلة التراجع مع انتخاب الرئيس الأمريكى الحالى جورج بوش الابن الذى يتبع سياسات اقتصادية يمينية متطرفة من الصعب أن تؤدى إلى إنعاش الاقتصاد الأمريكى الذى يراوح على حافة الركود، والذى تعتمد الإدارة الأمريكية اليمينية المتطرفة فى محاولة إنعاشه، على خلق طلب خارجى على منتجاته العسكرية عبر إثارة الاضطرابات والحروب، من حرب الخليج الثانية، إلى حرب البلقان، إلى حرب أفغانستان، وأخيرا الغزو الاستعمارى للعراق واحتلاله، وتعتمد فى خلق طلب خارجى على السلع والخدمات المدنية الأمريكية، على استخدام نفوذها السياسى وبرنامج مساعداتها المالية، وأحيانا من خلال الضغط بقوتها العسكرية واستخدامها بشكل مباشر وعنيف كما هو الحال فى العراق، بغرض فتح قطاع النفط فى ذلك البلد العربى الكبير أمام الشركات الأمريكية، وفتح أعمال كبرى للشركات الأمريكية فى عمليات إعادة إعمار ذلك البلد، لو استقر الحكم الاستعمارى الأمريكى فى العراق.

ولأن الولايات المتحدة تدرك الوضع الخاص لعملتها كعملة احتياط دولية فإنها استغلتها لتحقيق مصالحها على حساب العالم. أما كيف تم ذلك، والبلدان التى أضيرت منه، واحتمالات تغيير هذا الوضع، وكيف ستواجه الولايات المتحدة مثل هذا التغيير فهذا ما سنحاول تناوله. لكن قبل الدخول فى تفاصيل هذه القضية لابد من الإشارة أولا إلى طبيعة الوضع الذى يتمتع به الدولار كعملة احتياط دولية فى الوقت الراهن.

١. آلة التفوق الأمريكية:

تشير بيانات صندوق النقد الدولى (Annual Report 2003, p.99)، إلى أن حصة الدولار الاحتياطيات الدولية من العملات الحرة لكل دول العالم قد بلغت نحو ٨. ٦٤٪ عام ٢٠٠٢، مقارنة بنحو ٦. ١٤٪ لليورو الأوروبى، ونحو ٥. ٤٪ للين اليابانى، ونحو ٤٠. ٤٪ للجنيه الاسترلينى فى العام نفسه. وكانت تلك الحصص قد بلغت فى عام ٢٠٠١، نحو ٧. ٦٧٪، ٢. ١٣٪، ٩. ٤٪، ٤٪ للعملات المذكورة بالترتيب. كما تشير بيانات البنك الدولى فى تقريره السنوى (Global Development Finance2004)، إلى أن حصة الدولار من الديون طويلة الأجل للدول النامية قد بلغت ٩. ٦١٪ عام ٢٠٠٢، مقارنة بنحو ٣. ١٥٪ لليورو، ونحو ٨. ١٠٪ للين اليابانى. وهو ما يشير إلى تمتع الدولار بوضع مهيمن على الاحتياطيات الدولية من العملات الحرة، وعلى حركة الإقراض الدولية. وهذه الوضعية المهيمنة للدولار الأمريكى تعطى الولايات المتحدة فرصة استثنائية لتحديد حركة الإصدار النقدى من الدولار، بناء على حركة الاقتصاد العالمى فى مجمله وحركة التجارة الدولية فى السلع والخدمات، وليس بناء على نمو الاقتصاد الأمريكى البطىء أو التجارة الخارجية الأمريكية فى السلع والخدمات. لكن كيف حصل الدولار الأمريكى على مكانته المهيمنة وكيف وظفتها واشنطن فى الواقع لاستغلال العالم بأسره ونهب موارده بدون طلقة واحدة؟

٢. النزح الأمريكى لموارد العالم

لم تكن الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها بشكل نهائى فى عام ١٩٤٤، لكنها كانت قد حسمت وبدا من هو المنتصر ومن هو المهزوم. وضمن قافلة المنتصرين، كانت الولايات المتحدة التى دارت الحرب بعيدا عن أراضيها، قد حققت نموا اقتصاديا مذهلا بينما كانت اقتصادات القارة الأوروبية بشرقها وغربها بمنتصريها ومهزوميها، تعانى من دمار مروع. وفى هذه الأجواء عقدت اتفاقيتى بريتون وودز لتأسيس صندوق النقد والبنك الدوليين. وكانت آية الانتصار الأمريكى هى إقرار الدولار كعملة احتياط دولية مرتبطة بالذهب الذى كانت الولايات المتحدة قد كدست كميات هائلة منه، وجاء ذلك بشكل صريح فى ميثاق صندوق النقد الدولى الذى نص على أن القيمة التبادلية لعملة أى دولة عضو بالصندوق سيعبر عنها بالذهب أو بالدولار الأمريكى، علما بأن الولايات المتحدة التزمت بقابلية عملتها للتحويل إلى ذهب بسعر ثابت كان يبلغ ٣٥ دولارا للأوقية (الأونصة).

وخلال الفترة من تأسيس صندوق النقد



رغم تحول الولايات المتحدة لتحقيق فائض فى الموازنة العامة للدولة بلغ ٥٥٨ مليار دولار فى الفترة من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠١، إلا أن العجز فى الموازنة العامة قد عاد بقوة منذ عام ٢٠٠٢، ليبلغ نحو ٦٤٦٩,٥ مليار دولار

"الدائن والمدين"

الدولى عام ١٩٤٤ وحتى عام ١٩٧٠، كانت الولايات المتحدة تحقق فائضا مستمرا فى ميزانها التجارى وفى ميزان الحساب الجارى، وبالتالى كانت قادرة على الوفاء بالتزامها بتحويل الدولار إلى ذهب، ولم تستخدم وضعية عملتها كعملة احتياط دولية بشكل سيئ ومنظم للإثراء على حساب العالم أو لنهب موارده. لكن فى عام ١٩٧١، تعرضت الولايات المتحدة لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، لعجز فى ميزانها التجارى وفى ميزان الحساب الجارى. وبدلا من أن تحاول إصلاح هذا العجز حتى تفى بمتطلبات استمرار عملتها كعملة احتياط دولية، فإنها أعلنت إلغاء قابلية تحويل الدولار إلى ذهب فى ١٥ أغسطس ١٩٧١، واتفقت الدول العشر الكبرى المهيمنة على صندوق النقد الدولى (الولايات المتحدة، ألمانيا، اليابان، فرنسا، إيطاليا، بريطانيا، السويد، بلجيكا، كندا، هولندا)، على توسيع هامش تذبذب العملات من ١٪ إلى ٢.٢٥٪، لكن ذلك لم يوقف تدهور الدولار مقابل الذهب حيث بلغ فى عام ١٩٧٣ نحو ١٠٠ دولار للأوقية، مما دفع البلدان الصناعية الكبرى إلى تعويم عملاتها، وبدأت مرحلة أمريكية من سوء استغلال وضع الدولار كعملة احتياط دولية، لتمويل جانب من العجز فى ميزان الادخار والاستثمار، وفى الموازنة العامة للدولة، وفى ميزان الحساب الجارى للولايات المتحدة من خلال إصدار أوراق نقدية أمريكية وإطلاقها إلى أسواق العالم مقابل سلع وخدمات تنتجها مختلف بلدان العالم، وهو الوضع المستمر حتى الآن.

وبالنسبة لتوظيف الولايات المتحدة لوضع عملتها كعملة احتياط دولية فى سد الفجوة بين الادخار المحلى المحدود والاستثمارات المحلية الأكبر منه كثيرا، فإنه كان أقدم أشكال التوظيف وأقربها للتلقائية، حيث أن وجود الدولار كعملة مهيمنة فى سلة احتياطيات العملات الحرة لدى الدول والشركات والمستثمرين فى كل أنحاء العالم، يضع السوق الأمريكية فى مقدمة الأسواق التى يمكن أن تفكر الدول أو الشركات أو المستثمرين من مختلف البلدان فى استثمار الأموال المتاحة لديها للاستثمار الخارجى. ولذلك كان معدل الاستثمار فى الولايات المتحدة أعلى كثيرا من معدل الادخار لديها دون أن تضطر للاقتراض المباشر، حيث كانت الاستثمارات الأجنبية تتولى سد تلك الفجوة.

ووفقا لبيانات صندوق النقد الدولى (IMF, World Economic Outlook, April 2004, p257)، بلغ متوسط معدل الادخار الأمريكى نحو ١٧.٩٪ من الناتج المحلى الإجمالى خلال الفترة من عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٩٠، فى حين كان متوسط معدل الاستثمار السنوى فى الفترة نفسها، نحو ٢٠.٣٪ من الناتج المحلى. كما بلغ متوسط معدل الادخار نحو ١٥.٩٪ خلال الفترة من عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٧، فى حين كان معدل الاستثمار الأمريكى فى الفترة نفسها، نحو ١٨.٣٪ من الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى. وخلال الفترة من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠٣، بلغ المتوسط السنوى لمعدل الادخار الأمريكى نحو ١٦.٤٪ من الناتج المحلى الإجمالى، فى حين بلغ المتوسط السنوى لمعدل الاستثمار فى الولايات المتحدة نحو ١٩.٦٪ من الناتج المحلى الإجمالى خلال الفترة نفسها (راجع جدول ٢). ولإدراك حجم الأموال المطلوبة لسد الفجوة بين الادخار والاستثمار فى الولايات المتحدة، يكفى أن نذكر أن هذه الفجوة قد بلغت ٣.٧٪ من الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى الذى بلغ نحو ١٠٢٠٧ مليار دولار فى عام ٢٠٠٢، بما يعنى أن قيمة الفجوة بلغت نحو ٣٧٧.٧ مليار دولار فى العام المذكور وحده.

انظر جدول رقم «٢»

وطوال الوقت كانت الدول والشركات والمستثمرون الأجانب يتولون سد الفجوة بين معدل الادخار المنخفض ومعدل الاستثمار الأعلى فى الولايات المتحدة ليساهموا بذلك فى زيادة الأصول الإنتاجية وتعظيم جبروت الاقتصاد الأمريكى وتحقيق النمو الاقتصادى والثراء لتلك الدولة. وكان وضع الدولار كعملة احتياط دولية مملوكة لأقوى دولة فى العالم، عاملا مهما فى توجه الاستثمارات الدولية إلى الولايات المتحدة.

أما بالنسبة لاستخدام وضع الدولار كعملة احتياط دولية فى سد عجز الموازنة الأمريكية، فإن الحكومة الأمريكية وبالذات منذ عهد الرئيس الأسبق رونالد ريجان، قد عمدت إلى الإفراط فى الإصدار النقدى لتمويل الإنفاق العام، أو ما يشبه التمويل بالعجز فى البلدان النامية، معتمدة على أن الطلب على الدولار لا يتحدد فى السوق الأمريكية فقط، بل إن هناك طلبا دوليا عليه يتوسع باطراد مع زيادة حجم التجارة الدولية فى السلع والخدمات التى يشكل الدولار العملة الرئيسية فى تسوية مدفوعاتها. وبالتالى فإن توسعها فى الإصدار النقدى بدون مبررات اقتصادية أمريكية حقيقية لا يؤدى إلى اضطراب نقدى أو إلى زيادة التضخم بدرجة كبيرة، طالما أنه تتم تغطيته بطلب عالمى فى ظل توسع التجارة الدولية فى السلع والخدمات، ولذلك فإن أى تراجع فى التجارة الدولية فى السلع والخدمات لابد أن يضغط على سعر الدولار بشدة، مثلما حدث بعد انخفاض قيمة التجارة الدولية فى السلع والخدمات بمقدار ٢٧٩ مليار دولار أو بنسبة ٣.٦٪ فى عام ٢٠٠١ مقارنة بمستواها عام ٢٠٠٠، وذلك على ضوء آثار أحداث ١١ سبتمبر وكل تداعياتها.

وقد بلغ المجموع التراكمى لعجز الموازنة العامة للدولة فى الولايات المتحدة والذى لم ينقطع منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٩٧، نحو ٣٤٠٠ مليار دولار، منها نحو ٢٤٠١ مليار دولار خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٩١ حسب بيانات صندوق النقد الدولى (International Financial Statistics Yearbook). وهذا العجز الضخم، يعنى أنه كان على الحكومة الأمريكية أن تقترض من الداخل والخارج لمواجهته، لكنها واعتمادا على وضع عملتها كعملة احتياط دولية طرحت سندات وتم بيع جانب مهم منها للأجانب، بما مكنها من تغطية هذا العجز.

ورغم تحول الولايات المتحدة لتحقيق فائض فى الموازنة العامة للدولة بلغ ٥٥٨ مليار دولار فى الفترة من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠١، إلا أن العجز فى الموازنة العامة للدولة الأمريكية قد عاد بقوة منذ عام ٢٠٠٢، حيث بلغ نحو ٤.٦٪ من الناتج المحلى الإجمالى الأمريكى فى عام ٢٠٠٢، أى نحو ٤٦٩.٥ مليار دولار بسبب التزايد فى الإنفاق العسكرى والأمنى أساساً، على ضوء الهستيريا الأمنية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما تزايد العجز بصورة أكبر فى عام ٢٠٠٣، على ضوء المغامرات العسكرية العدوانية ضد الدول الأخرى وبالذات فى العراق وأفغانستان.

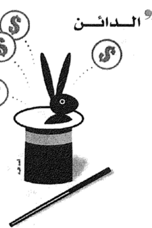
ولعل النموذج الذى ضربته الولايات المتحدة خلال مواجهتها للآثار الاقتصادية السلبية لأحداث ١١ سبتمبر، هى خير دليل على سوء استغلال هذه الدولة لوضع عملتها كعملة احتياط دولية، فبعد وقوع تلك الأحداث مباشرة، قام بنك الاحتياط الفيدرالى الأمريكى (البنك المركزى الأمريكى)، بإضافة سيولة نقدية قدرها ٨١.٢٥ مليار دولار لتمويل مواجهة الأزمة. ولأن هذا الإصدار النقدى ليس له غطاء من الإنتاج أو المعادن النفيسة، فإنه يعنى تحميل الاقتصاد العالمى بجانب كبير من العبء الاقتصادى الأمريكى الناجم عن أحداث ١١ سبتمبر، عوضا عن أن تتحمل الولايات المتحدة أعباءها بنفسها. وهذا الإجراء هو صورة من ريع الوضع المهيمن للدولار فى سلة عملات الاحتياط الدولية.

أما العجز التجارى الأمريكى المتراكم خلال الفترة من ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠٣ فقد بلغ ٤٥٦٤ مليار دولار، وهو عجز لم يستطع فائض تجارة الخدمات الأمريكية أن يعوضه، فظهر عجز فى

بعد أن أصبحت الولايات المتحدة تعانى من عجز مزدوج فى الميزان التجارى وميزان الحساب الجارى، وبعد عودة العجز الكبير فى الموازنة العامة للدولة، فإنها أضحت أكثر حاجة إلى التشبث بوضع الدولار كعملة احتياط دولية



"الـدائــن والمـديــن"



ميزان الحساب الجارى الأمريكى فى الفترة نفسها، بلغ نحو ٣٩٤٥ مليار دولار. وهذا العجز الهائل يعنى أنه كان على الولايات المتحدة أن تحصل على قروض خارجية بنفس القيمة لسد هذا العجز، لكنها اعتمدت على تدفق الأموال الأجنبية إليها فى ظل حقيقة أن عملتها هى عملة الاحتياط الدولية الرئيسية، كما اعتمدت أيضا على التوسع فى الإصدار النقدى بالتوازى مع تزايد الناتج العالمى والتجارة الدولية، وليس بالتوازى مع تزايد الناتج الأمريكى كما هو مفترض بالنسبة للدول العادية.

وخلاصة ما سبق، هى أن الاقتصاد الأمريكى استغل وضع الدولار كعملة الاحتياط الدولية الرئيسية لتحقيق جانب مهم من نموه ومن معالجة اختلالاته الداخلية والخارجية، ومن رفع مستويات معيشة مواطنيه الذين يتمتعون بأعلى مستوى معيشى حقيقى فى العالم دون وجه حق كما أوردنا آنفا، وهو وضع لن يتغير إلا عندما تتراجع المكانة المهيمنة للدولار الأمريكى لصالح العملات الحرة الرئيسية الأخرى مثل اليورو والين الياباني، وربما اليوان الصينى فى مرحلة قادمة على ضوء الصعود الصاعق للاقتصاد الصينى الذى يتقدم بالفعل للمنافسة على عرش الاقتصاد العالمى.

لكن الولايات المتحدة التى تمتعت طويلا بمزايا كون عملتها هى عملة الاحتياط الدولية الرئيسية، لن تستسلم لهذه التغيرات بسهولة. ولا يمكن للعالم أن ينسى العبث الذى قام به الأمريكيون وعلى رأسهم المضارب الأكثر شهرة، جورج سورس فى أسواق العملات الأوروبية فى عام ١٩٩٢، عندما كانت أوروبا تتهيأ لبدء السوق الموحدة وتتقدم باتجاه العملة الموحدة الحقيقية وليست الحسابية. وقد أدت المضاربات الأمريكية المدمرة فى أسواق العملات الأوروبية إلى أكبر اضطراب نقدى تشهده القارة الأوروبية مما أدى لاضطراب آلية أسعار الصرف الأوروبية وخروج الاسترليني والبيزيتا الإسبانية والليرة الإيطالية منها فى سبتمبر عام ١٩٩٢. وقد عادت الليرة والبيزيتا إلى آلية أسعار الصرف الأوروبية ودخلتا فى العملة الموحدة اليورو، بينما خرج الاسترلينى ولم يعد حتى الآن مما أفقد العملة الأوروبية الموحدة ثانى أهم عملة أوروبية بعد المارك الألمانى.

وفى الوقت الراهن وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة تعانى من عجز مزدوج فى الميزان التجارى وميزان الحساب الجارى، وبعد عودة العجز الكبير فى الموازنة العامة للدولة، فإنها أضحت أكثر حاجة إلى التشبث بوضع الدولار كعملة احتياط دولية من أجل توظيف هذا الوضع فى معالجة كل أنماط العجز فى موازينها الداخلية والخارجية.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد حققت جانبا مهما من ثرائها من خلال توظيف وضع الدولار كعملة احتياط دولية من أجل الحصول على السلع والخدمات من مختلف بلدان العالم مقابل «أوراق» نقدية أمريكية ليس لها أى غطاء إنتاجى محلى، فإن الولايات المتحدة تدرك قبل أى طرف آخر أنها ليست وحدها على الساحة النقدية الدولية، حيث إن القوى الاقتصادية العملاقة المتحققة حاليا مثل أوروبا واليابان، والقوى الصاعدة بقوة فى آسيا وعلى رأسها الصين سوف تعمل بقوة ثقلها الاقتصادى الصاعد على إعادة تشكيل صورة الاقتصاد العالمى وأوضاع العملات الرئيسية فيه. وخلال العقد الثانى من القرن الحالى ستبدأ المعادلة التى تحكم العلاقات التبادلية بين العملات الحرة الرئيسية فى التغير القوى الذى لن يكون فى مصلحة الدولار الأمريكى على الأرجح.

لكن الدول النامية التى يتدفق منها الجانب الأكبر من الأموال التى تذهب للولايات المتحدة وللدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة والغنية الأخرى، والتى تصر أيضا على جعل العملات الحرة لهذه الدول الكبرى هى العملات التى تسوى بها تعاملاتها الاقتصادية الدولية، مدعوة لعمل جماعى وقوى من أجل إصلاح أنظمتها الاقتصادية الداخلية المفعمة بالفساد فى الكثير من الأحيان، وإلى بناء نظم اقتصادية تتوفر فيها الحرية والعدالة والقدرة على مكافحة الفساد من خلال نظام ديموقراطى كامل يتيح رقابة شعبية فعالة، وذلك لحفز المستثمرين من أبنائها على إبقاء أموالهم فى بلدانهم، ومدعوة أيضا للعمل الدءوب من أجل تغيير نظام التسويات الدولية الذى يعتمد على العملات الحرة الرئيسية، وذلك من خلال توسيع نطاق استخدام العملات المحلية والإقليمية الحرة أو التى تتمتع بمعدلات تحويل ثابتة فى التعاملات الخارجية على غرار ما فعلته دول شرق وجنوب شرق آسيا بعد أزماتها المالية والاقتصادية فى عام ١٩٩٧، وذلك بدلا من الوضع الراهن الذى يسمح للولايات المتحدة الأمريكية ولبعض الدول الغربية بالإثراء على حساب العالم بدون أى وجه حق من خلال إصدار «أوراق نقدية» بدون أى غطاء داخلى، والحصول فى مقابلها على السلع والخدمات من كل بلدان العالم، بما يحقق للولايات المتحدة والدول الكبرى ثراء هائلا ينهض أساس على نهب باقى دول العالم. ■

جدول ١

مديونية أو دائنية الدول الكبرى وهيكلها

القيمة بالمليار دولار

	الولايات المتحدة	اليابان	ألمانيا	فرنسا	بريطانيا	إيطاليا	كندا	منطقة اليورو
إجمالى الأصول	٦٨٦٢.٩	٣٠٥٢.١	٢٦٦٨.٨	٢٦٧٨.٤	٥١٩٠	١٠٦٦.١	٥٦٨	٦٥٧٣.٥
منها: استثمارات خارجية مباشرة	٢٢٨٩.٩	٣٠٤.٢	٥٠٥.٣	٨٧٣.٧	١٠٠٨.٦	١٨٢.٤	٢٤٤.٥	١٦٣٩.١
استثمارات الحافظة بالخارج	٢١١٠.٥	١٣٩٤.٥	١٠٠٤.٦	٨٦٥.٩	١٣٩٥.٣	٥٥٢	١٤٥.٢	٢٢٠٣
ودائع مصرفية بالخارج	١٤١٦.٨	٤٨٦.٧	٧٦٨.٩	٥٣٨.٥	١٨٩١.٥	١١٩.١	٦٨.١	١٥١٥.٤
الديون الإجمالية	٩١٢٧.١	١٥٨٩.٩	٢٥٦٦.٧	٢٤٨٧.٢	٥٢٣١	١٠٤٧.٦	٦٩٥.٧	٦٧٠٨.١
منها: استثمارات أجنبية مباشرة بالدولة	٢٥٢٦.٧	٧٨.١	٤٤٧.٦	٥٤٧.٥	٦٤٠.٨	١٠٧.٩	٢٠١.٥	١١٧١.٤
استثمارات أجنبية فى الحافظة	٤١٣٢.٢	٦١٠.٤	١٠٣٦.٦	١٠٢١.٦	١٤٨٢.٨	٥٦١	٣٣١	٢٨٠٤.٧
ودائع مصرفية أجنبية بالدولة	١٤٢١.٣	٦٣١.١	٨٦٣	٦٥٦.٧	٢٣٢٢.١	٢٦٠.٨	١١٨.٥	٢١٢١.٦
صافى المديونية أو الدائنية	٢٢٦٤.٢-	١٤٦٢.٢+	١٠٢.١ +	١٩١+	٤١-	١٨.٥+	١٢٧.٧-	١٣٤.٦-
نصيب الفرد من المديونية أو الدائنية	٧٨٥٠.٦-	١١٤٩٥.٣+	١٣٣٧.٦+	٣٢١٠.١+	٦٩٢.٦-	٣٢٠.٦+	٤٠٦٧-	٣٥٤-

المرجع: جمعت وحسبت من: IMF, International Financial Statistics Yearbook 2003, p. 211, 287, 296, 307, 356, 363, 598, & 601

جدول ٢

الادخار والاستثمار والفجوة بينهما فى الولايات المتحدة

	المتوسط السنوى خلال الفترة ١٩٨٢ـ ١٩٨٩	المتوسط السنوى خلال الفترة ١٩٩٠ـ ١٩٩٧	المتوسط السنوى خلال الفترة ١٩٩٨ـ ٢٠٠٣	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣
الادخار كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى	٪١٧.٩	٪١٥.٩	٪١٦.٤	٪١٨.٣	٪١٨.١	٪١٨	٪١٦.٤	٪١٤.٧	٪١٣
الاستثمار كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى	٪٢٠.٣	٪١٨.٣	٪١٩.٦	٪٢٠.٣	٪٢٠.٦	٪٢٠.٨	٪١٩.١	٪١٨.٤	٪١٨.٤
الفجوة بين الاستثمار والادخار (كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى)	- ٪٢.٤	- ٪٢.٤	- ٪٣.٢	- ٪٢	- ٪٢.٥	- ٪٢.٨	- ٪٢.٧	- ٪٣.٧	- ٪٥.٤

المرجع: جمعت وحسبت من: IMF, World Economic Outlook, April 2004, p257.

الجامعات فى عصر



معتز خورشيد

قبل أربعة أشهر ناقشت «وجهات نظر» موضوع التعليم الجامعى فى مقال للدكتور صبرى حافظ لفت انتباه الكثيرين، وفى العدد الماضى كتب دكتور نبيل على عن الشكل الجديد لاستنزاف العقول العربية.

وهنا دراسة ذات صلة بالمقالين تتناول معطيات الوضع الراهن لقطاع التعليم العالى، واتجاهات التغيير المتوقعة خلال الربع الأول من الألفية الثالثة، ثم تناقش بشىء من التفصيل التوجه الحالى لتحرير تجارة الخدمات التعليمية من خلال اتفاقيات الجات. وتتعرض فى النهاية لأزمة التعليم العالى فى الدول النامية واستراتيجيات التطوير المقترحة.

اتسمت حقبة التسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة بخصائص غير مسبوقة ستؤثر بشكل كبير فى برامج التعليم العالى، ونظمها وآليات عملها. ويمكن تجميع هذه الخصائص ـ بشكل عام ـ فى النقاط الرئيسية التالية:

١. تنامى دور العلم والمعرفة بالشكل الذى أسهم فى ربط استدامة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بمدى نجاح الدول النامية فى تحقيق مستويات عالية من «التقدم العلمى والتطوير التقنى». وقد ساهم ذلك فى ظهور الأنشطة الاقتصادية ذات القيمة المضافة العالية «High Value Added Activities»، التى يمثل بها جانب العلم والمعرفة عنصراً أساسياً من عناصر الإنتاج الرئيسية، إلى جانب العمل، ورأس المال.

٢. التطور غير المسبوق فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وتعاظم تأثيراته فى طرق التعلم والتدريب والبحث العلمى من ناحية، والأنشطة الاقتصادية والمجتمعية، من ناحية أخرى.

٣. التأثيرات المتزايدة لظاهرة العولمة ـ بما تمثله من حرية تدفق التكنولوجيا، والاقتصاد، والمعرفة، والأفراد، والقيم، والأفكار عبر الحدود ـ واتساع نطاق اتفاقيات التجارة الدولية لتشمل الخدمات التعليمية، مما أدى إلى سرعة التوجه نحو تدويل نظم التعليم العالى من ناحية، وساهم فى تراجع دور الدولة فى صياغة سياساتها الوطنية فى مجال التعليم وتنمية الموارد البشرية، من ناحية أخرى.

٤. اتساع نطاق التوجه التنموى نحو الخصخصة، وإعادة صياغة دور الدولة فى النشاط الاقتصادى، وانعكاس هذا التوجه على نظم التعليم العالى وهياكله الأكاديمية.

وقد ساهمت هذه الخصائص ـ غير المألوفة سابقاً ـ فى التوسع الكمى فى أعداد الطلاب والمؤسسات التعليمية بوجه عام، والتباين فى الهياكل المؤسسية للتعليم العالى وبرامجها الأكاديمية على وجه الخصوص. ويمكن تلخيص السمات الجديدة لنظم التعليم العالى ـ فى الألفية الثالثة ـ على النحو التالى:

❖ تنامى ملحوظ فى معدلات الطلب على خدمات التعليم العالى، وتزايد الضغوط على مؤسسات التعليم العالى الوطنية لإعداد خريجيها للعمل فى إطار دولى يتواءم مع قواعد العولمة ومجتمع المعرفة.

❖ ظهور مقدمين جدد للخدمات التعليمية، مثل الشركات الخاصة فى مجال التعليم، والمؤسسات متعددة الجنسيات التى تقدم فرص التعليم العالى عبر الحدود.

❖ ظهور أشكال وتقنيات جديدة متطورة لتقديم الخدمات التعليمية والتدريبية، مثل التعليم الإلكترونى، والتعليم من بعد، والجامعات الافتراضية.

❖ تزايد الحراك الأكاديمى للطلاب، والأساتذة، والبرامج التعليمية عبر الحدود. مما ساهم فى خلق مناخ تنافسى أكثر انفتاحا على المستوى العالمى وحدوث تغيرات هيكلية فى أسواق العمل وأساليب البحث العلمى.

❖ تنامى الحاجة إلى وجود أنماط وبرامج للتعليم المستمر، مثل التعليم المفتوح، وتعليم الكبار، والتعليم مدى الحياة.

❖ تزايد الضغوط على مؤسسات التعليم العالى لتنويع مصادر التمويل المتاحة بفعل تراجع قدرة القطاع العام على تمويل الاستثمارات اللازمة لتحقيق النقلة النوعية المرغوبة فى التعليم العالى، مما قد يُغذى ـ بشكل عام ـ التوجه إلى التعامل مع مؤسسات التعليم العالى كوحدات تجارية، أو اعتبار خدمة التعليم العالى كسلعة تخضع لآليات وقواعد عمل الأسواق التجارية «Commercialization or Commodification of higher education».

❖ تنامى التوجه نحو العلوم البينية (interdisciplinary) والتطبيقات العلمية متعددة التخصصات، والتزاوج بين المجالات البحثية، وظهور العديد من العلوم المستقبلية، مما ساهم فى التنوع غير المسبوق فى الكفاءات والشهادات العلمية، وتعاظم الطلب على آليات متطورة وحديثة للاعتماد الأكاديمى وتوكيد الجودة.

❖ الاختلاف فى حجم الجامعات والمؤسسات التعليمية فيما يخص أعداد الطلاب والأساتذة والإمكانات المادية. والتباين فى الهيكل الأكاديمى للتخصصات العلمية ومستويات الدراسة.

❖ تزايد عدد الطلاب المنتسبين إلى الجامعات والذين يسعون للحصول على دراسات متخصصة لا تؤدى بالضرورة إلى الحصول على درجة علمية. كما تشير المؤشرات التعليمية إلى تزايد عدد الطلاب الذين يتوجهون إلى الدراسة بعد الحصول على بعض الخبرات العملية والمهنية (من خلال مراكز التعليم المفتوح)، وهو ما ساهم فى تنوع الهيكل العمرى لطلاب التعليم العالى والدراسات العليا.

❖ تنوع مصادر التمويل من خلال البحث فى إيجاد أساليب غير تقليدية للإنفاق على المتطلبات التدريسية والبحثية بنظم التعليم العالى. ويتم ذلك فى الجامعات المصرية ـ على سبيل المثال ـ من خلال البرامج البحثية المشتركة، وإنشاء وحدات ذات طابع خاص لتقديم خدمات تعليمية وبحثية لقطاعات المجتمع المدنى بمقابل مادى، والحصول على الدعم المالى من قطاع الأعمال الخاص.

ومما لا شك فيه، أن التغيرات السابقة فى نظم التعليم العالى وآلياتها ستتطلب من الدول النامية تبنى بدائل تعليمية متطورة، وعلى درجة عالية من الشفافية والكفاءة والقدرة على التواؤم مع المتغيرات العالمية. وبرغم أن هذه التغيرات ـ تجاه العولمة وتدويل الأنظمة التعليمية ـ كفيلة بأن توفر لبعض الدول فرصاً متاحة لتطوير نظمها التعليمية العليا، إلا أنها تتضمن ـ من ناحية أخرى ـ العديد من التحديات والمخاطر التى يتعين على الدول النامية مجابهتها. ويمكن تلخيص الفرص المتاحة أو المزايا المتوقعة من المناخ العالمى الجديد، فيما يلى:

١. تؤدى ثورة الاتصالات والمعلومات إلى سهولة وسرعة الحصول على البيانات والمعلومات بما يسهم فى دعم البحوث العلمية والارتقاء بمستويات الأداء على كافة المستويات.

٢. تسمح عملية تدويل أسواق العمل بسهولة الحصول على الخبرات والمهارات المهنية ليس فقط على المستوى الوطنى، ولكن أيضاً عبر الحدود والدول.

٣. تساهم التغيرات السياسية والاجتماعية والتوجه نحو نظم أكثر

«الجـــات».. ومستقبل التعليم العالى



ديمقراطية وشفافية إلى خلق مناخ أكثر ملاءمة لدعم جهود الإصلاح الوطنية.

كما يمكن حصر المخاطر المتوقعة من الانتقال إلى مجتمع العولمة فى النقاط التالية:

١. عدم ضمان مستوى جودة الخدمات التعليمية المقدمة من المؤسسات الخاصة - الهادفة إلى الربح - والمنظمات الأهلية، وعدم التأكد من شفافية وعدالة قواعد الالتحاق، من الممكن أن يؤدى إلى إزدواجية فى نظم التعليم العالى فيما يخص جودة العملية التعليمية، والإمكانات المتاحة للطلاب والدارسين.

٢. توقع تزايد الاستنزاف الطبيعى والافتراضى لعقول وكفاءات الدول النامية، وذوبان الخصائص الثقافية المميزة لهذه الدول بدعوى ضرورة تناغم وتجانس الثقافات فى مجتمع العولمة.

٣. احتمال حدوث نمو غير متزن بين التخصصات العلمية المطلوبة بإلحاح فى سوق العمل، مثل إدارة الأعمال وتكنولوجيا المعلومات من جهة، وبرامج العلوم الأساسية من جهة أخرى، مما قد يؤدى إلى حدوث اختلال فى تركيبة التخصصات العلمية بعرض قوة العمل.

٤. تناقص دور الدولة فى وضع الأهداف والسياسات الوطنية الأكثر ملاءمة لطبيعة سوق العمل الوطنى، ومتطلبات الحفاظ على الهوية الثقافية وتوجهات تطوير نظم التعليم العالى.

فى مصر..

وتُظهر بيانات نظام التعليم العالى بمصر - خلال حقبة التسعينيات وبداية الألفية الثالثة - توجه غير مسبوق نحو التنوع فى الهياكل التنظيمية والنظم الأكاديمية. ويمكن حصر هذا التنوع فى الأنماط الأكاديمية التالية:

١. الجامعات الحكومية التى تخضع لقانون تنظيم الجامعات.

٢. الجامعات الخاصة المصرية ومعاهد التعليم العالى الأهلية والخاصة التى تمنح درجات جامعية.

٣. الجامعات الأجنبية والمشتركة مثل الجامعات الألمانية والفرنسية والكندية والأمريكية.

٤. معاهد الدراسات العليا المتخصصة التابعة للجامعات الحكومية مثل معهد الدراسات والبحوث الإحصائية، ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية، ومعهد الدراسات والبحوث التربوية، والمعهد القومى لعلوم الليزر، والمعهد القومى للأورام.

٥. الأكاديميات العليا المتخصصة مثل أكاديمية السادات للعلوم الإدارية، والأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا.

٦. الكليات العسكرية التى تمنح درجات عليا مثل أكاديمية ناصر، والكلية الفنية العسكرية.

٧. أنماط أكاديمية أخرى مثل جامعة الأزهر، وجامعة سنجور بالإسكندرية، والمعاهد الفنية التابعة لأكاديمية الفنون.

كما انعكست التطورات التكنولوجية الحديثة فى مجال المعلومات والاتصالات فى ظهور أنماط تعليمية جديدة - ساهمت بدورها فى تنويع نظم التعليم العالى - مثل الجامعة المفتوحة (مركز التعليم المفتوح بجامعة القاهرة والجامعة العربية المفتوحة) والدرجات الجامعية المشتركة (بين الجامعات المصرية والأجنبية).

ويتعين التأكيد فى هذا المجال، أن تنوع نظم وبرامج التعليم العالى يمثل توجهاً مرغوباً يجب تشجيعه، شريطة ألا يؤثر هذا التوجه على جودة أداء المؤسسات التعليمية، وحق التقدم للدراسة من معظم شرائح السكان، والأهداف التنموية لمؤسسات التعليم العالى، ودرجة استقلالية الجامعات فى اتخاذ القرار.

التدويل:

ساهمت التغيرات الحديثة فى المناخ العالمى - من تنامى مجتمع العلم والمعرفة، وثورة الاتصالات والمعلومات، واتساع نطاق ظاهرة العولمة - فى دعم التوجه نحو تدويل التعليم العالى وإعادة النظر فى العلاقات التعليمية الدولية للجامعات.

حيث أكد المؤتمر الدولى للتعليم العالى - الذى عُقد بمنظمة اليونسكو فى عام ١٩٩٨ - أن كفاءة وجودة نظم التعليم تعتمد على نجاح مؤسسات التعليم العالى فى إضافة البُعد الدولى إلى أنشطتها من خلال ما يلى:

- التبادل العلمى والمعرفى عبر الدول.
- إنشاء اتحادات دولية وإقليمية لزيادة الارتباط بين مؤسسات التعليم العالى والجامعات عبر الحدود.
- حركة الأساتذة والطلاب عبر الدول.
- دعم البحوث المشتركة على المستوى الدولى.
- التوسع فى الشبكات الرقمية (أو الإلكترونية) التى تربط الأنشطة التعليمية والبحثية للجامعات على المستوى الدولى.

ومن هنا، أصبح «البُعد الدولى للجامعات»، أو قدرة مؤسسات التعليم العالى على تدويل أنشطتها، يمثل معياراً أساسياً لجودة نظم التعليم العالى.

كما ركز المؤتمر الدولى لليونسكو فى يونيو ٢٠٠٣، على اتجاهات تطوير التعليم العالى منذ عام ١٩٩٨ فيما يخص التوجه نحو التدويل. حيث حدد أن تدويل التعليم العالى يعنى أساساً إضفاء البُعد الدولى - أو بُعد متعدد الثقافات - على كافة النواحى التعليمية والبحثية بالجامعات. كما أكد المؤتمر على أن عملية التدويل لا تعنى فقط التوسع الجغرافى للنشاط الجامعى، ولكن أيضاً التحول الداخلى فى مؤسسات التعليم العالى للتفاعل مع توجهات التدويل. ومن هنا، فإنه يتعين على الجامعات صياغة توجه استراتيجى نحو التدويل ينبع من أهداف محددة، ويتضمن وسائل تحقيقه، ونظم لمتابعة تقدمه.

التجارة:

كان من الطبيعى - فى ظل تدويل أسواق الاقتصاد والمال واتساع نطاق التجارة الدولية من خلال اتفاقيات تحرير انتقال السلع والخدمات عبر الحدود الجغرافية للدول والأقاليم - أن تمتد هذه الاتفاقيات لتشمل قطاع التعليم العالى من خلال الاتفاقية العامة للتجارة فى الخدمات، أو باختصار اتفاقية الجاتس (General Agreement on Trades in Services-GATS). وتمثل الجاتس أول

تشير إحصائيات التعليم العالى- التى أعدتها منظمة اليونسكو- إلى تنامى عدد الطلاب المسجلين فى مرحلة التعليم العالى على المستوى العالمى من (٦٥) مليون طالب فى عام ١٩٩١ إلى (٧٩) مليون طالب فى عام ٢٠٠٠، ومن المتوقع أن يرتفع هذا العدد ليصل إلى (٩٧) مليون طالب فى عام ٢٠١٥، وما يقارب (١٠٠) مليون طالب فى عام ٢٠٢٥. ويتضح من مؤشرات التعليم العالى بمصر، أن أعداد الطلاب المقيدين بالجامعة قد ارتفع من (٥٢٠) ألف طالب فى عام ١٩٩٤/٩٣ إلى نحو (١,٢٤٠) ألف طالب فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٢، وبما يعادل معدل نمو كلى يصل إلى (١٣٩٪)، ومعدل نمو متوسط يقدر بنحو (١٥٪) سنوياً. كما تشير تقديرات المجلس الأعلى للجامعات إلى زيادة أعداد الطلاب المقيدين بمرحلة الدراسات العليا من (١٠٠) ألف طالب فى عام ١٩٩٤/٩٣ إلى ما يقارب (١٥٨) ألف طالب فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٢، بمعدل نمو يصل إلى (٢,٦٪) سنوياً فى المتوسط خلال نفس الفترة.



اتفاقية لتحرير التجارة تركز على قطاع الخدمات (النقل - التخزين - الخدمات المالية - الصحة - التعليم - ....إلخ). وهى تُدار من خلال منظمة التجارة الدولية (World Trade Organization- WTO) التى تضم نحو ١٤٤ دولة. وتهدف الجاتس إلى تحقيق الانتقال التدريجى والمنظم لتحرير التجارة فى الخدمات من خلال إلغاء العديد من القيود والعوائق المحددة للتوسع فى انتقال الخدمات عبر الحدود.

وبرغم أن الطلب على التعليم العالى يشهد نمواً ثابتاً، وتزايداً فى الحراك الأكاديمى للطلاب والأساتذة منذ حقبة الثمانينيات، إلا أن الألفية الثالثة تشهد إضافة هامة نحو عولمة التعليم العالى تتمثل فى انتقال البرامج الأكاديمية والمؤسسات التعليمية عبر الحدود. يضاف إلى ما سبق، أن المنطق الاقتصادى والعائد التجارى أصبح يحكم - بشكل كبير - عرض الخدمات التعليمية على المستوى العالمى، وبحيث أضحى دافع التجارة والربحية حقيقة واقعة على مستوى الجامعات والمعاهد الخاصة، وفى بعض الأحيان على مستوى مؤسسات التعليم الحكومية.

وفى ظل الطبيعة الخاصة لخدمات التعليم العالى، انقسم خبراء التعليم حول المزايا الناجمة عن الأخذ باتفاقية الجاتس، والمخاطر المترتبة على تطبيقها. إذ تُركز الاعتراضات على التأثيرات السالبة الناجمة عن تراجع الدور الحكومى فى وضع استراتيجيات التطوير الوطنية، واختلال مفهوم التعليم العالى كسلعة عامة يتعين عدم خضوعها لقواعد وآليات السوق، وعدم ضمان مستوى الجودة المطلوبة فى أداء برامج التعليم العالى. أما المدافعون عن تطبيق اتفاقية الجاتس فيرتكزون على الأثر الموجب لتحرير تجارة الخدمات فى تطوير وتحديث العملية التعليمية والبحثية، وزيادة أعداد المسجلين بنظم التعليم العالى، ذلك بالإضافة إلى النمو المتوقع فى العائد الاقتصادى والمالى بفعل تبنى هذه الاتفاقية.

ويجدر الإشارة فى هذا المجال إلى أن هناك فرقًا بين مفهوم تدويل التعليم العالى، وسياسة تحرير أو عولمة خدمات التعليم (من خلال الجاتس). إذ يركز «التدويل» على إضافة البُعد الدولى إلى الأنشطة التعليمية والبحثية والإدارية بالجامعات، وبالتالى فإن تدويل التعليم العالى يرتبط أساساً بالقيمة الأكاديمية للأنشطة الدولية، وليس بالعائد الاقتصادى للتدويل، ومن هنا ظهر حديثاً مسمى «التدويل غير الهادف إلى الربح»، للتفرقة بين التدويل وبين مفهوم التجارة فى خدمات التعليم.

وتأسيساً على ما سبق، فإنه يتعين النظر إلى عولمة الخدمات التعليمية كمجموعة من القواعد والسياسات التى تسعى إلى إلغاء القيود على حرية حركة الخدمات بين الدول وعبر الحدود الجغرافية.

وسنركز فى العرض الحالى على جانبين رئيسيين لاتفاقية الجاتس من حيث تأثيراتها على التعليم العالى. يختص الجانب الأول بالمفاهيم والقواعد الحاكمة لعمل هذه الاتفاقية، ومدى القدرة على تطبيق عناصرها فى كل من الدول المتقدمة والنامية. فى حين يسعى الجزء الثانى إلى مناقشة متطلبات تحرير تجارة خدمات التعليم العالى.

تصنيف التجارة فى الخدمات:

يمكن حصر أربع فئات رئيسية للتجارة فى الخدمات عبر الحدود (أو بين الدول) من خلال اتفاقية الجاتس:

١. عرض الخدمة عبر الحدود (Cross-Border Supply):

بما يعنى تقديم خدمة عابرة للحدود دون الحاجة إلى انتقال مستهلك هذه الخدمة من مقره أو مكان تواجده. وتتمثل هذه النوعية من خدمات التعليم العالى فى التعليم من بُعد، والتعليم الالكترونى باستخدام شبكة الإنترنت، والجامعات الافتراضية التى تعتمد على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ويُعتبر هذا الأسلوب التجارى فى الخدمات من الطرق الواعدة مستقبلاً فى ظل التطورات المتوقعة فى مجال الحاسبات والمعلومات وتقنية الاتصالات. ولكن يظل سوق هذه الخدمات التعليمية محدوداً - فى الوقت الراهن - على مستوى الدول النامية.

٢. استهلاك الخدمة عبر الحدود (Consumption Abroad):

بما يعنى انتقال مستهلك خدمة التعليم العالى (أو الطلاب) إلى الدولة المقدمة للخدمة. وتتمثل هذه النوعية فى انتقال الطلاب إلى دولة أخرى لاستكمال الدراسة بها. وتحتل هذه النوعية من تجارة الخدمات التعليمية النصيب الأكبر من السوق العالمى للتعليم العالى.

٣. التواجد التجارى (Commercial Presence):

بمعنى انتقال المؤسسة التعليمية المنتجة للخدمة - أو أحد فروعها - من دولة إلى أخرى لتقديم خدمة التعليم العالى عبر الحدود وبشكل مباشر. وتأخذ هذه النوعية من تجارة الخدمات التعليمية أشكالاً متعددة مثل إنشاء فرع محلى (Local Branch) لجامعة أجنبية بإحدى الدول، أو بناء حرم جامعى لإحدى المؤسسات التعليمية بالخارج (Satellite Campus)، أو الحصول على توكيل يسمح للمنتج المحلى بتسويق خدمات تعليمية لجامعات أجنبية (Franchising Arrangement). وتمثل هذه النوعية من تجارة الخدمات التعليمية توجهاً مرغوباً يُنتظر تزايده فى المستقبل القريب، ولكنه يتطلب - بالضرورة - صياغة قوانين دولية شفافة تنظم حركة الاستثمارات الخارجية والقدرة على تخصيصها فى المجالات التعليمية، فضلاً عن ضرورة وجود قناعة لدى السلطات الوطنية لقبول إنشاء كيانات أجنبية على أرضها.

٤. انتقال الأفراد لتقديم الخدمة عبر الحدود (Presence of Natural Persons):

وهو ما يعنى انتقال أستاذ الجامعة أو المدرس أو الباحث العلمى - بشكل مؤقت - إلى دولة أخرى لتقديم خدمات التعليم العالى. وهو نمط تعليمى منتشر - بشكل كبير - على مستوى كل من الدول الصناعية والدول النامية، على حد سواء.

ويصرف النظر عن الأساليب المتبعة فى تجارة خدمات التعليم العالى عبر الحدود، فإن اتفاقية الجاتس تفرض عدداً من الالتزامات أو القيود التى يتعين على الدول المُوقعة على الاتفاقية الالتزام بها. ويمكن تقسيم هذه الالتزامات إلى قواعد عامة تُطبق على معظم الدول المُوقعة على الاتفاقية، وقواعد تتحدد من خلال نتائج المفاوضات بين كل دولة على حدة، والمنظمة العالمية للتجارة (WTO) فيما يخص القطاعات الخدمية التى ستخضع لاتفاقية الجاتس ودور الحكومات ومؤسسات التعليم العالى الوطنية فى هذا المجال.

وتشير وثائق منظمة التجارة العالمية إلى أن الالتزامات العامة لاتفاقية الجاتس تتضمن ضرورة التعامل بشكل متساو مع كل الشركاء التجاريين دون تفرقة بين دولة وأخرى من حيث الفرص المتاحة لتحقيق المعدلات المرغوبة للتبادل التجارى. فقبول أحد الدول بإنشاء جامعة أجنبية على أراضيها، يترتب عليه إعطاء نفس الحق لكل الدول الأعضاء بمنظمة التجارة العالمية والموقعين على اتفاقية الجاتس بإنشاء مؤسسات تعليمية بتلك الدولة، كذلك يتطلب الأمر الشفافية فى انتقال المعلومات بين الدول ووجود آليات واضحة لفض المنازعات بين الدول فى حالة نشوئها.

أما الالتزامات الخاصة - التى تنشأ عن نتائج المفاوضات الثنائية بين إحدى الدول ومنظمة التجارة الدولية - فتتحدد بمبدأين رئيسيين على النحو التالى:

١. المعاملة الوطنية (National Treatment): وهى تختص بإعطاء نفس الحقوق لكل من مؤسسات التعليم الوطنية ومثيلتها الأجنبية بالسوق الوطنى لخدمات التعليم. أى أن سماح الدولة (أ) للدولة (ب) بتقديم خدمات التعليم العالى على أراضيها يقتضى عدم التفرقة بين مقدم الخدمة من الدولة الأجنبية (ب) وبين مؤسسات التعليم المحلية بالدولة (أ) من حيث الحقوق والواجبات.

٢. مدخل السوق :(Market Access)

وهو يمثل مستويات سماح السلطات الوطنية بإحدى الدول لدولة أخرى بدخول سوقها فى أحد القطاعات الخدمية. وقد حددت اتفاقية الجاتس - فى هذا المجال - نحو ستة قيود يمكن للدولة المستضيفة أن تضعها لتنظيم



هناك فرق بين مفهوم تدويل التعليم العالى، وسياسة تحرير أو عولمة خدمات التعليم (من خلال الجاتس)



دخول مؤسسات التعليم الأجنبية فى سوق التعليم الوطنى.

وتوضح مؤشرات التجارة الدولية، أن قطاع خدمات التعليم هو أقل القطاعات تطبيقاً لاتفاقية الجاتس. ويعود ذلك - فى كثير من الأحيان - إلى صعوبة المواءمة بين قواعد تحرير تجارة خدمات التعليم واستراتيجيات التعليم الوطنية. إذ تنبع صعوبة التحرير الاقتصادى من الطبيعة الخاصة لخدمة التعليم وما تتضمنه من أبعاد ثقافية واجتماعية. وتشير الإحصاءات التعليمية أن(٤٤ دولة) فقط - من إجمالى (١٤٤ دولة) أعضاء فى منظمة التجارة العالمية (WTO) - قد وافقت على تطبيق اتفاقية الجاتس على خدمات التعليم العالى حتى عام ٢٠٠١. ويمكن حصر القضايا التى تتطلب مزيداً من الدراسة والتحليل - فيما يخص تحرير التجارة فى خدمات التعليم العالى - فى النقاط التالية:

١. دور الحكومات الوطنية:

حيث تفيد اتفاقيات الجاتس أن الخدمات التى تتم فى إطار ممارسة الحكومة لسلطاتها يمكن إعفاؤها من التزامات الجاتس. وهو أمر يشوبه الغموض ويحتاج إلى تفسير فى ظل تزايد درجة تعقيد الدور الحكومى فى قطاع التعليم. حيث تتكون نظم التعليم العالى بالدول النامية - فى غالب الأحيان - من جامعات حكومية تتمتع باستقلالية الإدارة - فى إطار خطة استراتيجية تقوم بصياغتها الحكومة المركزية - وعدد من مؤسسات التعليم العالى الخاصة التى تعمل من خلال مجموعة من القواعد التنظيمية التى تصدر عن وزارات التعليم العالى.

٢. منطق ومزايا التطبيق:

حيث تشير نتائج المفاوضات الخاصة باتفاقيات الجاتس إلى وجود تباين بين الدول فيما يخص المنطق الاقتصادى والأكاديمى لتحرير تجارة الخدمات التعليمية. إذ تسعى استراليا - على سبيل المثال - إلى تعظيم الحراك الأكاديمى للطلاب عبر الدول والقارات. فى حين تهتم نيوزيلانده بالمزايا الاقتصادية والاجتماعية التى تعود من تطبيق اتفاقية الجاتس. وتحدد اهتمامات الولايات المتحدة الأمريكية بزيادة القدرة المعرفية والارتفاع بكفاءة عنصر العمل وتركز - فى نفس الوقت - على انعكاسات الجاتس على بناء نظم الاقتصاد المعرفى وتحسين مناخ المنافسة. وبرغم عدم التحديد الصريح للمنطق الحاكم للمفاوضات مع اليابان، فإنها أشارت إلى أهمية توكيد الجودة ونظم الاعتماد لحماية مستهلك الخدمة التعليمية وتحسين جودة التعليم العالى والبحث العلمى. وتفيد هذه التجارب، أنه برغم أهمية البُعد الاقتصادى فى اتفاقيات الجاتس إلا أن البُعدين الاجتماعى والأكاديمى، مثلا أيضاً قضايا أساسية فى إطار مفاوضات تحرير خدمات التعليم العالى.

٣. الحاجة إلى مزيد من التحليل:

إذ يتضح من سير المفاوضات أن هناك حاجة متزايدة إلى تحليل العوامل المؤثرة على التزام (أو عدم التزام) الدول باتفاقيات تحرير التجارة فى الخدمات. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى تباين مستويات طموح الدول فيما يخص الدور المتوقع للجاتس فى تحقيق الأهداف القومية لنظم التعليم العالى. وهنا طفت على سطح المفاوضات مفاهيم متباينة. فالبعض يفسر «المنطق الداعم لمستهلك الخدمة التعليمية» بمدى الحاجة إلى التوسع فى الفرص المتاحة للحصول على الخدمة التعليمية. فى حين يتجه آخرون إلى ربط هذا المنطق بضمان عدالة الحصول على الخدمة ومدى كفاءة تقديمها للطلاب. ويمكن فهم «المنطق الاقتصادى» كوسيلة أو أداة لجذب الاستثمارات فى مجال التعليم، فى حين يرى فريق آخر أن هذا المنطق الاقتصادى من الممكن أن يدمر أهداف التنمية الاجتماعية من خلال التعليم، وفى بعض الأحيان العائد العلمى والمعرفى للعملية التعليمية. ومن هنا تظهر مستويات للاختلاف بين المهتمين بالقضايا التعليمية من حيث تفسيرهم لانعكاسات اتفاقية الجاتس فى مجال التعليم. وهو الأمر الذى يتطلب المزيد من الدراسة والتحليل.

٤. مجال اهتمام الدول النامية:

حيث يتعين التعرف على وجهة نظر الدول النامية وعدم التقليل من جهودهم الوطنية للارتقاء بنظم وبرامج التعليم العالى، مع توضيح المزايا والمخاطر المترتبة على تحرير خدمات التعليم العالى بدرجة مقبولة من الشفافية. وتقع قضايا الجودة والاعتماد فى قلب هذه المناظرة. حيث تمثل الأطر التنظيمية للترخيص والاعتماد والاعتراف بالكفاءات وتوكيد الجودة درجة مرتفعة من الأهمية لكل من الدول النامية والمتقدمة. حيث أظهرت الدول النامية قلقها من إمكانية توفير الأُطر الملائمة للجودة والاعتماد فى ظل التوجه القوى نحو تحرير التجارة وتعاظم تقديم الخدمات التعليمية عبر الحدود. ومن ناحية أخرى، تعتبر اتفاقية الجاتس أحد العوامل أو الأدوات التى تشجع الحراك المهنى. وبرغم تركيز الاتفاقية على الانتقال المؤقت لقوة العمل، فإنها من الممكن أن تؤدى إلى الهجرة الدائمة للكفاءات المهنية والأكاديمية من الجنوب إلى الشمال. ومن هنا فإن الآثار المترتبة على انتقال الأساتذة والباحثين عبر الحدود تمثل أحد مجالات اهتمام الدول النامية. وبطبيعة الحال، سيكون من الصعوبة على الدول النامية تحقيق معدلات الارتقاء المطلوبة فى نظم للتعليم العالى بها، فى ظل اجتذاب الكفاءات والكوادر الفنية والأكاديمية المؤهلة للعمل بدول أخرى. ونخلص مما سبق، أن الدول النامية ترى أن هناك العديد من الصعوبات التى تعوق تواؤمها وقدرتها على التفاعل مع النظام العالمى لتحرير التجارة، ومن هنا يعتقد العديد من المهتمين بالقضايا التعليمية بالدول النامية أن تطبيق قواعد اتفاقية الجاتس من المتوقع أن تؤدى إلى زيادة تدنى مستويات المعيشة بالدول الفقيرة أكثر من تقليل الفجوة العلمية والمعرفية والاقتصادية بين الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة.

قبول دولة بإنشاء جامعة أجنبية يعطى الحق لكل الدول الأعضاء بمنظمة التجارة بإنشاء مؤسسات تعليمية بتلك الدولة



أزمة الدول النامية

يُجمع خبراء التعليم العالى - فى العديد من دول العالم - أن نظم التعليم مازالت تعتمد بشكل أساسى على القطاع الحكومى، وأن التكلفة الفعلية للطالب بمرحلة التعليم العالى تعتبر مرتفعة مقارنةً بباقى مراحل التعليم. وفى عصر يتسم بتنامى القيود المالية وعجز الموازنة العامة، فإن كلا من الدول النامية والصناعية - على حد سواء - تواجه التحدى الأساسى المتمثل فى «كيفية الحفاظ على - أو تحسين - مستويات أداء التعليم العالى، فى ظل تناقص نصيب الطالب الحقيقى من الإنفاق على خدمات التعليم».

فعلى مستوى الدول النامية، مثلت معدلات التسجيل بالتعليم العالى أعلى المعدلات بالمقارنة بمراحل التعليم الأخرى خلال العشرين سنة الماضية. حيث حققت الدول منخفضة ومتوسطة الدخل معدلات نمو فى عدد المسجلين بمرحلة التعليم العالى تُقدر بنحو (٢،٦٪) سنوياً، فى حين وصلت معدلات النمو للدول ذات الدخل المتوسط المرتفع إلى (٣،٧٪) سنوياً. وقد صاحب هذا النمو مستويات مرتفعة من الدعم الحكومى، وفى غالب الأحيان معدلات مرتفعة للتشغيل بالقطاع الحكومى، برغم تشبع هذا القطاع بالعمالة، وتدنى مستويات الأجور به.

وبرغم وجود بعض الحالات الاستثنائية، فقد تراجعت معدلات الأداء التدريسى والبحثى فى مؤسسات التعليم الحكومى بالدول النامية. فالعديد من نظم التعليم العالى الحكومى تعمل فى ظل إمكانات مادية محدودة، وهيئة تدريسية غير ملائمة، ومكتبات فقيرة فى عدد الكتب والدوريات، وأجهزة ومعامل وأدوات تدريبية غير كافية. وفى العديد من الدول النامية، اتجهت كفاءة الأداء الداخلى بالجامعات إلى الانخفاض، واستمرت الزيادة فى معدلات البطالة بين الخريجين. وأخيراً فقد اتسعت الفوارق فى معدلات التسجيل وتخصيص الموارد التعليمية بحسب المستوى الاجتماعى والاقتصادى للطلاب.

وتشير بيانات البنك الدولى إلى أن تراجع الموارد المالية العامة مع الزيادة الملحوظة فى



أهو ده اللى صار

محمد يونس القاضى

أهو ده اللى صار وآدى اللى كان — مالكش حق تلوم عليه
تلوم عليه إزاى يا سيدنا — وخير بلادنا ماهوش فى إيدنا
قولى عن أشياء تفيدنا — وبعدها لوم عليه
بدال ما يشمت فينا حاسد — إيدك فى إيدى نقوم نجاهد
واحنا نبقى الكل واحد — والأيادى تكون قوية
مصر يا أم العجايب — سعدك أصيل والخصم عايب
خللى بالك م الحبايب — دولا أنصار القضية

قرش المصرى

إمتى بقى نشوف قرش المصرى — يفضل فى بلده ولا يطلعش
الله لو كانوا الأغنياء — يتلموا ويمضوا لنا شيكات
والنبى تو ما عقدوا النية — تتفرج عالفوريكسات
وتعيش مصر فى عيشة هنية — دولة وتحكم ممتلكات

يا ولد عمى

مش بزيادانا بقينا عرة — وكل حاجة من شغل بره
شوف الخواجا قلع عنينا — وآخر المتمة فلس علينا

معدلات نمو المسجلين فى مرحلة التعليم العالى، قد ساهم فى تناقص نصيب الطالب من الإنفاق بالأسعار الثابتة (أى بعد استبعاد أثر التضخم فى الأسعار). وقد ظهر هذا التناقص بشكل أكثر وضوحاً فى كل من قارة أفريقيا، ومنطقة الشرق الأوسط. حيث انخفض متوسط نصيب الطالب من الإنفاق الحكومى فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - خلال حقبة التسعينيات - من (٢٠٠,٣) دولار إلى نحو (١٩٠٠) دولار سنوياً. وقد أدى هذا الوضع إلى تراجع مستويات جودة العملية التدريسية والبحثية فى العديد من جامعات الدول النامية.

وقد انعكس تراجع الأداء أساساً على مؤشرات أعضاء هيئة التدريس من ناحية، وتدهور البنية التحتية للخدمات التعليمية، من ناحية أخرى. إذ تؤكد إحصاءات التعليم العالى أن مرتبات أساتذة الجامعة قد انخفضت بالأسعار الثابتة، مما نتج عنه عدم قدرة مؤسسات التعليم العالى العامة على المحافظة على الكفاءات الأكاديمية التى بدأت تتجه إلى وظائف أخرى تتميز بارتفاع معدل الأجور. يُضاف إلى ما سبق، أن أساتذة الجامعة أصبحوا يكرسون جزءاً غير قليل من وقتهم للأعمال الخارجية بهدف الحصول على دخول إضافية.

كما اتضح من الدراسات - التى قام بها كل من البنك الدولى ومنظمة اليونسكو - أن زيادة عدد الطلاب بمرحلة التعليم العالى، وانخفاض الموارد المالية الحقيقية، قد نتج عنه تقادم البنية التحتية لمؤسسات التعليم العالى الحكومية (الأبنية التعليمية والأجهزة والمعدات والمعامل.......إلخ)، وازدحام هذه المؤسسات بأعداد متزايدة من الطلبة. وقد أدى ذلك الوضع إلى توجه الإدارة العليا بالجامعات الحكومية إلى تخصيص معظم الموارد المالية لدعم المتطلبات الحالية وتخفيض الإنفاق على الصيانة والإحلال. وأصبح تقادم البنية التعليمية من قاعات محاضرات ومعامل ومكتبات يمثل ظاهرة عامة على مستوى معظم الدول النامية.

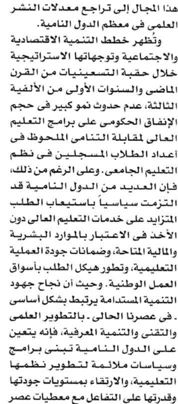
وإلى جانب انخفاض مستويات الأداء الداخلى بمؤسسات التعليم العالى، فقد ظهر عدد من المشاكل ترتبط بالكفاءة الخارجية لنظم التعليم العالى من حيث علاقتها بالمجتمع. حيث أظهرت المؤشرات الإحصائية ارتفاع معدلات البطالة بين الخريجين منذ حقبة الثمانينيات وحتى الآن. ويمكن تفسير هذه الظاهرة إما بتناقص الطلب على الكفاءات والتخصصات العلمية التى تتخرج من الجامعة، أو بعدم قدرة الجامعات على توفير نوعية الخريج المطلوبة فى سوق العمل من حيث المستويات المعرفية، والقدرة البحثية، وإمكانية التعامل مع تقنيات العصر الحديث. وتشير الإحصاءات الرسمية بمصر إلى زيادة معدلات البطالة بين خريجى الجامعات من (٦,٩٪) فى المتوسط خلال فترة السبعينيات إلى نحو (١٦٪) فى بداية حقبة التسعينيات. كما ارتفع معدل البطالة فى الأردن إلى نحو (١٦,٥٪) فى عام ١٩٩١. ويصل معدل البطالة بين خريجى الجامعات فى أمريكا اللاتينية إلى نحو (١٠٪) فى المتوسط. هذا ومن المنتظر تفاقم مشكلة البطالة فى المدى القريب والمتوسط، حيث إن الأداء الاقتصادى بالدول النامية لا يسمح باستيعاب الأعداد المتزايدة من خريجى الجامعات بهذه الدول. ومما يزيد من صعوبة مشكلة البطالة أن عملية ربط مخرجات التعليم العالى فى الدول النامية بمتطلبات سوق العمل لا تتم بالشكل الأمثل.

وبرغم تركز نسبة غير قليلة من الإنفاق على البحث العلمى بالدول النامية فى الجامعات، فإن هذه الدول لم تنجح فى تطوير قدراتها البحثية للتواؤم مع معطيات العصر. ومع تنامى المشاكل المالية العامة، وتناقص معدلات الإنفاق على البحث العلمى، وارتفاع تكلفة اقتناء الأجهزة والمعدات العلمية، تراجعت مخرجات العملية البحثية كماً وكيفاً. كما أظهرت دراسات التقييم للعملية البحثية، أن البحوث التى تتم فى إطار الجامعات لا تؤثر بصورة فعالة فى الأداء الاقتصادى. ومن هنا فإن العديد من الجامعات - بالدول النامية - تركز على العملية التدريسية أساساً، وتتراجع جدوى الأبحاث التى تقوم بها على المستوى التطبيقى. وتشير المؤشرات فى



تنبع صعوبة التحرير الاقتصادى من الطبيعة الخاصة لخدمة التعليم وما تتضمنه من أبعاد ثقافية واجتماعية





هذا المجال إلى تراجع معدلات النشر العلمى فى معظم الدول النامية.

وتُظهر خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتوجهاتها الاستراتيجية خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضى والسنوات الأولى من الألفية الثالثة، عدم حدوث نمو كبير فى حجم الإنفاق الحكومى على برامج التعليم العالى لمقابلة التنامى الملحوظ فى أعداد الطلاب المسجلين فى نظم التعليم الجامعى. وعلى الرغم من ذلك، فإن العديد من الدول النامية قد التزمت سياسياً باستيعاب الطلب المتزايد على خدمات التعليم العالى دون الأخذ فى الاعتبار بالموارد البشرية والمالية المتاحة، وضمانات جودة العملية التعليمية، وتطور هيكل الطلب بأسواق العمل الوطنية. وحيث أن نجاح جهود التنمية المستدامة يرتبط بشكل أساسى - فى عصرنا الحالى - بالتطوير العلمى والتقنى والتنمية المعرفية، فإنه يتعين على الدول النامية تبنى برامج وسياسات ملائمة لتطوير نظمها التعليمية، والارتقاء بمستويات جودتها وقدرتها على التفاعل مع معطيات عصر المعرفة.

وتشير إحصاءات التعليم العالى إلى نجاح بعض الدول الصناعية الكبرى - مثل دول الاتحاد الأوربى واستراليا - فى وضع سياسات متطورة تهدف إلى الارتقاء بكفاءة أداء برامج التعليم العالى. وبرغم ما تعانيه معظم الدول النامية من ضغوط مالية واقتصادية، وتراجع فى نصيب الطالب من الإنفاق الحكومى على التعليم، فقد نجح البعض فى تحقيق معدلات أداء مرتفعة وتنوع فى الأنشطة والهياكل الأكاديمية لنظم التعليم العالى.

ويكمن هذا النجاح - أساساً - فى تحقيق التخصيص الأمثل للموارد المالية والمادية والبشرية بين قطاعات التعليم الثلاث: التعليم الأولى، والثانوى، والجامعى. وحيث أن العائد الاجتماعى للاستثمار فى مرحلتى التعليم الأولى والثانوى يتعدى - فى غالب الأحيان - العائد الاجتماعى للاستثمار فى مرحلة التعليم العالى، فإن تخصيص الاستثمارات العامة والخاصة يجب أن يعتمد على مستوى العائد الاقتصادى والاجتماعى من ناحية، والتكامل المطلوب بين مراحل التعليم المختلفة، من ناحية أخرى. فجودة التعليم العالى تعتمد - بشكل كبير - على مستوى خريجى المدارس الأولية والثانوية. كما أن إعداد المعلم للمرحلة الثانوية (أو الأولية) يتم على مستوى المرحلة الجامعية، فضلاً عن أن تصميم برامج ومقررات المراحل الأولى من التعليم يتم بواسطة خبراء التعليم العالى.

وتشير نتائج الدراسات المقارنة التى قام بها كل من البنك الدولى ومنظمة اليونسكو لتقييم تجارب الدول النامية فى مجال التعليم العالى إلى ضرورة الأخذ بالتوجهات والسياسات الإصلاحية التالية لتحقيق أهداف تطوير الأداء فى ظل تراجع التمويل الحكومى:

١. تشجيع التنوع فى نظم وبرامج التعليم العالى بما فى ذلك التوجه نحو إنشاء مؤسسات تعليم خاصة.

٢. وضع نظم متطورة لتحفيز مؤسسات التعليم الحكومية على تنويع مصادر تمويلها من خلال مشاركة الطلاب فى الرسوم الدراسية، وإنشاء برامج أكاديمية مشتركة مع القطاع الخاص المحلى والجامعات الأجنبية، وربط تخصيص التمويل الحكومى بمعدلات الأداء.

٣. إعادة صياغة دور الحكومة فى دعم نظم وبرامج التعليم العالى فى ظل معطيات الوضع الراهن والتغيرات المتوقعة فى مناخ التعليم العالى.

٤. وضع حزمة متكاملة من السياسات تُوجه أساساً لإعطاء أولوية لمعيارى جودة وعدالة نظم التعليم العالى.

ويتعين الإشارة فى هذا المجال، أن نجاح التوجهات المقترحة فى تحقيق التطوير المرغوب يتطلب وجود القناعة الكاملة لدى السلطات الحكومية بالدول النامية من ناحية، واتخاذ مؤسسات التعليم العالى الوطنية كافة الإجراءات والتدابير والبرامج التنفيذية المناسبة، من ناحية أخرى. وهو أمر يتطلب إعداد دراسة منفصلة تركز على السمات الخاصة بنظم التعليم العالى الوطنية والمناخ الاقتصادى والاجتماعى والسياسى السائد بالدولة محل الدراسة. ■



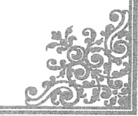
يمامة بيضاء

محمد يونس القاضى

يمامة حلوة ومنين أجيبها — طارت يا نينة عند صاحبها
وخدها البلبل وطار وياها — قصده يا نينة يعرف لغاها
شعرها يهفهف وعلى ترفرف — وأنا بدى أعرف مطرح ما هيا
شعرها أصفر حلو يضفر — ماشية تتمخطر قلبى عشقها
تسرح وتجينى وإيدها تصحينى — وتحلف بدينى لم كانت بره
العين سودة والبدلة موضة — طلعت م الأوضة قلبى هواها
طارت فى قصرى إمبارح العصرى — لصاحبها المصرى طالع يجيبها
جم يخبوها منى ويخدوها — ويسجلوها فى الحقانية
البلبل خدها وطار وياها — بده يا نينة يعرف لغاها
يمامة حلوة ومنين أجيبها — طارت يا نينة عند صاحبها

عشقت حسنك

عشقت حسنك وأنت ليه — حرقت قلبى بنار الجوى
صدك وهجرك يصعب عليه — وأنت داؤه وإنت الدوى
الصبر ضاع يوم الوداع — يا رب تجمعنا سوى
يا قلبى ليه تعشق جميل — تحب وصله يبخل عليك
فى حبه شفت المستحيل — وهوّه لم ينظر إليك
يا حلو شوف قلب العليل — واصلنى مرة أبوس إيديك







مؤتمرات كثيرة ولا حصاد ...

محمد يحيى جمال

ثلاثون عاما مرت على تغيير اليافطة على بوابة الألسن من المعهد العالى للألسن إلى كلية الألسن التابعة لجامعة عين شمس ومعها كانت بداية مرحلة جديدة مملوءة بالأمل نحو غد مضىء، وفى نفس العام دخلت اللغة العربية المجال الدولى وأصبحت لغة رسمية من لغات العمل الست فى منظمة الأمم المتحدة، وانعقدت الآمال على أن تكون تلك بادرة خطة عمل طويلة الأمد وبعيدة النظر يقوم بها أبناء العربية، وكان تغيير اليافطة على بوابة كلية الألسن يحمل اكثر من مجرد تبديل اسم، فقد كان يعنى فى طياته إعادة الهيبة والتقدير إلى مهنة مازالت مصر ومعها العالم العربى بأسره فى حاجة إلى الالتفات لها والالتفاف حولها: مهنة الترجمة.



و المهنة فى عالمنا العربى . فى الحقيقة . لا تلفت الأنظار ولا تبهر الصغار: كم طفل يقول فى رده على السؤال المعتاد: ماذا تحب أن تصبح عندما تكبر؟ الكل يريد أن يكون طبيبا أو مهندسا أو محاميا أو طيارا ولكن هل سمعنا من يريد أن يكون مترجما؟ والسبب فى ذلك يعود إلى نظرة المجتمع إلى المهنة و إلى المترجم.

وإذا نظرنا إلى الجهات الرسمية التى تضطلع بالإشراف على الترجمة فى مصر . ومعها العالم العربى . نرى أن الإشراف الحكومى . السائد دوما . ليس على المهنة ولكن على نتاج المهنة، بمعنى انه لا توجد نقابة لمترجمى مصر ولا يوجد مؤتمر لمترجمى العربية ولا ناد ولا مقر ولا قهوة لتجمع المترجمين حيث يتقابل الممارسون ويتحاورون مع الأساتذة حتى يرى الجيل الجديد الخبراء أمامه ويلتفوا حولهم، وإنما تشرف الحكومة . فقط . على نتاج ترجمة أساتذة الترجمة وتقيم المؤتمرات والحفلات حولها، ولا خلاف على أهمية الاحتفال بأى نتاج أكاديمى وعقلى يقوم به المترجمون ولكن النقطة هنا هى إن الإشراف والرعاية الحكومية تأتى فى مرحلة متأخرة وفى لحظة تشريفية وليست تشجيعية، والنتيجة أن أصبحت الترجمة هواية فردية وليست حرفة جماعية، والعكس هو المطلوب: أن تقوم الحكومة بإنجاز ما أراده محمد على باشا وأن تستمر فى سياسته الحكيمة: الاستثمارات القومية فى صناعة الترجمة.

وهذا الكلام ليس جديدا فقد سبق أن طالب به العديد من مترجمى العرب على صفحات الجرائد على مدى السنوات الثلاثين الماضية ولكن ماذا حدث خلال الثلاثة عقود الخالية:

انعقدت العديد من المؤتمرات حول الترجمة: والغريب أن العديد من هذه المؤتمرات يحمل اسم المؤتمر الدولى الأول للترجمة بمعنى غياب الاستمرارية فى النشاط، وهذا يدعو للتساؤل: هل يعود الأمر لقلة الموارد أم لانعدام التخطيط أم للتخبط، ويلاحظ أيضا أن معظم المؤتمرات يعقد كما لو كانت هى أول وآخر ما انعقد من مؤتمرات الترجمة، بمعنى أنه لا ربط بين ما سبق ولا ارتباط بما سيأتى من مؤتمرات لاحقة.

ولوحظ أيضا فى العديد من المؤتمرات العربية فى القاهرة وغيرها من العواصم العربية التكرار - الذى يكاد يصل إلى التقديس - على أهمية الترجمة، وتاريخ الترجمة والدولة العباسية وكأن الأمر يحتاج إلى تذكير وتركيز على هذا الشق المعروف والذى أصبح تكراره موضعا للشك لماذا نتوقف عند هذه البديهية التاريخية ولا نتخطاها، كثرت الندوات والمؤتمرات وما زلنا نتحدث عن أهمية الترجمة.

هل هو جمود الفكر؟ أم هل يرجع الأمر إلى انعدام البيئة المناسبة لخلق جيل من المترجمين يقومون بالمهمة الرئيسية التى ذهب من اجلها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى إلى باريس والتى عاد بها إلى القاهرة ليؤسس مدرسة الألسن؟ هل الإشراف الحكومى عاجز عن تولى المهمة القومية؟ إن السنوات الثلاثين الماضية أثبتت أن مهنة الترجمة فى اضعف حالاتها التاريخية وأن الجمود قد تطرق إلى اوجه كثيرة، منها جهات متعددة تشرف على إعداد أو استخدام أو توظيف المترجمين، والأساس أنه لا ترجمة بدون مترجم، واع، مثقف ومدرب وإذا كانت وزارات الثقافة العربية تحتفى بالأساتذة بعد بلوغهم سن الخبرة والإنتاج فمن يشرف على الإعداد والتدريب والتكوين، ومع رحيل الأساتذة تذهب الخبرة ونعيد الكرة وننتظر جيلا آخر، وفى تلك الأثناء تأخذ الهوة بيننا وبينهم فى الاتساع ونلهث وراءهم ثم نعيد الدعوة إلى المؤتمر الأول للترجمة لنعيد

تكرار ما سبق أن قلناه: أهمية الترجمة فى الحوار وتاريخ الترجمة العربية والدولة العباسية، ومع ذلك سقطت بغداد يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣.

التركيز على المترجم

على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة انعقدت الكثير من الدورات والندوات حول الترجمة فى أماكن عدة فى الوطن العربى كان معظم النقاش فيها ترفا أكاديميا يرتكز فى الغالب على الترجمة الأدبية بألوانها المختلفة، والواقع يشير إلى صورة مختلفة تماما عن الانطباع الذى تقدمه المؤتمرات: فى محيط من التخلف فى كافة المجالات نرى مؤتمرات تم إنفاق أموال أصلا شحيحة على مناقشات لا تهم إلا أصحابها والذين هم أصلا أو معظمهم من طاقم التدريس الأكاديمى ولا تعكس الأبحاث أية نتائج اجتماعية ولا تقدم أفكارا يمكن أن تعود بالفائدة على قطاع كبير فى المجتمع العربى، وأبحاث الترجمة مهمة مهما ابتعدت اهتماماتها أو ارتفعت أهدافها أو شطحت مجالاتها ولكن فى العالم العربى هناك حاجة إلى ربط الجامعة بالمجتمع وأن نتدرب على التفكير الخلاق الذى يصب



كم طفل يقول فى رده على السؤال المعتاد: ماذا تحب أن تصبح عندما تكبر؟ الكل يريد أن يكون طبيبا أو مهندسا أو محاميا أو طيارا ولكن هل سمعنا من يريد أن يكون مترجما؟ والسبب فى ذلك يعود إلى نظرة المجتمع إلى المهنة وإلى المترجم



العرب "ضاعوا" فى الترجمة!

فى نهاية الأمر فى صالح المجتمع، إن هواية الفكر للفكر، رفاهية لا تقدر عليها مجتمعاتنا العربية حاليا، وهى هواية مستوردة بمعنى أنها توجد فى الجامعات الأجنبية حيث التعليم بمصروفات وهذه. بالتالى. رفاهية لا يصح أن تقوم بها الجامعات العربية الحكومية.

من هنا وجب التركيز على حسن اختيار وحسن إعداد المترجم، وهذه مهمة قومية لا تقل عن إعداد الجندى أو الطبيب أو المعلم أو المهندس، بل إن الإبقاء على المترجم الجيد والمتخصص يعتبر مهمة قومية، فهناك العديد من المهن والصناعات اللامعة التى تخطف المترجمين من خريجى كليات ومعاهد الترجمة وتجذبهم إليها بعيدا عن مجال الترجمة مثل: السياحة والإعلام والعلاقات العامة والسياسة الخارجية والصحافة وتعليم اللغات والشركات الخاصة، وهذا هدر للقدرات وللمواهب.

والسبب يعود إلى انعدام التخطيط السليم لخلق بيئة مناسبة لمهنة الترجمة.

وإعداد المترجم الجيد مهمة ليست سهلة بل تحتاج إلى سنوات طويلة تبدأ فى مرحلة التعليم الثانوى حيث يبدأ الطالب والطالبة فى إدراك اهتماماتهم والتعرف على قدراتهم، وتصقل الجامعة الموهبة من خلال الإعداد التكوينى لمهنة الترجمة، وبعد التخرج تشرف الصناعة على الخريجين وتقوم بالإشراف على الإعداد التراكمى وذلك من خلال النقابة والدورات التخصصية والمشروعات المختلفة والعمل مع أساتذة ومراجعين والاستفادة من خبرات الجيل السابق، هذا بالإضافة إلى الإيمان بالتعليم المستمر.



وهنا تبرز نقطة هامة جدا: كلنا نعرف المترجم الجيد من المترجم الضعيف وندرك أن كلية الألسن لها تاريخ فى إعداد المترجمين الأكفاء، ولكن من يقوم بإعداد والإشراف على صقل مواهب أستاذ الترجمة فى المعاهد والكليات؟؟ وإذا كان السؤال يسبب حرجا أكاديميا ويدعو إلى السفسطة الأكاديمية المعروفة باسم الدجاجة أم البيضة نجد أن هناك حاجة ماسة إلى إشراف أكبر من الأفراد والجامعات على مهنة الترجمة، إشراف تتولى مهمته صناعة حرة قوية وغنية مرتبطة باقتصاد السوق ولها أهداف تجارية وقومية، الموضوع خطير بسبب القصور فى كافة أجهزة التفكير والإعداد والتمويل والنشر والتوزيع والاستثمار والدعاية، وفى هذه الأثناء تزداد الهوة بين المترجم إليهم والمترجم منهم بمعدلات يكاد يشيب لها الولدان.

فى منتصف السبعينيات كان المترجم يعمل بالقلم الرصاص والمحاية ورزمة من أوراق الفلوسكاب، وكان لديه قاموس واحد أو اثنان هما قاموس المورد أو قاموس الياس، ولم تكن هناك قواميس متخصصة معروفة سوى معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية للدكتور أحمد شفيق الخطيب الصادر سنة ١٩٧١، وكانت الآلة الوحيدة التى يستخدمها المترجم المستقل هى الآلة الكاتبة أوليفتى، هذا إن كان مترجما محترفا ويعمل من مكتبه سواء كان فى المنزل أو فى العمل «بعد ساعات الدوام»، وكانت طبيعة العمل تتطلب أن يذهب المترجم إلى مكان العمل لتسلم وتسليم الترجمة، أو أن يرسلها بالبريد المستعجل إن تطلب الأمر إلى خارج البلاد، كان من النادر أن يحصل المترجم على أعمال ترجمة من بلاد أخرى إلا إذا كان قد سافر إليها أو قام باتصالات شخصية.

أما اليوم، فى منتصف العشرية الأولى من القرن الحادى والعشرين، فنرى المترجم يعمل من منزله فى غرفة مزودة بإمكانات تفوق عشرات المرات ما كان يستخدمه والده فى سنة ١٩٧٤. حيث يترجم المترجم على الكمبيوتر مباشرة ويستخدم برامج لتصحيح الطباعة ولمراجعة الكلمات وبرامج تشرح له مرادفاتها بل والبحث فى القاموس الموجود بالفعل على الكمبيوتر، ولا يطبع المترجم المادة لكى يرسلها بالبريد العادى «إلا إذا كان ذلك ضروريا» بل فى ٩٥٪ من الحالات يرسلها المترجم بالبريد الإلكترونى، بل ويستلم النص الأصلى فى لحظة سريعة ويترجم ما استطاع ويرسلها قبل ميعاد بدء العمل فى الصباح التالى، وكل هذا بفضل الإنترنت، بل وتستفيد بعض الشركات الأمريكية من فارق التوقيت وسرعة الإنترنت بالاتصال بمترجمين فى استراليا لإنجاز ترجمات عاجلة على مدار الساعات الأربع والعشرين، وفوائد الإنترنت بالنسبة للمترجم المستقل تتعلق أساسا بأسلوب العمل وكفاءة الإنتاج والقدرة على الاتصال مع مصادر العمل سواء كانت وكالات ترجمة أو هيئات تطلب خدمة ترجمة سريعة لكن رفيعة المستوى، وكما أن الإنترنت أصبحت أداة من أدوات الترجمة فهى أصبحت سلاحًا للمنافسة وتتطلب السيطرة التامة على قدراتها لتكون عونا للمترجم وليست عبئا عليه.

فإذا كانت الصورة هكذا والاختلاف مثلما نرى اليوم فهل اختلف نمط المترجم العربى فى التفكير على مدى السنوات الثلاثين؟ والسؤال الأخطر إذا كانت الإنترنت. وهى اختراع أمريكى. هى ما أعلنت عنه الحضارة الغربية فيا ترى ما هى الاختراعات التى تملكها ولم تفصح عنها؟

إن التركيز على إعداد المترجم هو عصب القضية التى يفضل أن تخاطبها مؤتمرات الترجمة، وخلق البيئة المناسبة لتكوين جيل من المترجمين الذى يشكلون جيشا قوميا يعمل على مدار الساعة لإنجاز ترجمات تمس الأمن القومى: الاقتصاد الحر والزراعة العضوية والفكر الجديد والوعى العام بالقضايا الاجتماعية والحلول العملية للمشاكل القومية بصورة تساعد فى زيادة الإقبال على التفكير والتدبر والانشغال فى المجتمع المدنى بصورة تساعد على الإصلاح والتغيير.



إن ذلك الهدف من الحركة القومية للترجمة لن يتأتى إلا عن طريق تأسيس نقابة قوية وغنية وتحت قيادة معروف عنها الإبداع والفكر المستنير، إن الانخراط فى الحركة النقابية والاحتكاك مع

العديد من الممارسين والمحترفين من خلال الندوات والدورات التدريبية من شأنه أن يرفع من قيمة العمل الترجمي ومن قيمة المترجم وفى النهاية من قدرة المهنة على الوفاء بواجباتها القومية.

من مهنة الترجمة

إلى صناعة الترجمة

لا زالت الترجمة . رغم أهميتها الحيوية فى تكوين النهضة. نشاطا فرديا يتركز على الترجمة الأدبية، وفى ثقافة تعتمد على المستورد الأجنبى فى كافة نواحيها من العلم والتكنولوجيا والطب والإدارة وحتى الترفيه وأدب الأطفال والسينما يظن المرء أن هناك هيئة قومية تشرف على هذا الإنجاز الكبير وأن هناك مؤتمرا قوميا يحمل اسم المؤتمر العربى الثلاثين للترجمة والذى يقام كل سنة فى جامعة عربية مختلفة والحقيقة عكس ذلك، ويدرك المترجم أو من هو فى مهنة الترجمة المعوقات التى تصادف المترجم العربى من حيث الدراسة وتعلم اللغات والخبرة الحياتية فى بلد اللغة المترجم منها إلى التعلم المستمر والاحتكاك المهنى وتواصل الخبرات مع الأساتذة وحتى المراجع الأجنبية ناهيك عن قصور الموارد العربية المتمثلة فى وفرة القواميس والموسوعات والمراجع العربية، ووصولا إلى قضايا النشر والتوزيع، ومشكلة الكتاب وعادة القراءة فى البلد، كل تلك المعوقات تمت الإشارة إليها فى مقالات وأبحاث تكرر ذكرها على مر السنوات.

والنتيجة أننا ما زلنا فى دائرة مفرغة وأصبح مفهوم الترجمة فى الواقع العربى متمثلاً فى أسلوب بخيت وعديلة كما ورد فى فيلم هاللو أمريكا لعادل إمام.

إن صورة المترجم العربى التى تظهرها السينما العربية صورة ساخرة تعتمد على الأداء الحركى الفهلوى الذى يصعب معه الاعتقاد بأن مهنة الترجمة مهنة محترمة تتطلب سنوات عديدة من التدريب وصقل الموهبة وتعتمد أساسا على تعلم سليم للغة وتدريب مستمر تحت إشراف أساتذة محترفين، وإلا كان من الأفضل استخدام مترجم إشارة بدلا من الأسلوب الكوميدى فى محاولة رديئة للتغلب على صعوبة اللغة واختلاف الثقافة والبعد الجيوبولتيكى بين البلدين.

وعلى الرغم من نجاح الفيلم فى عرض أهدافه السياسية وإقبال الجماهير عليه إلا أن القضية المهنية لصورة المترجم كانت سطحية وتعكس اتجاها سائدا منذ مدة طويلة ساعدت فى ترسيخه عدة أعمال، وفى الحقيقة فان السينما المصرية لم تقدم صورة جيدة إطلاقا للمترجم ابتداءً من فيلم سى عمر الذى قدم صورة للمترجم الهندى تعطى الانطباع بأن المترجم شخص لا يثق به وأن المترجم يستطيع التغلب على صعوبة المفردات والمصطلحات باختراع ما يراه مناسبا

"العرب ضاعوا فى الترجمة!"



وانتهاءً بفيلم اللمبى الذى قدم كوميديا شعبية ناجحة. وان كانت. رخيصة ولكنها صورت مهارة اللغات الأجنبية على أنها مقدرة غريبة وثانوية لا طائل من ورائها، بل وقدمت السينما أفلاما ومسرحيات كثيرة تصور أستاذ اللغة العربية فى صورة شخص آت من عالم قديم وغريب عفى عليه الزمن وقدمته فى إطار ينفر من احترام اللغة القومية ناهيك عن التشجيع على تعلم اللغات الأجنبية والقدرة على التعبير بلغة أو لغتين أجنبيتين بمهارة.



والأمر قد يختلف لو كانت هناك نقابة مهنية قوية تعمل على تقديم صورة مهنية محترفة عن المترجم وتدعو إلى مؤتمر وطنى عام يتناول قضايا المهنة من حيث الانطباع العام وفرص العمل ومكانة المترجم فى المجتمع ودوره فى العملية الثقافية وحقوقه ومسئولياته وآداب المهنة وتدعو الكتاب والفنانين إلى الغوص فى شخصية المترجم لاستكشاف مواضيع جيدة وجديدة لكى تعالجها سينمائيا، ومازالت شخصية ليلى المترجمة التى وردت فى قصة نجيب محفوظ ثرثرة فوق النيل تثير الاشمئزاز والسخط لدى العديد من المترجمين والمترجمات، ويخلو الأدب العربى . عموما . من قصة أو رواية تعتمد أساسا على شخصية ومهارة المترجم.

وعلى النقيض من ذلك نرى أن السينما الأمريكية ستقدم فى العام المقبل ٢٠٠٥ فيلما جديدا بعنوان المترجمة بطولة الممثلة الأسترالية نيكول كيدمان الذى تقوم فيه بدور مترجمة تعمل فى الأمم المتحدة، ويتطرق الفيلم إلى مهارة المترجمة التى تكتشف مؤامرة دبلوماسية داخل المقر الدولى فى نيويورك وتتناول آداب المهنة والصعوبات التى يمكن أن يتعرض لها المترجم.

إن فرص النهوض بمهنة الترجمة تتمثل فى الاهتمام بها بحيث تصبح صناعة قوية وقائمة على أسس محترفة، ولكى تصبح فى مصاف المهن الأخرى الكبرى فى المجتمع لابد أن يكون لها هيكل تجارى تشرف عليه هيئة عربية عليا تتبع سياسة واضحة لا تتغير مع تغير القائمين عليها ولا تكون تحت رحمة الحكومات المساهمة فى ميزانيتها، وأيضا هذا ليس جديدا وقد ذكر أكثر من مرة على صفحات الجرائد المصرية والعربية، بل وتم الإعلان أكثر من مرة عن مبادرات عربية على مستوى عال بشأن تأسيس جهاز أو مركز أو هيئة عربية قومية للترجمة ولكن تبدلت الأولويات مع الأيام.

ولتفعيل صناعة الترجمة فى الوطن العربى لابد أن تكون هناك حركة مهنية تتمثل فى نقابة نشطة وقوية لها برنامج عمل سنوى دائم ومؤتمر عام ومجلات ودوريات منتظمة تعمل على بث روح التعاون وإنماء عادة النشر وتقوية حركة التفاعل بين الأجيال والتعاون مع المترجمين الآخرين فى كافة العواصم العربية، إن مثل ذلك الإطار من شأنه أن يفعل حركة الاتصال والترابط بين الجامعات العربية وأساتذة الترجمة ومترجمى اللغة الواحدة مثل إنشاء رابطة المترجمين من اللغة الفرنسية ورابطة المترجمين من اللغة الصينية وهكذا، ولكن التجربة الغربية أثبتت ضرورة التفاف أعداد كبيرة من المترجمين الممارسين وطلاب وأساتذة الترجمة حول جمعية أو منتدى يمثلهم للحصول على الكتلة الحرجة ليكون لذاك التمثيل تأثير فى السوق، وأثبتت كذلك أن الممارسة الفردية قد تعرقل فرص التكتل فى ناد أو اتحاد ولذلك تعقد الدورات المتلاحقة لتحقيق عملية الاتصال الدائمة عن طريق ربط اهتمامات الأعضاء فى منتديات متخصصة تعمل على الفائدة المشتركة بدلا من التنافس غير الهادف والذى قد لا يساعد على النهوض بمستوى المهنة، هذا على مستوى القطر العربى الواحد ثم الانطلاق إلى الوطن العربى بأسرة والتوصل إلى تكتل كبير فى عالم أصبح لا ينظر إلا للتكتلات الاقتصادية ذات التأثير الواضح والفرص المتبادلة، وفى عالمنا العربى، هناك حاجة إلى مثل هذا التجمع، حينئذ يمكن أن نرى مؤتمرا عربيا على مستوى الوطن العربى يشمل كل قدراته ويغطى كافة احتياجاته فى مؤتمر علمى كبير يركز على إنجازات سبقت وطموحات لاحقة ولا يكتفى بالإشارة إلى أهمية الترجمة وتاريخها.

والرغبة فى انعقاد المؤتمر العربى الثانى مازالت قوية، فقد مضت ست عشرة سنة على انعقاد المؤتمر العربى الأول فى بغداد فى سنة ١٩٨٨.

الجمعية الدولية

للمترجمين العرب (واتا)

المترجم العربى . رغم قدراته الفردية المحدودة . أدرك أن هناك خللا فى واقع المهنة وان هناك حاجة إلى التغيير ومن هنا جاءت مبادرة خلاقة من الخليج العربى حيث استشرف الأستاذ عامر محمود العظم المستقبل المهنى وترجم فكرة النقابة العربية للترجمة إلى واقع ملموس، وبمجهود شخصى وبمساعدة مجموعة من الزملاء من أصحاب الرؤية والإيمان الراسخ بان الترجمة صناعة حيوية لابد أن ترسخ أقدامها فى محيط مهنى واع وقوى، أطلق الأستاذ عامر محمود العظم الجمعية الدولية للمترجمين العرب:واتا:على شبكة الإنترنت فى يوم الخميس الأول من يناير سنة ٢٠٠٤ وإدارة الجمعية مجهود جماعى يشرف عليه أساتذة من خيرة المترجمين العرب فى كافة أنحاء المعمورة، وباستغلال الإمكانيات التى لا حدود لها المتوفرة على الإنترنت اصبح للمترجم العربى بيت دائم ومرجع يعمل على مدار الساعة، ويشارك فى الجمعية الحديثة مترجمون يعملون فى العديد من الهيئات الدولية والجامعات العربية والأجنبية والدوائر الحكومية العربية والشركات العالمية فى

صورة المترجم العربى التى تظهرها السينما العربية صورة ساخرة تعتمد على الأداء الحركى الفهلوى الذى يصعب معه الاعتقاد بأن الترجمة مهنة محترمة تتطلب سنوات من التدريب وصقل الموهبة



"العرب ضاعوا فى الترجمة!"



بلاد المهجر وفى بلاد تسمع فيها العربية وأخرى بعيدة كل البعد عن العربية، والنتيجة أن أصبح للمترجم العربى - بين عشية وضحاها - زملاء فى كافة أنحاء الكرة الأرضية ويمكنه الاستفادة من المعلومات والأخبار الخاصة بالترجمة لحظة صدورها ويمكن زيارة موقع الجمعية على عنوان:

www.arabicwata.org

و على الموقع يجد العضو المسجل والزائر أبوابا تهم كل مترجم ولغوى ومنها على سبيل المثال قسم لمقابلة ضيوف الجمعية فى مقابلات فريدة فى أهميتها حيث تلخص خبرة أساتذة وممارسين فى حقول الترجمة المتعددة، وتوجد أيضا قائمة بالمترجمين واختصاصاتهم وعناوين الاتصال بهم إذا احتاج المترجم الاتصال بزميل فى نفس التخصص مما يساعد على إنجاز مهمة الاستفسار بأسرع ما يمكن، وهناك قسم خاص بالخبراء فى أوجه متعددة فى صناعة الترجمة ولجان خاصة باللغات ويمكن المشاركة بالأفكار والاستفسارات والمناقشات فى أسلوب حضارى يسخر الإنترنت لخدمة مهنة كانت أصلا تعتمد على الانفرادية فى التفكير والانعزالية فى الأداء.

إن المتتبع لحركة الترجمة العربية فى التاريخ الحديث يدرك أن هناك عدة مراحل زمنية معينة وإنجازات محددة هى التى أثرت حركة الترجمة العربية إثراء كبيرا مثل: بعثة محمد على باشا إلى فرنسا وتأسيس مدرسة الألسن وإنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر وإنشاء مجامع اللغة العربية ومكتب توحيد المصطلحات ومشروع الألف كتاب هى محطات تاريخية هامة وجاءت الجمعية الدولية للمترجمين العرب تتويجا لكل المحطات السابقة، والجمعية تحتفل بإنجازها ولها كل الحق ومع ذلك نرى القائمين عليها عاكفين على البناء والإضافة والتعديل بصورة ديمقراطية ستصبح المثل الذى يحتذى به عن قريب، إذ أنها قد جمعت العديد من خبراء المهنة والعاملين الممتازين فى مجال صناعة الترجمة من المتخصصين فى اللغويات والترجمة والإعلام والصحافة والتدريس والممارسين فى كافة المجالات وعلى كافة المستويات:من المترجم التحريرى إلى المترجم الإعلامى إلى مترجمى الأمم المتحدة: وكذلك طلاب الترجمة فى العديد من الجامعات العربية، كل ذلك على موقع واحد على الإنترنت يؤمه المئات يوميا وقادر على استيعاب الآلاف من القراء والمشاركين.

إن الجمعية الدولية للمترجمين العرب بقيامها هذه السنة حققت إنجازا كبيرا عجزت عن تحقيقه حكومات الوطن العربى كله، ومازلنا نهنئ أنفسنا بالجمعية ونشارك فى تشييد صرح من صروح الثقافة العربية التى أثبتت التجربة العملية أن المترجم يعتبر من صفوة مثقفيها وقادر على القيام بدور فعال فى الرقى بمهنته واخذ زمام المبادرة.

تطوير كلية الألسن

إن الاهتمام بقضية الترجمة ليس وليد اليوم بدليل أن الكثير من الأدباء العرب والمثقفين يتحدثون اللغات الأجنبية ودرسوا فى الجامعات الأجنبية ومنهم عدد ليس قليلا ممن اقبل على الترجمة، بل إن أمير الشعراء أحمد شوقى حصل على دبلوم الترجمة من باريس، وهناك من ألف كتبا بالإنجليزية ثم ترجمها . بنفسه . إلى العربية منهم على سبيل المثال «احمد فخرى . الأهرامات المصرية »ومحمد حسنين هيكل «ملفات السويس» خريف الغضب، وبطرس بطرس غالى «طريق مصر إلى القدس».

وعلى الرغم من تواجد الترجمة أكاديميا . فى حياتنا ابتداء من سؤال الترجمة فى امتحانات اللغات فى المرحلة الثانوية إلى ظهور المعاهد الخاصة لتعليم اللغات والترجمة وانتهاء بإنشاء الجامعات الخاصة والمعاهد الأكاديمية التى تتخصص فى تدريس الترجمة، بل. وصل الأمر . إلى اقتباس الاسم التاريخى كلية الألسن وتم إنشاء كلية للغات والترجمة تحمل نفس الاسم فى جامعة مصر الدولية، ومما لاشك فيه أن هناك خبرات جيدة فى كل تلك المراكز الأكاديمية ولم تعد كلية الألسن» جامعة عين شمس» هى الوحيدة القادرة على التخصص فى مجال الترجمة وتخريج أفضل المترجمين فى مصر أو فى الوطن العربى، فهناك منافسة قوية من مدرسة الملك فهد العليا للترجمة فى طنجة بالمغرب وكذلك المعهد العالى للترجمة فى الجامعة اليسوعية فى بيروت، وهما على قدر عال جد من المهنية والكفاءة، ولكن تبقى كلية الألسن فى مصاف فريد، فلها السبق ولها المكانة وتتمتع بالعامل الجغرافى والتاريخى وتمتلك من المقومات العددية والأكاديمية والتجارية ما يؤهلها أن تتبوأ مكانة عربية وعالمية، ولكن الأمر يحتاج إلى تغيير وإصلاح.

ففى زيارة إلى القاهرة فى شتاء ٢٠٠٣ وأثناء توقف قصير فى مكتبة الشروق بميدان سليمان باشا فى وسط القاهرة تطرق إلى سمع الكاتب سؤال من فتاة للبائع فى المكتبة تستفسر فيه عن عنوان قصتين من الأدب والدراما لكل من هنريك ابسن وشكسبير، فتبادر إلى ذهن الكاتب أن الفتاة قد تكون طالبة فى السنة الأولى من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن فانتظر حتى انتهت من استفسارها وسألها: هل تدرسين فى كلية الألسن؟ أجابت: نعم، وهل أنت فى السنة الأولى فى قسم اللغة الإنجليزية؟ أجابت: نعم، وهنا كانت المفاجأة مازالت المناهج الأكاديمية على ما كانت عليه منذ ثلاثين عاما، صحيح أن اللغة والأدب وشكسبير لا يتغيران وأن الكتب المطلوبة كانت لطلاب السنة الأولى المبتدئين وان الأمر قد يمر على أنه مصادفة ولكننا الآن فى عصر مختلف أصبحت فيه الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة وفى ظروف العولمة وموجة الهجوم الأمريكى على الدين الإسلامى والهوية العربية والهيمنة الأمريكية على السياسة المصرية والعربية لابد أن تتجه الدراسات إلى كل ما هو أمريكى حتى نتعلم كيف يفكر هذا الآخر. الأمريكى. وأن ندرك أن طريقة الحوار معه لن تكون أبدا على طريقة بخيت وعديلة التى وردت فى فيلم هاللو أمريكا.

إن إصلاح الألسن يكمن فى أن تطلق يداها وتتمتع باستقلالية تامة: أكاديمية وإعلامية وتجارية، وأن يتولى إدارتها مدير أعمال لا موظف حكومى، وتكون الإدارة الجديدة واعية لدور الألسن فى المجتمع المصرى والثقافة العربية وذلك لجعل الألسن نقطة جذب للاستثمارات ومنارة فكرية وأن يديرها على أنها شركة تجارية لها ميزانية ولها أهداف وعليها مسئوليات.

وهذا النمط فى التفكير والإدارة. وإن كان جديدا . إلا أنه ليس غريبا، فهذا هو الحال فى الجامعات الخاصة فى مصر الآن، والفرق يكمن فى فلسفة الإدارة وحدود الحرية المتاحة حتى تسعى الكلية نحو المستثمرين والمجتمع ودور النشر وقطاعات تشغيل الطلاب أثناء الدراسة: من قطاع السياحة والاستثمار والصحافة والتدريس: والخريجين بعد التخرج: فى كافة المجالات التى تقبل على تشغيل خريجى الألسن:، إنها دائرة واسعة تتطلب برنامج إعداد يتخطى العام الدراسى الواحد بل يتعداه إلى سياسة طويلة الأمد لا ترتبط بفرد وإنما ترتبط بمؤسسة.



والألسن. الحديثة. لا بد أن ترتبط بالواقع وأن تفى باحتياجات المجتمع وأن تخلص لفلسفتها كما أراد لها الشيخ المؤسس الطهطاوى عند إنشائه لمدرسة الألسن. إن الإدارة لابد أن تعى أن فرص عمل الخريجين من صميم مهمتها وأن تسعى للإجابة عن السؤال الخطير: لماذا يقبل الكثير من الخريجين:المترجمين: على العمل فى قطاع السياحة والفنادق بل وقطاع الأمن هذا سؤال خطير يدل على خلل ما فى عملية اختيار المقبولين: إن نسبة الـ ٩٣٪ من مجموع الثانوية العامة كحد أدنى للقبول لا تعنى أى شىء: وأن هناك قصوراً فى فلسفة التدريس وانعدام الصلة بين الجامعة والمجتمع وإهدار للكفاءات وضياع للعائد من العملية التعليمية وانعدام لقيمة المترجم فى المجتمع.

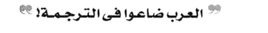
مثال من كرة القدم المصرية:

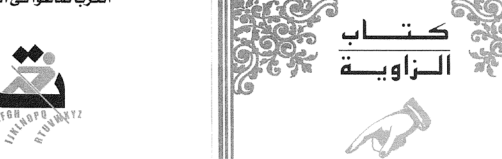
بعد نتيجة المونديال، أدرك الجميع أن هناك مشكلة فى قطاع كرة القدم فى مصر، ولكن من قبل ذلك اتضح أن الأندية الكبرى تلهث وراء اللاعبين النجوم من النوادى الأخرى وتدفع فيهم مئات الآلاف من الجنيهات، وهذا خطأ كبير نتج عن طريقة الترجمة من اللغات الأجنبية: ففى البلاد الأجنبية تسعى الأندية إلى سد حاجة ما بشراء لاعب نجم وتدفع فيه المقابل بسعر السوق، ولكن الأندية هناك تدار على أنها شركة لها مصالح



لتفعيل صناعة الترجمة فى الوطن العربى لابد أن تكون هناك حركة مهنية تتمثل فى نقابة نشطة وتقوية حركة التفاعل بين الأجيال والتعاون مع المترجمين الآخرين فى كافة العواصم العربية







فى شرع مين قاضى الهوى

محمد يونس القاضى

فى شرع مين قاضى الهوى — يذله خصمه ويحكمه
هو الطبيب مالوش دوا — وسرى إزاى أكتمه
وآدى النواح بالسر باح — يكفى افتضاح
بين العباد — أمرى اشتهر
الصبر من بعدك هلك — والصبر له أحسن طبيب
تركت أهلى وملت لك — والناس بتعطف ع الغريب
وأنت لك أخلاق ملك — قلبى انشبك
إمتى وصالك يا قمر — إمتى وصالك يا قمر

إرخى الستارة

إرخى الستارة اللى فى ريحنا — لاحسن جيرانا تجرحنا
يا فرحانين يا مبسوطين — يا مفرفشين يا مزقططين ياحنا
دلوقت أنا بس ارتحت — لا حد فوق ولا حد تحت
يعرفنى جيت ولا رحت — ولا حدش يقدر يلمحنا

يا فرحانين

قلبى بيطب أوى وخايفة — عندك شباك نواحى العطفة
افتح درفة واقفل درفة — وقوم نغير مطرحنا



تجارية وعليها التزامات لحملة الأسهم والمستثمرين:طريقة تفكير مختلفة تماما، والخطأ يكمن فى الترجمة . السطحية . التى تتمثل أنه من الممكن أن أترجم أى شىء بعيدا عن سياقه الثقافى، هذا ترف لا تقدر عليه الأندية العربية: والأمثلة واضحة وضوح الشمس فى العديد من الأندية المصرية والعربية من المحيط إلى الخليج،: والحل: هو أن تستثمر الأندية المحلية فى أبنائها عن طريق إنشاء كوادر لها من سن الطفولة وأن تغرس فيهم حب الرياضة والولاء لاسم النادى وشعار الشركة التى انخرط تحت لوائها، وما اللهث وراء اللاعبين الأفارقة من بلاد تدعى الكاميرون ومالى ونيجيريا والسنغال إلا خرفا أصبحت معه كلمة أفارقة تعنى عملاقة وزنا ومعنى.

مواضيع الترجمة الجديدة

فى القرن الحادى والعشرين أصبحت الترجمة العربية قضية حساسة تمس الأمن القومى وينبغى لها أن تدرك أن الترجمة الأدبية هى ترف لا يصح منحه اكثر من حجمه، هذا على الرغم من الإعلان مؤخرا عن اتفاقية ثقافية بين مصر والمجر يتم بموجبها ترجمة روائع الأدب المجرى إلى العربية وترجمة الأدب المصرى إلى المجرية إن الهوة آخذة فى الازدياد بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية لأسباب باتت واضحة وضوح شمس الإسكندرية وبدت تلوح فى الأفق فكرة الترشيد فى الأعمال المترجمة وفى مجهود المترجمين أساسا: هل من الأجدر أن نولى وجهنا شطر الشرق ونحاول الانفتاح عليه بعدما تأكدنا من العجز عن اللحاق بالغرب؟ هل من الأجدر أن نطلب العلم ولو فى الصين واليابان وكوريا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند، هل من الأفضل أن نعمل على تأسيس كليات للغات الآسيوية همها الأول التعلم من تجربة النمور الآسيوية؟

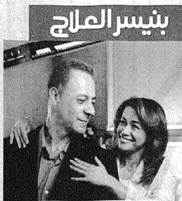
أم نحاول إصلاح البيت من الداخل ونعيد التخطيط بصورة افضل ونحاول التفكير بصورة إبداعية تجعل الجامعة اكثر ارتباطا بالمجتمع وتمنح القائمين على إدارة الكليات سلطات أوسع تؤهلهم لجعل الجامعة مكانا للإبداع وليس مجرد مدرسة للتعليم وتفريخ الخريجين.

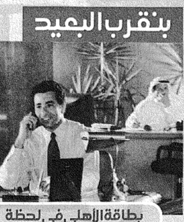
إن مواضيع الترجمة فى المرحلة التاريخية الراهنة اختلفت تماما عن المواضيع السائدة من ثلاثين سنة فأصبحت: إدارة الوقت، حماية البيئة،العولمة، التعلم المستمر، علوم الكمبيوتر، خلق الفرص الشخصية، إصدار الموسوعات وتبسيط العلوم والخيال العلمى ومكافحة التصحر وظاهرة الاحتباس الحرارى وزيادة الموارد المائية وقطاع الخدمات ورعاية المعوقين والانخراط فى المجتمع المدنى هى المواضيع الحيوية التى تعيشها المجتمعات الغربية، وعلى العكس تماما نرى أن هذه الموضوعات على أهميتها لا تجد صدى لها فى المجتمعات العربية لأسباب سياسية واقتصادية ومفاهيم اجتماعية عقيمة ولكن سائدة.

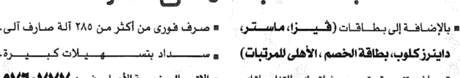
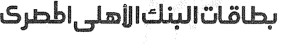
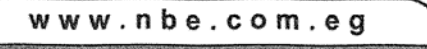
ولعل أهم الموضوعات التى يجدر بالمترجم العربى التعامل معها فى الفترة التالية تتعلق بالعمل الإعلامى خاصة فى القنوات الفضائية الموجهة والترجمة التلفزيونية والإعداد المتميز للصحافة العربية الصادرة باللغات الأجنبية والتى تخاطب القارئ الأجنبى بصورة اكثر حرفية وعلى درجة عالية من المصداقية، وتجدر الإشارة إلى أن العالم الغربى عندما يريد أن يتعرف على الشرق الأوسط ويبحث عن معلومة باللغة الإنجليزية يعتمد أساسا على صحيفة الـ جيروزالم بوست الإسرائيلية ولا يلتفت كثيرا إلى الصحف العربية الصادرة بالإنجليزية.

وتبقى قضية الحوار مع الآخر ومرادفات هذه القضية من تلاقى الحضارات ومخاطبة الثقافات والتواصل الفكرى تصب فى صميم نطاق الترجمة التى أثبتت أن خير من يقوم بدور المحاور والمفاوض والشارح والسفير والمقدم والمعلق والمتحدث لا غير سوى المترجم.

وهذه نقطة فى غاية الأهمية وجديرة بالبحث فى مؤتمرات الترجمة: كيف نقوم بإعداد شباب المترجمين ليتولوا مهام صناعة الترجمة وتحدياتها المقبلة طوال القرن الأمريكى الحادى والعشرين، وكيف نستثمر طاقاتنا وخبرات الباحثين فى دراسات الترجمة والإعلام والثقافة والسياسة الدولية واللغات والعلوم لإعداد نوعية جديدة من المترجمين . فوق العادة . المحاورين الثقافيين: فى أهم عشر لغات؛وعشر أخرى آسيوية: وأن نضمن الاستمرارية فى الإعداد والتدريب. ■



بنحقق طموحاتك
بنقرب البعيد
بطاقة الأهلى فى لحظة
بنسعد الشباب
بطاقة الأهلى للشباب
بنيسر العلاج
بطاقة تقسيط الأهلى دار الفؤاد
بنسهل الدفع
بطاقة ماستر مصر للطيران
بنضمن حريتك
بطاقة الأهلى إنترنت كارد
بنبسط الحياة
بطاقة تميمة ميزة
بطاقات البنك الأهلى المصرى
بالإضافة إلى بطاقات (فيزا، ماستر، داينرز كلوب، بطاقة الخصم، الأهلى للمرتبات)
تسافر، تتسوق، تسدد فواتيرك والتزاماتك.
حرية التسوق بانترنت كارد.
صرف فورى من أكثر من ٢٨٥ آلة صارف آلى.
سداد بتسهيلات كبيرة.
الإتصال بخدمة الأهلى فون ٥٧٦٠٧٧٧ على مدار ٢٤ ساعة.
البنك الأهلى المصرى
الأقرب إليك
www.nbe.com.eg

فـــــن



من حَمِيَّة كليوباترا إلى المآدب الفيكتورية



إنجريد د. رولاند

يظهر نقش حجرى قليل البروز من تل العمارنة بمصر الملكة نفرتيتى أثناء حضورها مأدبة عشاء مع زوجها الفرعون المنشق إخناتون، ولو أن كلمة «حضور مأدبة» قد تكون تعبيراً منقى لوصف هذا العرض النهم. والملكة نفرتيتى - هذا الجمال البارد القادم من مكان بعيد والمعروفة لدينا عن طريق تمثالها النصفى المشهور فى برلين - تظهر هنا كشخصية نهمة تستخدم كلتا اليدين فى الأكل حيث تظهر فى الرسم وهى جالسة على عرش رائع، ممسكة بدجاجة بكلتا الأيدى وتمزقها بأسنانها دون أن يكون هناك سكين أو منديل مائدة أو إناء لغسل الأنامل ظاهرين فى أى مكان على مرمى البصر. أما إخناتون فيظهر مناقضا لشهرته كشخص حالم ضعيف حيث يلوح بقوة بقطعة لحم ضخمة كما لو كانت لا شىء أكثر من قطع صغيرة من الشيش كباب - ناهيك عن ذكر شهيته - التى تناسب هرقل، كما يبتلع القسم الأعلى من شريحة لحم البقر كما لو كان رمسيس العظيم. وفى الواقع، نادرا ما ظهر الاستهلاك المنافى للذوق بهذا الوضوح.

إلا أن إقامة الولائم وحضورها، كما يوضح روى سترونج فى كتابه الذى يجب قرأته والمصور بشكل جيد، كان دائما عملاً شاقًا. فالملوك بدءا من الملك بيلشازار إلى لويس الرابع عشرقد استغلوا وسيلة الاستهلاك العلنى للغذاء وتوزيعه للتعبير بشكل مسرحى عن سلطتهم، وكانوا يتباهون بسيادتهم على طرق التجارة بأكل الطيبات القادمة من أنحاء الأرض البعيدة حيث يتمتعون بشدة بنقاء المذاق، أو ينغمسون ببساطة فى أروع الخطايا القاتلة السبع. فى أغلب الأحيان، كانت بقايا الولائم الملكية توزع على الفقراء كرشوة مطبخية لكسب اعجاب الجماهير واسكات استيائهم، لحظيا على الأقل. وقد لعبت قاعات الولائم على مر السنين أدواراً سياسية بنفس القدر الذى لعبته قاعات العرش- و فى أغلب الأحيان حققوا نفس الأهداف.

Feast: A History of Grand Eating
(مأدبة: تاريخ الأكل الفاخر)
Roy Strong
Harcourt 349pp. 2004

عن مجلة:
New York Review of Books
ترجمة: إنجى غنام وخالد ممدوح

وربما حدد الأثرياء وأصحاب النفوذ من الرومان القدماء بداية حريتهم من الاستبداد منذ طرد وترحيل السادة الأعلى منهم من حكام إتروريا فى عام ٥١٠ قبل الميلاد. و لكنهم ظلوا يؤدون دور الطاغية أثناء تناولهم الطعام على أرائك العشاء حيث يأمرون العبيد و كبار الطباخين والضيوف الذين لبوا دعوتهم. وليس مصادفة أن يحكم فرسان الملك آرثر وهم جالسون على مائدة مستديرة. روى سترونج يكرس فصلا ساحرا لوصف غرفة الطعام الفيكتورية، موضحا بأنها يمكن أن تصبح مكاناً رسمياً مليئاً بالمناسك والقواعد كمدينة أخناتون المقدسة لقرص الشمس أو حفلة العشاء اللانهائية على جبل أوليمبوس. ومن المحزن لكن الحتمى أن ينهى سترونج بحثه بنظرة يائسة على عصر الوجبات السريعة الذى نعيش فيه، حيث - كما يقول الكاتب المسرحى كين ليزيبنيك - تدنت الولائم القديمة لتصبح «أكل سطحى»: محطة توقف للتزود بالوقود فى المطبخ، مع مرور لحظى بين الحنفية والثلاجة.

إن العلاقة بين الولائم والسلطة قد تكون فى مثل قدم ووضوح سلسلة الغذاء نفسها، ولهذا اثبت هذا الموضوع أنه سيستمر للأبد فى كونه آسرا بالنسبة إلى الحيوانات الإنسانية التى تكدح فى عبوديتها له. فى كوميديا من ٤٢٣ قبل الميلاد، الفرسان، حاول الكاتب المسرحى الأثينى الغاضب الصغير أريستوفانيس كشف مكائد زعيم دهمائى محلى، يدعى كليون، عن طريق تصويره فى المسرحية كخادم فى منزل يتصف بالعنف وحيث يقوم بالطحن والطهى وتخزين المؤن وتقديم الطعام إلى سيده المسن الفظ ديموس - «شعب» أثينا الديمقراطية - منافقا ومتملقا اياه. وهناك عدو آخر من أعداء كليون، وهو المؤرخ ثيسيديديس، الذى صاغ التحليل الحذر والمدمر للقوة مكونا الكتاب الثالث والرابع من حرب بيلوبونيسيان، حيث يجسد أريستوفانيس بشكل مثير فى مسابقة طويلة على الطعام، محرضا خادم المنزل كليون ضد بائع مقانق فاسد من السوق الأثينى فى مسابقة الألف خطأ لتملق وكسب رضا السيد ديموس. (لإيجاد مهنة مثل هذه مريبة ومتورطة فى تشويه وإعادة تقديم رمز القوة الرئيسى للثقافة، ربما قد نضطر الآن لتقديم بائع المقانق كبائع سيارات مستعملة.)



ويأخذ تملقهم المتذلل شكل ملموس سريعا، فيحاولون إرضاء الشخص الأشهب السمين الذى يمثل المجتمع السياسى عن طريق تقديم الطعام له، فكل متملق منهم يقدم إلى ديموس صنف طعام شهى تلو الآخر فى سيل منفر من التملق. وفى النهاية، يقوم بائع المقانق- بازدهار المنتصر- بكشف أن كليون يكتنزلنفسه بقدر ما يقدم إلى سيده، بينما البائع الذليل أعطى ديموس - الناس - كل ما معه. وهكذا، و بدقة مميزة، استطاع أريستوفانيس أن يكشف كلا من جوع كليون الفج وأنانيته الضرورية. الغذاء، كما اتضح، هو الاستعارة المثالية للدلالة على السلطة السياسية، المفهوم الذى كان ثيسيديديس نفسه قد بدأ بإيجاد الكلمات المناسبة له. (جاء بكلمتين محددتين: dynamis، «قوة»، و paraskeue، التى تعنى شيئا ما بين «المصادر» و«الاستعداد»).

إن استغلال المعنى الاستعارى او المجازى للطعام ظل فعالاً لمدة ألفى عام بعد عصر أديب الحركة الإنسانية فى توسكان إنى سيلفيو بيكولومنى، الذى أدان فساد الحياة فى الفاتيكان فى رسالة سياسية بعنوان «تعاسات مسئولى كيوريا» (De Curialium Miseriis). موجها الكتيب إلى محامى ألمانى، يقول الكاتب أن صديقه «نبح مثل تلك الكلاب المجاملة بضع سنوات». ومثل تلك الكلاب فى مأدبة، كان المسئولون الصغار فى كيوريا يظلون فى اماكنهم تحت إغراء مفروشات المائدة الفاخرة ومذاق بقايا الطعام. و الجزء الأكثر وضوحا والملىء بالحيوية من هجاء بيكولومنى يشرح فيه بالتفصيل الظلم الذى كان يرتكب فى الولائم البابوية؛ وكما هو الحال مع أريستوفانيس، الغذاء هو افضل استعارة ممكنة للكناية عن السلطة:

أولئك الذين يجدون ان هذا هو السبب الوحيد لوجودهم فى القصر هم حمقى، ويعيشون حياة الخراف، وليس الرجال.... فهم مثل الذباب بالنسبة إلى نزهة، يرفرفون حول مآدب السادة، لكن مهما يكن مستوى المأدبة ملكيا، فإنهم يحصلون على نصيب أقل من الذباب. دعنا نرى، من ثم، ما هى المتعة التى يجنيها أهالى كيوريا من الأكل والشرب وسط البهاء الملكى.

فماذا كان شكل العشاء مثل فى ذلك الوقت؟ كانوا يقدمون نبيذا لا تتنازل خرقة صوفية لتلعقه - كما وصفه جوفينال - و إذا كنت مجنونًا بما فيه الكفاية لشربه، سيجعلك نكداً وهزيلاً وعفن النفس ومنتفخًا ومتجهمًا بالإضافة لشعور إما بالبرد أو بالفتور، كما يتصف هذا النبيذ بلون ومذاق سيئين.... ولا تعتقد بأنك ستشرب فى أوان من الفضة أو الزجاج؛ فهناك دائما الخوف من سرقة الأولى ومن كسر الأخيرة. وبالتالى فستجد نفسك تشرب من كأس خشبى أسود نتن وقديم مع وجود حثالة متكتلة فى قاعه حيث كان اللوردات يستعملونه لقضاء حاجتهم. وأنت لن تحصل على كأسك الخاص: لذا سواء كنت تريد نبيذك صافياً أو مخلوطاً بالماء، فإنك ستحصل على الذى يريده الآخرون، وكلما هممت بشرب رشفة من الكأس قد تجد أن اللحية المليئة بالقمل أو الشفة ذات اللعاب السائل أو الأسنان المتعفنة قد سبقتك. و فى هذه الأثناء، ستجد الملك يشرب نخبه من النبيذ المعتق الممتاز ذى الرائحة النفاذة



التى تملأ القصر بأكمله.... وستشعر أنك تريد أن تشرب لكنك لن تستطيع ذلك حتى يشرب من هم أعلى منك.. أما الجبن فنادرا ما سيمر أمامك؛ و إذا حدث واستطعت الحصول على قطعة منه، فستجده مليئًا بالديدان ومليئًا بالخروم و قذر و أصلب من الحجارة. وسيكون الزبد النتن وشحم الخنزير الفاسد هم التوابل التى تستطيع الحصول عليها. وستحصل على البيض فقط عندما يكون قديمًا لدرجة وجود أفراخ صغيرة بداخله؛ خبزك وتفاحك سيكون متعفنًا أو أخضر، وإذا لم تأكلهم فسيذهبون إلى الخنازير.... فالوردات يحبون ملاحظة التفاوت بين أنفسهم وخدمهم.

ملاحظات روى القوية توضح كيف رافقت الأفعال السادية فى أغلب الأحيان المآدب، بدءا من ربّ الأسرة الرومانى الذى قطع أيدى عبد وأغرقه فى بركة أسماك لكى يلتقط قدحا ملقى فى القاع، وصولا إلى الفلسطينيين القدماء الذين قدموا شامشون المعمى كفاصل ترفيهى لوليمتهم (على الأقل حتى قام هو بهدم قاعة الولائم على رؤوسهم). متعشو عصر نهضة كان عندهم تنويعاتهم للتسلية، وهى بالكاد أكثر تفتحا من الرومان القدماء الذين ألهموهم فى الأساس. وتقول الإشاعة الشريرة أن البابا ألكساندر السادس بورجيا دعا فى احدى المرات خمسين فتاة ليل عارية وأمرهن بالعدو خلف فرس كستنائى اللون على واحدة من أرضيات القصر البابوى بينما هو والكاردينالات وابنته لوكريزيا يتفرجون. و قد قام أحد الكاردينالات باستضافة مأدبة مشهورة سُميت «مأدبة جحيم» حيث وصل ضيوفه إلى فيللته المغطاة بالأسود للشرب من الجماجم؛ فى حين أن المحظية المتغطرسة التى تدعى «Matremma non vole» أو«أمّى لا تريدنى أن» - تقيّأت من الخوف. أما البابا ليو إكس، ابن لورينزو العظيم، فقد أقنع مهرج بلاطه بأن يأكل سترة جلدية كاملة طبخت فى الصلصة اللذيذة.

لكن الولائم التى وصفها سترونج بأفضل صورة، ومن الواضح إنها المفضّلة لديه، فكانت تلك الاجتماعات المتسمة بالشراهة والبهجة التى كان الناس منذ قديم الأزل يقيمونها لترقيم أيام السنة. وأغلب هذه الولائم كانت لإحياء مناسبات دينية أوكانت الولائم نفسها مناسك دينية: عيد الفصح والعشاء الربانى وحلوى عيد الميلاد. ولكنه حذف أى حديث عن عيد الشكر، العطلة الأكثر شهرة فى الولايات المتّحدة الأمريكية، وهو عشاء ذو طقوس تقوم مكوناته الثقافية المختلفة، فى كل الأحوال، بالإلمام بقصّة قارة. فعيد الشكر الأول جمع المستعمرين الأوروبيين الأصلاف والعائلات الأصلية فى لحظة هدنة حذرة، سواء من نضالهم المشترك ضد العناصر أو من تعاملاتهم مع بعضهم البعض. لكن نفس هذا النضال ونفس هذه الهدنات يمكن أن نرى صورة تقريبا طبق الأصل منها فى ولائم أخرى من مختلف الأزمنة والأمكنة، كما وضح لنا سترونج فى ثروة من التفاصيل القصصية والنوادر - وفى الكتب التى تتحدث عن الغذاء، كما هو الحال فى الحوارات حول الغذاء، الحكايات والنوادر ضرورية.

وهو يبدأ بما اسماه - وله الحق فى ذلك - «أشهر وصف كُتب عن وليمة»، وهى المأدبة التى مثلت الجزء الأساسى من كتاب ساتيريكون للكاتب الرومانى بيترونيوس والذى كُتب فى ذروة عهد الإمبراطور نيرو (و ذلك من المحتمل أن يكون سنة ٦٣ -٦٥ بعد المسيح عليه السلام). يقوم بيترونيوس بالاستهزاء من سوقيّة مضيف مأدبته الخيالية، العبد الذى تحرّروأصبح ترمالتشيو البلوتوقراطى، الذى كانت أخطاؤه النحوية متنوعة ومتكررة تماما مثل أخطائه الاجتماعية الفاضحة. وقد صوّر فيلينى هذا العشاء فى فيلم، لكن وصف بيترونيوس كان غريب بما فيه الكفايه:

فى بداية الوجبة، ستجد حماراً من البرونز الكورينثيانى يحمل سلّة بشقين يحتوى أحدهما على الزيتون الأبيض والآخر على الزيتون الأسود... متصل بهما عن طريق جسر صغيرة مجموعة من الصحون التى تحتوى على حيوان الزغبة المغموس فى العسل والمرشوش ببذرة الخشخاش. كان هناك أيضا مقانق حارة موضوعة على شواية فضية، وتحتها بذور الرمانة والأجاص.

و مأدبة ترمالتشيو مشهورة قبل كل شىء بالغذاء الذى صمّم ليظهر على شكل شىء آخر: مثل الأرنب البرى الذى يظهر على شكل حصان مجنح، والدجاجة الخشبية التى تضع بيضا مصنوعاً من المعجنات ومليئًا بالطير الصغير، والخنزير البرى الذى يرعى خنازير صغيرة مصنوعة من المعجنات، وتنطلق من جوانبها المثقوبة طيور الدجّ الحية.

من الواضح أنّ الأذواق الرومانية تحولت إلى مجموعة من الأذواق المختلفة عن أذواقنا. فكما يوضح سترونج أنه «بالرغم من ذوقهم البسيط نظريا، كان الرومان يكرهون أىّ مكون فى شكله الصافى. فنادرا ما وجدت عندهم وصفة بدون صلصة تقوم بتغيير مذاق المكون الرئيسى بشكل جذرى». الصلصات الحلوة كانت تضاف بكثرة على اللحم (كما هو الحال مع تلك الزغبات المغموسة فى العسل). السمك كان يقدم مع صلصة الحلو والحامض. بدءا من بريطانيا إلى بيريتوس (بيروت اليوم)، كانت صلصة السمك المالحة التى تُدعى garum تمر عبر طرق تجارة البحر الأبيض المتوسط لتقدم للناس الطريقة الرومانية لصلصة ورسيسترشاير (صلصة السمك التايلاندية والفيتنامية المعاصرة تتكون من مكونات مشابهة ولها مذاق مشابه). بعض الوجبات الخفيفة الرومانية القديمة ما زالت مستمرة حتى اليوم فى شكل أغذية الشارع الإيطالى: الفاصوليا المملّحة المسماة lupini والكستناء المحمص.



سترونج يؤكّد أن الكتابات الرومانية عن الغذاء تدين بالكثير إلى اليونان القديمة، وهذا هو الواقع بالتأكيد. ولكن من المحزن أنه لا توجد وثائق باقية لتخبرنا ما يدين به المتعشون الرومان إلى الإترورى القديم، الذى كان - و ربما مازال - تأثيره على عادات الرومان الغذائية عظيما. ولنتأكد من ذلك كلّ ما علينا أن نفعله هو أن ننظر على الوجبات الإترورية العديدة، وخطّافات اللحم والتماثيل التى تمثل صور لرجال ذى بطون كبيرة ونساء ذات ذقون ممتلئة وأطفال ممتلئين. الإتروريين كانوا معروفين بالأجسام الحسنة التغذية، وهذا لسبب وجيه؛ فباستثناء مساهمة العالم الجديد وتقديمه العصيدة المصنوعة من دقيق الذرة والطماطم والفلفل، فإن ولائم الإتروريين لربّما لم تتغيّر كل هذا التغيير على مدى الألفية، وهى بالتأكيد لا تُقاوم.

قد يكون الطعام اليونانى القديم أمرا أكثر غرابة فى وجود مثل تلك الأطعمة الشهية كالجبن والثوم مبشورة فى النبيذ. إنها نسخة يونانية من الهاجس الاسكتلندى. على الجانب الآخر، فإن قائمة الطعام التى حافظ عليها الكاتب أثيناوس من نوكراتيس، والذى عاش فى نهاية القرن الثانى بعد الميلاد، تقدم ببساطة غنيمة غير ملوثة من بحر أيجه فى وفرة مشوقة: الأنقليس والورنك والهس والشفنين البحرى والحبار والسبيد والقريدس المغطى بالعسل، والمقدمة بين الأطباق الرئيسية من الشعير الأبيض والكرواسون مع الكريمة المتجمدة. لقد حظى الطهاة اليونانيون بقوة سحرية، فقد كانوا يهدفون إلى الاحتفاظ بالصحة من خلال الطعام بالمحافظة على السوائل الأربعة للجسم وهى الدم والمخاط والعصارة الصفراوية السوداء والعصارة الصفراوية الصفراء فى اتزان. إن كان التوافق والتوازن يبدو أنه يحكم التفكير عن الطعام فى كل تقاليد الطهى، فإن الأساليب التى يتحقق بها هذا الاتزان قد أتت بنتائج مختلفة جذريا، فطبقا لليونانيين، على كبار السن تفادى النشويات والجبن والبيض المسلوق جيدا، وينبغى أن تكون الأطعمة التى يتم تناولها فى الشتاء حريفة وأكثر قوة وجفافا من تلك التى يتم تناولها فى الصيف.



روى سترونج يكرّس فصلا ساحرا لوصف غرفة الطعام الفيكتورية، موضحا بأنها يمكن أن تصبح مكانًا رسميًا مليئًا بالمناسك والقواعد كمدينة أخناتون المقدّسة لقرص الشمس أو حفلة العشاء اللانهائية على جبل أوليمبوس





لقد ظهرت محاكاة ساخرة وسفيهة لفلسفة الطهى هذه فى وقت مبكر من القرن السابع عشر على يد عالم ألمانى ولص للكتب يدعى ملشيور جولدست، قام فى حوالى عام ١٦٠٦ بتلفيق سلسلة من الخطابات بين كليوباترا ومارك أنطونيو والطبيب كونتس سارونس (الذى فى الواقع عاش بعدهما بجيلين)، طلب فيها أنطونيو النصح بخصوص كيفية الحد من الشهوة الجنسية لكليوباترا، فكوفئ بمجموعة من الوصفات. فمن أجل تلك الطبيعة الحارة لكليوباترا، نصح الطبيب سارونس بنظام غذائى من خبز الحبوب والخس والخل والقليل من الملح والنبيذ القابض الطعم واللحم والأشياء عديمة الطعم، ومن أجل أنطونيو البليد، نصح بالفجل الحريف. لم يكن جولدست، بشخصيته المنفرة، شيئا سوى عالم بالمؤلفين القدامى.

استمر الطهى فى العصور الوسطى فى السير على هدى الاعتقاد أن الطعام دواء لسوائل الجسم، لكن الأعياد التى كان يتم فيها التهام هذا الدواء أخذت أشكالا طقوسية جديدة مع ظهور المسيحية. حتى يتم نقل مدى تناول الطعام فى العصور الوسطى، يقارن سترونج بين وجبة فى حجرة طعام أحد الأديرة ومأدبة فى قاعة الملك. كلاهما تظهران المدعوين وهم يجلسون فى وضع مستقيم بدلا من الاتكاء طبقا للأسلوب القديم للبحر الأبيض المتوسط، وفى كلتا الحالتين، تكسو الوجبة نغمة العشاء الأخير. بيد أن مآدب العصور الوسطى لم تختلف كثيرا عن المآدب فى اليونان وروما، فمثل الكثير من الناس حول العالم، ربط اليونانيون القدماء بين الولائم والتضحية بالحيوانات (مؤكدين بهذا التسلسل الغذائى). إن العشاء الأخير ذاته وجبة للأضحية، عشاء عيد الفصح اليهودى الذى أصبحت أضحيته رمزا للمسيح الذى قبضت عليه السلطة الرومانية فى نفس الليلة وقتلته اليوم التالى.

أكثر ما يربط بينه سترونج وبين مائدة المسيح هو انبعاث الأخلاق، متمثلة فى التحضير الفائق للمكان والاحترام الشديد الذى كان يبديه رهبان العصور الوسطى:

كان الرهبان يجتمعون ويغسلون أيديهم ثم يدخلون قاعة الطعام. أمام كل راهب، كان هناك سكين وقدح وقطعة من الخبز مغطاة بقطع من القماش. كانت الأقداح تحمل بكلتا اليدين ولا تنظف الأصابع، ولكن بقطعة من القماش، وكان ينبغى بداية مسح الأصابع والسكاكين بقطعة من الخبز، ثم بمنشفة المائدة، وكان الملح يؤخذ بطرف السكين ولا يتم مناولة أى شىء دون الانحناء المتبادل تعبيرا عن الاحترام.

عند انتقاله مباشرة من هذه الرؤية الهادئة إلى قاعة ولائم الفايكنج، يوضح سترونج بجلاء أنه لا ينبغى علينا انتظار اتباع آداب المائدة بعد، لكن الشهامة لتأتى بآثارها فى النهاية، فبحلول عام ١٢١٥، وضع إيطالى من تريستا يدعى توماسينو دا سركلاريا ١٥٠٠٠ سطر من الشعر لترويض الأخلاق الألمانية على المائدة:

ينبغى للرجل أن يكون حريصا
ألا يضع الطعام
على جانبى تجويف الفم
وأن يحترس عندئذ
من تناول الشراب والحديث
بينما هناك شىء فى فمه

فى الجيل التالى، وصل التهذيب حد كون التمخط فى منشفة المائدة واستخدام السكين لتنظيف ما بين الأسنان، وهو مازال يحدث هنا وهناك، من التصرفات غير الطيبة.

بحلول القرن الخامس عشر، أعاد إحياء الاهتمام بالأعمال الكلاسيكية اليونانية والرومانية مرة أخرى الأفكار الكلاسيكية لتناول العشاء، خاصة بين الإيطاليين، وليس من المدهش أن نجد مآدب مقاطعة برجندى فى ١٤٦٨ للاحتفال بزواج شارل الشجاع من مارجرت أميرة يورك، كانت ثورة فى الطعام.

لقد دخل الضيوف ليجدوا خمسة عشر من طيور البجع المطلية بالذهب وستة بالفضة، ترتدى كل منها رباط نوط الصوف الذهبى ورمز كل فارس، وكانت المائدة تضم تشكيلة من الأفيال تحمل قصورا، وجمال تحمل سلالا كبيرة وأيائل وأحاديات القرن، كلها من الذهب والفضة واللازوردى، ومملوءة بالحلوى، وكل شكل يحمل راية شارة مقاطعة الدوق.

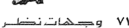
وفرت مآدب عصر النهضة لسترونج الكثير من الحكايات، خاصة فى روما وحيث تحولت مآدب العشاء الفاخرة إلى نوعية بذاتها، ولم يستطع الباباوات أو الكرادلة مضاهاة حفلات العشاء التى كان يقيمها ثرى سيينا، أجوستينو شيجى، التى كانت استراتيجيته الماكرة وأمواله التى لا تحصى تدعم المشروعات العظيمة للبابا يوليوس الثانى والبابا ليو العاشر فى العقدين الأول والثانى من القرن السادس عشر. لقد كان شيجى يتباهى باتصالاته بالسلطان باجازيت الثانى بامتطاء الجواد الرائع الذى جاءه هدية من الباب العالى، وبتقديمه صلصة ألسنة الببغاوات القادمة من القسطنطينية فى حفلاته الليلية.

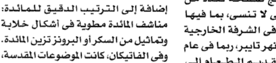


يكرس سترونج صفحة لعدد من مآدب شيجى التى لا تنسى، بما فيها تلك التى أقيمت فى الشرفة الخارجية الخاصة به بجوار نهر تايبر، ربما فى عام ١٥١٤. فقد تم تقديم الطعام إلى الكرادلة الذين حضروا فى أطباق من الذهب تحمل رموزهم، وكان يتم إلقاؤها فى النهر بعد الانتهاء مما فيها. لكن شيجى الذى كان من كبار المخادعين طبقا للتقاليد التسكانية، كان قد مد الشباك تحت سطح المياه لجمع الأطباق مرة أخرى. فقد أجوستينو أحد عشر إناء فضيا يظن أنها تم إخفاؤها أسفل الملابس الفضفاضة لأحد الكرادلة البدناء. ومن السخرية أن خطابات شيجى تكشف كونه رجلا ذا ذوق عادى فى الطعام، فيبدو أنه لم يرق له أكثر من ثمرة كمثرى طيبة والجبن الطازج الملفوف فى نبات يدعى رافيجيللو.

مهما تمت دراسة التاريخ الكلاسيكى لمآدب عصر النهضة، فهى تختلف جذريا عن سابقاتها القديمة فى وجه واحد وهو انتصار السكر الذى جىء من العالم الجديد وجزر الكنارى فى انتشار مستمر، فمنذ بداية القرن الخامس عشر تم تشكيل السكر على هيئة تماثيل مدهشة كانت تسمى تريونفى. كذلك شق المسحوق الحلو طريقه إلى أطباق المائدة، حيث بدأ وجوده يغير من خامات الطهى الأوروبى من الجمع القديم بين اللحوم والصلصات الحلوة، إلى التناقض الأكثر وضوحا بين الحلو والمذاق اللذيذ. وفى نفس الوقت تقريبا بدأ ظهور الشوك، بداية فى إيطاليا ثم فى بقية أوروبا (بالرغم من صعوبة تخيل هنرى الثامن يستخدم شيئا بهذه الرقة، فحتى الملكة اليزابيث كانت تكتفى باستخدام سكين للتذوق).

جاء منتصف القرن السابع عشر بالقهوة والشاى والشكولاته والشمبانيا، إضافة إلى الترتيب الدقيق للمائدة: مناشف المائدة مطوية فى أشكال خلابة وتماثيل من السكر أو البرونز تزين المائدة. وفى الفاتيكان، كانت الموضوعات المقدسة، مثل حب المسيح، قد تظهر فى ترايونفى من السكر وسط الكنابيه، وكذلك كانت المناظر الأسطورية أحيانا، مثل الطفل هرقل يخنق الثعابين. أصبحت طاولة المأدبة منظرا طبيعيا، أو مسرحا بذاتها، كما كان من الممكن أن تصبح مسرحا للأزمات الدولية كما حدث عندما التقى البابا ألكسندر السابع عام ١٦٥٥ فى البورتا دال بوبولو فى روما بالملكة السويد كريستينل التى تحولت حديثا إلى الكاثوليكية. كان ألكسندر يتطلع بشغف إلى اللقاء، فقد كانت تحول الملكة وتنازلها عن عرش السويد يعده بحليف قوى جديد للكاثوليكية، ولكنك كريستينا لم تكن كما توقع البابا تماما. لقد كان هو رجلا إيطاليا فى النهاية (من نفس عائلة أجوستينو شيجى)، ولابد أنه كان ينتظر محاربة شقراء، لكنه بدلا من هذا ينعى فى مذكراته ملكة صغيرة الحجم وداكنة البشرة وبارزة العينين بتعليق: «إنها ليست جميلة». وعندما اصطحبها معه إلى المأدبة، شكت أن منضدتها أقل ارتفاعا من منضدته، ورفضت الجلوس إلى المائدة





إن العلاقة بين الولائم والسلطة قد تكون فى مثل قدم ووضوح سلسلة الغذاء نفسها، ولهذا اثبت هذا الموضوع أنه سيستمر للأبد فى كونه آسرا بالنسبة إلى الحيوانات الإنسانية التى تكدح



حتى تم تقديم الطعام لهما على منضدتين متساويتى الارتفاع.

بسبب قصص لا نهاية لها كتلك، ومع وصول رواية سترونج إلى عصر التنوير، افسحت طقوس المأدبة الملكية، بنغمتها الخاصة بالأضحية والدينية، أفسحت الطريق للرسميات المدروسة الخاصة بمدام دو بومبيدور، حيث يمكن للحوارات الذكية أن تحل محل المراسم التى لا نهاية لها، وأن يتخلص الملك من بعض أجواء الإلهية، وتبدأ حفلات العشاء التى نعرفها فى التكون. كذلك انتشر هذا بين صفوف الطبقة البورجوازية المتزايد فى الاتساع، وعلى عكس رجال الأعمال الرومانى تريمالشيو أو أوجستينو شيجى، الذى كان وضعه كمصرفى متاجر محل استخفاف من قبل المتعجرفة الأولى إليزابيث حونزاجا، فإن مضيفى ومضيفات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انحدروا من قطاع عريض من المجتمع. مستهلكين غير خجولين، استثمروا الكثير فى كتب اللياقة والطهى والنكهات المتطورة للأيس كريم والهلام اللحمى ووضع الشموع على الموائد.

كيف يمكن إن ينتهى كل هذا إلى كلأ، ونظم غذائية سريعة ووجبات سريعة التجهيز وفقد الشهية؟ حتى وجبات العشاء التى كان يتم تناولها أمام التليفزيون فى الخمسينيات على صوان خاصة بالتليفزيون كانت لها أماكنها الخاصة، كانت لها فضيلة التجربة الجماعية. الآن سلكت صوانى التلفزيون فى نفسك طريق طاولة العشاء لتصبح أثرا من آثار عصر أكثر بهجة. لقد كان حدثا ذا أهمية محلية كبيرة أن يتناول هنرى الثامن العشاء بمفرده أمام جمع هائل من الخدم والرعية، ولكن بالنسبة لم يتناول الطعام بمفرده، فإن كلمات سترونج: «لم يعد لفظ وليمة يبدو ذا قيمة». ربما هذه هى أكثر نقاط هذا الكتاب تسلية: فهو يتتبع تاريخ تجربة نخاطر الآن بفقدها برمتها، تجربة مجتمع، تجربة إنسانية مشتركة، كانت محورية بالنسبة لتجربتنا المجمعة على امتداد الفترة التى نتذكرها. إن أحد أكثر التقاليد الإنسانية تحملا، تبدو الآن أكثر وهنا مما نتخيل. ■

هامش:

الهاجس: طبق إسكتلندى مكون من خليط مفروم من قلب ورئة وكبد خروف أو عجل صغير مع البصل والدهن والدقيق والتوابل ويتم غلى كل ذلك فى معدة الحيوان المذبوح.



ما يجيش زيى إن لف الكون

محمد يونس القاضى

ميجيش زيى إن لف الكون — دنا أبويا توت عنخ آمون

اسأل التاريخ ينبيك — عن مجدنا وبعدين أمشيك

إنت تغر الناس حتاويك — وأنا أبويا توت عنخ آمون

ظهرت غرايب فى الآثار — تخلى جميع الناس تحتار

ووصفى كم حير أفكار — وأنا أبويا توت عنخ آمون

وعمر قلبى إن كان يرتاح — إلا إن رجع مجدى اللى راح

وأعمل سياسة السلام سلاح — وأنا أبويا توت عنخ آمون

بإيه تزيد إنت على — وبلادى مهد الحرية

ومصر أم المدنية — وأنا أبويا توت عنخ آمون



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

المولوخ: إله الشر
تاريخ الولايات المتحدة
كارلهاينتس دشنر
ترجمة: محمد جديد
مراجعة وإعداد: زياد منى
دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٤ «طبعة ثانية»، ٥٧٨ صفحة، ١٥ يورو



المولوخ، كما تفيد التوراة، إله الأشرار أو الخبثاء.. هو إله الكنعانيين والعمونيين، هو الوثن الذى يذبح على مذبحة البشر.

وفى هذا الكتاب، يبدو المولوخ وكأنه المرجعية التى تستند إليها الولايات المتحدة الأمريكية فى سياساتها، وأسلوب الحياة فيها، وطريقة إدارتها لعلاقاتها الخارجية، فمنذ وجدت الولايات المتحدة وهى تحمى العنف.. والناس هناك يدينون له بكل شىء، فالمزرعة والمدينة والدولة والأمة نشأت من رحم العنف الذى بدأ مع جيل الرواد والمستوطنين الذين أزالوا كل ما كان يقف فى طريقهم، ولم يقتصر هذا على السكان الأصليين الذين سلبوهم كل شىء ولا على الطبيعة التى نهبوها من أجل منفعتهم وحدهم فقط، بل شمل أيضاً جيرانهم المسيحيين من منافسيهم فى طلب الرزق، لأن كلا منهم كان أخاً لنفسه فقط، وكل امرئ آخر عداه خصماً وعدواً تجب محاربته بلا هوادة إذا تعارضت مصالحهما.. فهؤلاء قاموا باستئصال الهنود الحمر بالقتل، وبطرد الهولنديين والبريطانيين والأسبان والفرنسيين، حتى قامت الحرب الأهلية التى شهدت أهوالاً رهيبة، واستمر هذا التاريخ الدموى بأعمال المستوطنين الإجرامية الدائمة، وبالقتال من أجل الأعمال، وفظائع الشرطة، والفظائع ضد الشرطة، وجرائم القتل التى ترتكبها العدالة، وجرائم القتل من دون محاكمة قانونية، وبالحروب العائلية.. وكل هذا دعا الكثير من المؤرخين الأمريكيين إلى القول بأن: الأمة الأمريكية تنزع إلى العنف وأنه لا سبيل إلى إصلاحها.

وبجانب هذا العنف هناك سمة أخرى تميز تاريخ الولايات المتحدة وهو ما أمكن أن يسمى بـ الزحف التوسعى الذى لم يكن له مثيل، ورغبات لا تشبع فى امتلاك الأرض والسلطان والأسواق، وجوع يدفع هؤلاء الأمريكيين إلى قارات ومحيطات يستأصلون من أجل السيطرة عليها السكان الأصليين، باستخدام النفوذ الدبلوماسى والمالى والاستثمارات الخاصة والقروض الحكومية وألوان الحظر الاقتصادى، وإقامة قواعد عسكرية واستخدام الأسلحة فى البحر والبر والجو وبالحرب فى الشمال والجنوب.

ورغم أن تاريخ الولايات المتحدة لم يشهد استعماراً لدول العالم الثالث كما فعل الأوروبيون المتوحشون، إلا أن سياستها كانت تعتمد على القرصنة للاستيلاء على ثروات العالم والسيطرة على مناطق المواد الخام فى مزارع أمريكا الوسطى وموارد أمريكا اللاتينية، ومنابع النفط فى الخليج العربى والنحاس فى تشيلى والجوت فى الهند والمطاط فى إندونيسيا.. فالمولوخ الأمريكى ينتشر فى كل أركان الأرض بدون أن يضع حداً لشراهته ونهمه أو سقفاً لطموحاته الشريرة أو حدوداً لنفوذه، فهو يبعث بقواته إلى الخارج مع دبلوماسييه ومبشريه ومصرفييه ودون أن يتورع عن الكذب والتهديد وشراء الذمم بالرشاوى أو ارتكاب جرائم القتل الخبيثة، من أجل تحقيق منفعته الخاصة وخدمة أهداف قومية لا يتورع صانعوها عن عقد أقذر الصفقات فى سبيل تحقيقها.

■

اليوم الأول
قبل هيروشيما وبعدها
بيتر وايدن
ترجمة: هاشم حبيب الله
أبو ظبى: المجمع الثقافى، ٤٦٢ صفحة، ٥٠ درهماً



يحكى هذا الكتاب قصة مدينة هيروشيما حين دوت صفارات الإنذار فى سمائها طويلاً، مشيرة إلى انتهاء الغارة عند الساعة السابعة والنصف من صباح يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥. ولم يدر سكانها أن طائرة أمريكية ستحمل لهم مفاجأة مروعة فى الساعة الثامنة والربع من صباح ذلك اليوم الحار الرطب، حينما أحالت إحدى الطائرات الأمريكية التى تحمل أول قنبلة ذرية فى التاريخ هذه المدينة إلى قطعة من الجحيم.

سقطت القنبلة فوق مستوصف الدكتور «شيما»، وفى ثوان تبخر المستوصف بمن فيه، ومات ٨٨٪ من الذين كانوا متواجدين فى دائرة قطرها ١٥٠٠ قدم على الفور. وفقد الباقون منهم حياتهم فى الأسابيع أو الأشهر التالية بسبب الإشعاع.

يستعرض الكتاب من ناحية ثانية الإصرار على إنتاج هذه القنبلة الوحشية، وكيف كانت هى الحل السحرى لدى العديد من السياسيين الأمريكيين لإخراج اليابان من الحرب، دون التورط فى هجوم عسكرى تقليدى لاحتلال اليابان ومواجهة مقاومة عنيفة من اليابانيين المتعصبين!

ويقول المؤلف إن التاريخ النووى الأمريكى يظهر أن رؤساء أمريكا ظلوا دوماً يقعون بسهولة فى مصيدة المتحمسين للأسلحة الفتاكة، وظلوا يفتقرون إلى القدرات والمهارات الفنية اللازمة لتقييم أخطار الاستخدام السيئ للتكنولوجيا فى مجال التسليح. وهو الأمر الذى يتطلب البحث عن آلية تنظيمية جديدة عبارة عن هيئة صارمة محايدة تعمل باستقلالية عن الرئيس وقيمه النسبية، وتقدم للناخبين والرأى العام الصورة واضحة وكاملة بكل المخاطر والمكاسب، حتى يتاح للجماهير الحق فى الاختيار الواعى بين المكاسب قصيرة المدى، والمخاطر البعيدة المدى.

ويؤكد المؤلف أن الدرس المستفاد من هيروشيما هو طرح قضية: العقل مقابل الإبادة.. بعد أن جاء الفجر النووى بوعد كاذب يحمل الدمار للإنسانية وللعقل البشرى.

■

اقتسام العالم
كبير مصطفى عمّى
ترجمة: د. على نجيب إبراهيم
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ١٣٩ صفحة



فى هذه الرواية، تنصهر ثقافتان: العربية حيث تدور أحداثها فى المغرب.. والفرنسية حيث تمت كتابتها بهذه اللغة بكل تأثيراتها الثقافية والجمالية على المؤلف.

بطل الرواية طفل فى العاشرة من عمره لم يتحرج لحظة واحدة فى أن يبوح بكل ما يدور فى خلده، من طفولة قضاها فى مركز الأيتام، والسرقة والتسول والعمل فى السياحة، حتى أحلامه فى عبور البحار والمحيطات بحثاً عن الفردوس الأوروبى.

والمسار العام للأحداث يشى بما يشبه السيرة الذاتية للمؤلف والتى يكتبها بطله «إبراهيم» فى رسالة موجهة إلى شخص يعرفه، ونتبين فيما بعد أن هذا الشخص هو رئيس الجمهورية الفرنسية، ثم يكتشف القارئ أن الرسالة لم تكتب وبالتالى لم ترسل، بل بقيت تدور فى فلك أفكار الطفل المغربى الذى يحلم مثل كل أحلام فقراء العالم، بشىء من العدالة على الأرض.

ورغم ذلك فقصة إبراهيم لم تكن لتعكس سيرة المؤلف بل هى صورة فنية تسبر غور أولئك الباحثين عن فردوس مفقود، الذين يموتون فى عنابر السفن أو يبلغون شواطئ أوروبا ليكابدوا ما هو أفظع من الموت، حيث تطفو قضاياهم على السطح تماماً مثلما تطفو جثثهم المبعثرة على الشواطئ.

■

الحكاية الشعبية.. دراسة فى الأصول والقوانين الشكلية
سامى عبد الوهاب بطة
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤، ٣٠٢ صفحة



لعبت الحكاية دوراً مهماً فى حياة الإنسان منذ وجوده على ظهر الأرض وتكوينه لمجتمعات بدائية، فهى أعرق الفنون على وجه الإطلاق، واجه بها الإنسان الأول غربته، ورسم من خلالها أفكاره وخواطره، كما جسد بها أيضاً كل رؤاه عن الكون والبشر والمخلوقات المشاركة له فى الأرض، وجسد فيها توجهه، وبهجته وأحلامه وآلامه.

وكما يقول أديبنا الكبير خيرى شلبى كانت الحكاية هى أول مصادر الأنس فى الوجود.. وفى القول المأثور: فى البدء كانت الكلمة، وما إن وجدت الكلمة حتى تكونت الحكاية فى الحال.. والحكاية هى مأثور الكلمة وتاريخها ومضمونها، والحكاية بالضرورة شعبية فى المنشأ والاتجاه.

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين، رصد المؤلف فى قسمه الأول عبر خمسة فصول: الأصول الأسطورية للحكاية الشعبية، وأنواعها، والقوانين الشكلية والموضوعية ودراسات تطبيقية، والبطل فى الحكاية الشعبية.

أما فى القسم الثانى فقدم مجموعة من نصوص لحواديت شعبية بعضها مشهور وبعضها غير معروف.

■

التلميذة الخالدة

أحمد الصاوى محمد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤، ٢٣٨ صفحة، ٣ جنيهات



التلميذة الخالدة هى «مدام كورى» ١٨٦٧ - ١٩٤٣ العالمة الفرنسية العبقرية الشهيرة والتى نالت جائزة نوبل مرتين: الأولى عام ١٩٠٣، والثانية عام ١٩١١.

وفى هذا الكتاب يقدم الصحفى والأديب الراحل أحمد الصاوى محمد قصة كفاح مدام كورى على المستوى العلمى والإنسانى والعاطفى. وقد اعتمد الصاوى فى كتابه على مصدر رئيسى هو ما كتبته «إيف» بنت مدام كورى عن أمها فى كتاب فرنسى نال شهرة عالمية لما تضمنه من دقة علمية وأسرار غير معروفة وأسلوب يأسر القلوب.

كانت قصة حياة مدام كورى أشبه بالأسطورة التى بدأت أول فصولها عندما شعرت أن نداء قويًا يدعوها إلى مغادرة وطنها «بولونيا» لتدرس فى باريس حيث عاشت سنين فى وحدة وإملاق، ثم التقت برجل عبقرى مثلها فتزوجته، ويهبان حياتهما للعلم حتى اكتشفت هى وزوجها «بيير» عنصر الراديوم الذى كان إيذانًا بمولد علم جديد وفلسفة جديدة، كما هيأ للجنس البشرى كله سبيل علاج ناجع لداء فظيع.

وعندما خطف الموت زوجها ورفيق حياتها وعملها فى طرفة عين، مضت مدام كورى تمارس عملها رغم جزع القلب وأوجاع البدن دون أن تأبه للمال أو الحياة الثرية.

وحينما ماتت مدام كورى التى كان اسمها «ماريا سكودوفسكى»، كانت ابنتها إيف تؤكد أن أمها كانت طوال حياتها هذه الطالبة الفقيرة المسحورة بالأحلام الكبيرة التى لم تفسدها الشهرة أو المجد.

■

الليـــل

محمد ملص

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ٩٩ صفحة



فى هذا الكتاب يقدم المخرج السورى محمد ملص ما يمكن أن نطلق عليه: سيناريو أدبى.. يجمع ما بين سحر السينما ولغز الكتابة حيث تشتعل الصورة السينمائية على الورق.

وفى عالم الليل حيث تختلط الأحلام بالانكسارات بالأصوات الغامضة والتحليلات الصاخبة، استقى ملص مادة شغله على نصه، وهو يريد أن يغوص كل منا فى أرق الليل ليكتشف نفسه فى سحر القراءة.

كل هذا من خلال كتابة سينمائية مغايرة تتجول بوعى وبحرية معًا فى الأساطير المنتقاة من كتب الأولين والحكائين الكبار وسط سكون الليل ببرده الذى لا يخلو من زخات الأسئلة وربما المطر أيضًا.

■

حيونة الإنسان

ممدوح عدوان

دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٤ «طبعة ثانية»، ٢٢٤ صفحة، ٧ يورو



يبحث هذا الكتاب فى عالم القمع، المنظم منه والعشوائى، الذى يعيشه إنسان هذا العصر.. وهو عالم لا يصلح للإنسان ولا لنمو إنسانيته، بل هو عالم يعمل على «حيونة الإنسان» أى تحويله إلى حيوان، كما يقول المؤلف.

فحين نتلمس حجم خسائرنا فى مسيرتنا الإنسانية، سندرك أنه سينتهى بنا الحال إلى أن نصبح مخلوقات من نوع آخر كان اسمه «الإنسان»، من دون أن يعنى هذا تغييرًا فى شكله، فالتغيير الأكثر خطورة هو الذى جرى ويجرى فى بنيته الداخلية: العقلية والنفسية.. طالما أن عمليات القمع والإذلال والاستغلال قائمة ومستمرة. وإذا كان الأمر كذلك، فكم فقدنا من كرامتنا وتضامننا الإنسانى، وإحساسنا بإنسانيتنا حتى صرنا نتعود على الإذلال المحيط بنا، لنا ولغيرنا؟! وحتى صرنا نقبل هذا العنف والتعامل غير الإنسانى الذى نعامل به نحن أو يعامل به غيرنا على مرأى منا. وينعكس تعودنا على هذا الإذلال فى أننا صرنا نعتبر تعذيب السجين أمرًا مفروغًا منه، لم نعد نتساءل عن أثر ذلك التعذيب فى السجين الضحية، حتى بعد خروجه من السجن، كما أننا لم نعد نتساءل عن أثر التعذيب فى منفذه، وهل يستطيع بسهولة أن يعود إلى حياته اليومية العادية بعد خروجه من غرفة التعذيب.

وباعتراف المؤلف نفسه، فإنه تناول هذا الكتاب بعقلية الأديب بمزاجه وأسلوبه، لا بعقلية الباحث وبمنهجيته العلمية الدقيقة، وربما هذا ما أعطى الكتاب روحه النبيلة التى تتمسك بضرورة عودة الإنسان إلى إنسانيته التى كاد أن يفقدها للأبد.

■

آفاق فلسفة عربية معاصرة

د. أبو يعرب المرزوقى - د. طيب تيزينى

دمشق: دار الفكر، سلسلة «حوارات لقرن جديد»، ٣٣٤ صفحة، ٢٠٠ ليرة سورية



هل يمكن إنشاء فلسفة عربية معاصرة ومميزة عالميًا؟.. هذا هو السؤال الكبير الذى يطرحه هذا الكتاب، ويحاول البحث عن إجابته من خلال محاورة بين مفكرين عربيين مرموقين فى مجال الفلسفة، يخوضان فى ثنايا هذا السؤال، لاستخلاص أنساق فكرية تصلح لتيار فكر عربى أصيل ومتميز.

وبين فصول هذه المحاورة يطرح المؤلفان عددًا من الأسئلة الصعبة مثل: ما الذى يحول بيننا وبين النظر العقلى الفلسفى؟.. هل هو الغرب الذى نلهث وراءه فى كل صغيرة وكبيرة؟ أم هى طبيعة تفكيرنا غير العقلانية أم أن لغتنا ليست لغة فكر وثقافة؟ أم لأن المفكرين الإسلاميين قد أضاعوا الفرصة بالسعى وراء تعقيل الدين وتديين العقل؟

وتتبدى قيمة الكتاب فى أنه يشدد على أهمية التواصل مع الفلسفة التى قدمها العرب المسلمون مع نهايات القرن الثانى للهجرة فى القرن التاسع للهجرة تاريخ وفاة آخر فلاسفة العرب ابن خلدون، خاصة أن المحاولة العربية الثانية للتفلسف بدأت مع بداية القرن التاسع عشر ولازالت مستمرة حتى الآن دون أن تحقق هوية خاصة بها..

ومع اتفاق مؤلفى الكتاب حينًا واختلافهما حينًا آخر، فقد استطاعا تقديم محاولة جادة لقدح زناد الفكر الفلسفى العربى الإسلامى، من أجل إنتاج فلسفة عربية معاصرة تتيح للإنسان العربى أن يتقدم بخطى ثابتة على هدى وبصيرة فى مواجهة تحديات شرسة تحاول اقتلاعه من جذوره وسلبه روحه وانتزاعه من تاريخه وهويته.

■

حقوق الأرض

سو جريج - جراهام بايك - ديفيد سلبى

ترجمة: إياد ملحم

أبو ظبى: المجمع الثقافى، ١٤٦ صفحة، ١٥ درهمًا



يحتوى هذا الكتاب على شهادات علمية حية عن القضايا المعاصرة التى تعكر صفاء هذا الكوكب، ونقاءه جراء ثقب الأوزون أو ارتفاع درجة حرارة الأرض أو الأمطار الحمضية، لتقدم هذه الشهادات فى مبتغاها الأخير: نموذجًا واضحًا لما ينبغى أن تكون عليه طريقة حياتنا فى التعامل البيئى السليم مع هذا الكوكب الجميل.

ينطلق الكتاب من حكمة بليغة تقول: إننا لم نرث الأرض عن آبائنا، وإنما نحن نستعيرها من أبنائنا.. ولكى نستمر فى الحياة على هذا الكوكب لابد من الحرص على صيانة خيراته بنفس القدر الذى نحرص فيه على ممتلكاتنا.. فالإنسان الذى يستنزف اليوم ثروات الأرض لن يجد فى الغد ما يقتات به.. كما أن هذا الإنسان مسئول أيضًا عن تزايد الاستهلاك وتكدس أطنان النفايات التى يصعب التخلص منها بطرق آمنة خاصة مع انتشار ما تفرزه المصانع من إشعاع وسموم وكيماويات وغازات وملوثات فى البلدان المتقدمة، إضافة إلى استعمال المخصبات والهرمونات لتعويض فقر التربة الزراعية.

كل هذا يفرض علينا أن نتوقف لمراجعة مفاهيمنا السائدة وسلوكياتنا الخاطئة، مع مراجعة قيمنا التربوية، ومناهجنا الدراسية، لإعادة التوازن بين مصلحة الإنسان وحقوق الأرض، للحفاظ على صحة هذا الكوكب وبالتالى صحة الإنسان.

ويؤكد الكتاب أن «التربية» تتحمل القسط الأكبر من مسئولية التغيير نحو تعامل أفضل مع الأرض، كما يقدم نماذج وطرق تدريس شيقة وعملية لتحقيق أهداف هذه التربية لتنمية قيم وسلوكيات صديقة للبيئة.

■

على ضفاف الشعر دراسة فى الشعر الليبى الحديث

صلاح الحداد

القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ١٥٢ صفحة



يقدم هذا الكتاب حكاية الشعر العربى الليبى الحديث على مدى قرن من الزمان، فى محاولة جادة وممتعة للوقوف على ماهيته، والتعرف على قيمته، وتحديد مساراته واتجاهاته، ورسم خطوط صعوده وهبوطه..

يثبت الكتاب أن ليبيا ليست بلداً عقيماً من الشعراء والأدباء، وأن شعرهم يرقى إلى مستوى معاناتهم وشعورهم الإنسانى حيث يأتى الشعر فياضاً رقراقاً صافياً عذباً من نفس صافية عذبة شقيت فى هذه الحياة وتعبت، وهذا هو الشعر الحقيقى، الذى ينبع من أعماق النفس الإنسانية فيترجم آلامها وآمالها.

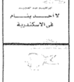
والشعر الليبى ليس بحاجة إلى شىء، بقدر ما هو بحاجة إلى تمازج أكثر بالثقافات الأخرى، وانفتاح أوسع فى التعبير والكلمات.

■

لا أحد ينام فى الإسكندرية

إبراهيم عبد المجيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٤٥٣ صفحة



لعبت الإسكندرية فى عالم إبراهيم عبد المجيد الروائى دوراً مركزياً، كانت خلاله مسرحاً لأحداث أغلب رواياته وقصصه القصيرة.

فالإسكندرية فى أدبه مدينة مصرية وأيضاً مدينة عالمية..

والعالمية فى أدب عبد المجيد تأتى من الصدق الفنى من خلال التعبير عن الحياة تعبيراً فنياً جيداً وصادقاً، ولا تأتى من خلال التوغل فى المحلية.

بل مَن خلال رصد الروح الإنسانية والتغيرات التى تتعرض لها فى إطار الحقبة التاريخية التى تناولتها أحداث الرواية كل صخبها السياسى والاجتماعى.

وهذه الرواية التى تقع أحداثها فى أتون الحرب العالمية الثانية ما بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٢، تدور عن الشيخ مجد الذى طرد من قريته فى دلتا مصر بقرار ظالم من عمدتها، ليلحق بأخيه البهى فى الإسكندرية، ويستقر فى منزل يملكه قبطى يلتحم معه ويبدأ فى مواجهة الحياة بكل صعوباتها.

وهو يطرح عبر الرواية تساؤلات تمس القلب والوجدان حول حيرة المهمشين بكل أحلامهم وانكساراتهم، وسط صراع دولى دام بين قوى عظمى، يفتح فى كثير من الأحيان أبواباً من الجحيم فى وجه هؤلاء الناس العاديين.

■

الحضارة الأوروبية فى عصر الأنوار

بيير شونو

ترجمة: سلمان حرفوش

دمشق: دار كنعان، ٥٣٥ صفحة



فتحت عبقرية عصر الأنوار فى أوروبا إبان القرن الثامن عشر، دروب الثورة المعرفية أمام عصرنا الحديث فى جميع الميادين: العلوم النظرية، الثورة الصناعية، الاكتشافات الكبرى، العمارة، الفنون، المواصلات البحرية والبرية، الفلسفة، والأدب، اللاهوت، اللغات، الصناعة، التجارة، الزراعة.. وغيرها الكثير.

وفى هذا الكتاب يقدم مؤلفه دراسة موسوعية شاملة حول عصر الأنوار فى القرن الثامن عشر وعلاقته بأحداث القرن السابع عشر الذى شهد تحضيرات لثورات كبرى فى أوروبا مع سيادة العلم والنزعة إلى العقل فى تفسير المتغيرات الاجتماعية، وأيضاً تأثيرات هذا العصر على زماننا الحاضر.

يقول المؤلف إن أوروبا الأنوار حكمت علينا بالنمو المتواصل وخوض أقسى المغامرات، مثلما سحبت منا اختيار الرجوع إلى الحياة البدائية، وحتى وهم العودة المستحيلة إلى حضن الأمومة.

ولم يعرف التاريخ مثل تلك الحقبة التى هى على حد سواء بداية ونهاية.. هى بداية النمو المتواصل، مثلما هى نهاية مجتمع تقليدى.

كانت المعرفة والأخلاق فيه تنتقل من جيل إلى جيل بالمشاهدة والسماع، وهى غاية العالم المسيحى، الذى كان القرن السادس عشر قد أجهز عليه على مستوى الأمراء إبان زمن الإقطاع، وأعاد القرن السابع عشر الروح إليه وسط شعب تكاثر عدد أفراده.

■

القدس.. سيرة مدينة

خالد محمد غازى

القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٤، ٣٦٤ صفحة



دفاع شرس ونبيل تخوضه سطور هذا الكتاب، دفاعاً عن عروبة القدس ضد المحاولات الصهيونية لتهويدها وطرد الفلسطينيين منها.

يتساءل المؤلف فى مقدمة الكتاب: لماذا يقبل العرب بعد أكثر من ١٤٠٠ عام من عروبة القدس تهويد المدينة راضين بالصلاة تحت الحراب الإسرائيلية فى الأقصى الأسير، وتحت حصار الكنائس، ويتيدون بما يتوهمونه سلاماً.. مصيراً مشكوكاً فيه، ومستقبلاً يكتنفه الغموض.

يعود تاريخ نشأة القدس إلى أكثر من ٣ آلاف عام قبل الميلاد، ويذكر علماء الآثار والتاريخ أن إحدى القبائل الكنعانية. العمورية. التى نزحت من الجزيرة العربية هى التى أنشأت المدينة، والتى تبدلت عليها القبائل والأجناس واللغات والحضارات، كما أن اليبوسيين العرب هم أول من أحاطوا المدينة بالأسوار وكان ذلك عام ٢٥٠٠ق. م.

يتتبع الكتاب تاريخ القدس مؤكداً أن الوجود اليهودى بها كان وجوداً عابراً، بجانب الوجود العربى الأول والآشورى والبابلى والفارسى واليونانى والرومانى، إلى الفتح الإسلامى، كما يلقى الضوء على الغزو الصليبى للمدينة، حتى حررها صلاح الدين بعد معركة حطين عام ١١٨٧، ثم تولى المماليك حكمها فى القرن الثالث عشر، وبعدهم الأتراك العثمانيون، إلى محاولات الاستيطان اليهودى التغلغل فى فلسطين والقدس والذى ارتبط بالمشاريع الاستعمارية البريطانية فى المنطقة.

وفى فصل بعنوان «المقدسات الدينية فى القدس» يؤكد الكتاب أنه ليس لليهود فى القدس أثر يهودى مقدس بارز إلا حائط المبكى وبعض كنائس حديثة العهد بالإضافة إلى بعض القبور، أما الآثار المسيحية بالمدينة فهى كثيرة نظراً لأن المسيحيين تواجدوا بأعداد غير قليلة فى القدس عبر العصور، وهناك كنيسة القيامة ودير السلطان وعشرات الكنائس الأخرى للعديد من القديسين.

أما المقدسات الإسلامية بالقدس، فقد بدأت منذ أن اتخذ المسلمون بيت المقدس قبلة لهم قبل أن يولوا وجوههم شطر مكة فى السنة الثانية للإسراء والمعراج. ومن أبرز هذه المقدسات المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة وعشرات الجوامع والزوايا.

وفى فصل تال يحذر المؤلف من خطر المستوطنات على تقويض الهوية الإسلامية والعربية فى المدينة التى لا توجد أى مدينة مماثلة لها فى العالم كله تحتوى على هذا العدد من المقدسات للديانات الثلاث، كما يحذر أيضاً من المؤامرات الصهيونية لتدمير المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المشرفة.

يضم الكتاب كذلك عدداً كبيراً من المقالات حول المدينة كتبها رجال دين وسياسيون وأساتذة قانون دولى، تؤكد عروبة القدس وضرورة التصدى للمخططات الصهيونية الرامية لاقتلاعها من جذورها العربية وهويتها الإسلامية السمحاء.

■

أنثوية العلم

د. ليندا جين شيفرد

ترجمة: د. يمنى طريف الخولى

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٤



الفلسفة النسوية من أهم تيارات الفكر الغربى الراهن والفلسفة المعاصرة. وظهرت فلسفة العلم النسوية كاتجاه واعد بالجديد فى فلسفة العلوم، يرفض اعتبار التفسير الذكورى المطروح هو التفسير الواحد والوحيد للعلم، فليس الرجل هو الإنسان، وليست الذكورية مرادفة للإنسانية، وليست المرأة جنساً آخر أو نوعية أدنى من البشر. الذكورة والأنوثة هما الجانبان الجوهريان للوجود البشرى، لكل منهما خصائصه وسماته ودوره، وتتكامل جميعها فى سائر جوانب الحضارة الإنسانية، وعلى رأسها أمضى الجوانب وأشدها فاعلية وحسماً، أى العلم.

وحين نكشف النقاب عن حقيقة العلم والممارسة العلمية، العلم بوصفه كياناً تتكامل فيه سائر الخصائص الإنسانية الإيجابية، الذكورية والأنثوية على السواء، وليس الذكورية فقط كما هو سائد الآن، سوف يغدو العلم أكثر جاذبية وكفاءة، يؤدى إلى حصائل أكثر سخاء وتوازناً وأقل أضراراً جانبية. من قبيل تدمير البيئة وتصنيع أسلحة الدمار الشامل، واتخاذه أداة لقهر الثقافات والشعوب الأخرى.

لا يطرح الكتاب تفسيراً نسوياً مقابلاً، بل يعمل على اكتشاف الأنثوية كجانب جوهرى للعلم، لابد أن يقوم بدوره فى صياغة قيم العلم وأهدافه ومناهجه وشرائع ممارسة البحث العلمى.

■

الشامل فى الصناعة الطبية الأدوية والأغذية: كتاب الهمزة (الجزء الأول)

علاء الدين «ابن النفيس» القرشي
تحقيق: د. يوسف زيدان
أبو ظبى: المجمع الثقافى، ٢٧٥ صفحة



هذا الكتاب، هو أكبر موسوعة علمية فى التاريخ الإنسانى يكتبها شخص واحد، فالكتابة العلمية اتجهت منذ بداياتها الأولى إلى شكل الرسائل القصيرة والفوائد الموجزة. وقد كان العلاء القرشي امتداداً للتقاليد الطبية التى أرساها من قبله إعلام من نوع الرازى وابن سيناء، وإن كانت علاقته بالأخير أقوى وشروحه على مؤلفاته أكثر.

ولد العلاء فى دمشق فى السنة السابعة من مطلع القرن السابع الهجرى، فى فترة اهتزت فيها الخلافة العباسية تحت وطأة مؤامرات القصور وتهديدات المغول الذين دخلوا بغداد عام ٦٥٦ هجرية.

ويقول محقق الكتاب د. يوسف زيدان أن الكتب الثمانية والعشرين من موسوعة الشامل المخصصة للأغذية والأدوية المفردة أضخم عمل صيدلانى فى تاريخ الإسلام والحضارات القديمة، وقد انطلق العلاء فى تناوله التفصيلى للأغذية والأدوية من النظريات التى انطلقت منها بحوثه وكتاباته الطبية الأخرى، كنظرية العلاج بالضد، والقوة الشافية الكامنة فى الجسم وغيرها.. كما انطلق من قاعدة منهجية مفادها أن الطبيب يهتم من النباتات بأفعالها فى بدن الإنسان، لا بخواصها من حيث هي نباتات، فهذا عمل الطبيعيين لا الأطباء.

ويوضح المحقق أنه مع ضخامة الموسوعة وبلوغ صفحاتها الألوف، إلا أن مؤلفها ظل دوماً حيوى الأسلوب متدفق العبارات مع حرص شديد على استعمال الألفاظ السهلة الواضحة.

هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة

د. عبد الرحمن على الحجر
أبو ظبى: المجمع الثقافى، السلسلة الأندلسية، ٢٩٠ صفحة



يتتبع هذا الكتاب مسيرة العلماء العرب فى الأندلس والذين هاجروا منها قبيل وخلال وبعد سقوط غرناطة، ويبين ظروف هذه الهجرة والتى كان لها تأثيرات سلبية خطيرة على الوجود الإسلامى فى أوروبا.

وقد رصد المؤلف أسماء ثلاثة عشر عالماً عربياً هاجروا من الأندلس، مستعيناً بالعديد من المخطوطات والكتابات التاريخية، وهو لا يستبعد وجود علماء آخرين قتلوا خلال سقوط غرناطة أو المدن والقرى التى أحرقت، أو الذين رفضوا التنصير فواجهوا القمع والموت من خلال محاكم التفتيش.

يلقى الكتاب الضوء على الأوضاع السياسية والاجتماعية فى الأندلس، وكيف تخاصم أمراء الممالك الإسلامية هناك واستعانوا بأعدائهم وبطانة تضمر لهم الشر، فأدى ذلك فى النهاية إلى خروجهم كلهم من الأندلس بعد ثمانية قرون من الوجود الإسلامى والحضارة الإسلامية التى قدمت للإنسانية لا للأندلس فقط إعلاماً وعلماء فى كل مناحى المعرفة.

دوريات

فنون مصرية

القاهرة: وزارة الثقافة، العدد الأول، يوليو ٢٠٠٤



فى طباعة أنيقة فاخرة، صدر العدد الأول من مجلة فنون مصرية الفصلية التى تصدرها وزارة الثقافة، برئاسة تحرير الكاتب الصحفى منير عامر الذى نجح فى أن يقدم للقارئ مجلة شديدة التميز والحرفية تمثل اضافة حقيقية فى عالم الفنون والثقافة.

تصدر العدد كلمة من الوزير فاروق حسنى أوضح فيه طبيعة المجلة باعتبارها «خلاصة جامعة لجماليات الثقافة المصرية بخاصة تلك التى لا تجد نوافذ ناشرة لخصائصها وسماتها واسهاماتها».. أما كلمة التحرير فقد أشارت إلى أن صفحات المجلة مغامرة مصرية تؤكد من جديد القدرة على أن تتعانق البساطة مع الرصانة، والجمال مع المعرفة، وتتجول فيها عين القارئ من خلال اللوحات وكأنه يزور معرضاً مطبوعاً يضم بعضاً مما هو جوهرى فى الفنون الرفيعة.

جمهور هذه المجلة كما يؤكد المشرفون عليها هم غالبية الأشخاص الذين يترددون على المكتبات ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والخامسة والثلاثين، والذين يشعرون بأن أحداً لا يهتم بهم على الرغم من كثرة الكلام عن الشباب.

فى مقال بعنوان «بطاقة دخول إلى عالم الفن الجميل» يستعرض منير عامر موضوعات العدد مؤكداً أنه يحلم بأن تكون هذه المجلة قادرة على بناء الجسور بين قرائها وبين الجمال باعتباره القيمة التى تنشد المجلة الوصول إليها وتقديمها ببساطة إلى القراء.

ضم العدد وقائع الندوة التى عقدتها لجنة العمارة بالمجلس الأعلى للثقافة على مدى يومين وضمت نخبة من أساتذة العمارة والبيئة والأطباء ومسئولين سابقين بمحافظة القاهرة، بعنوان «الحديقة والمجتمع» والتى استهدفت الدفاع عن واحد من أهم حقوق الإنسان فى الحياة وهو: حق التنفس.

شددت الندوة على أهمية الحدائق فى مواجهة التلوث الذى يجثم على صدر القاهرة، خاصة أن نصيب كل فرد من سكانها من الحدائق لا يتعدى ٣٥ سنتيمترا مربعا، فى حين يصل فى مدن أوروبية إلى ٢٢,٨ متر مربع، كما تناولت الندوة وقائع اغتيال حديقة الأزبكية التاريخية.

واشتمل العدد أيضاً دراسة كتبها د. خالد سامى عن المهندس المعمارى الإسبانى أنطونيو جاودى الذى يلقب بمهندس العمارة البليغة، والذى جاءت أعماله لتكون جسراً بين «الفن والحرفية».

وفى باب «الآثار» قدم الدكتور إبراهيم النواوى دراسة عن رحلات الملك توت عنخ آمون، تناول فيها سيرة حياته والجدل المستمر حول نسبه وحول ظروف مماته، وكذلك الآثار التى تم اكتشافها فى مقبرته، ورحلة هذه الكنوز فى متاحف العالم.

وتناول باب الآثار أيضاً موضوعاً عن متحف الإسكندرية القومى أعده أحمد عبد الفتاح ومحمد إسماعيل.

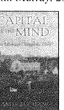
وفى باب الفنون التشكيلية، قدم الفنان مصطفى عبد المعطى موضوعاً بعنوان: محمود مختار.. الفنان الذى تسلم الإزميل من يد النحات المصرى القديم، تناول فيه سيرة حياة مختار الفنية وكيف تجلت عبقريته فى تماثيله التى استوحت عبقرية نحاتى المصريين القدماء، وكيف اتصل بالحركة الثقافية والفنية الفرنسية عندما ذهب للدراسة فى باريس، وعندما عاد قرر أن يمسك بتلابيب الشخصية المصرية.

وفى موضوع بعنوان «كنعان وأنا.. زهرة المشمش» تناولت سناء البيسى المستشار الفنى للمجلة قصة لقائها وزواجها من الفنان التشكيلى الراحل منير كنعان، وكيف وهب نفسه وعمره للفن.

وفى باب الموسيقى كتب د. محمد الجوادى عن الدكتورة سمحة الخولى وجهودها الرائدة فى أكاديمية الفنون ومعاهدها، وتناول أيضاً نشأتها فى بيئة ثقافية راقية فى أسرة تهتم بالعلم والثقافة والتنوير. ومع تعلمها أصول العزف على البيانو وهى طفلة صغيرة، تعلقت بمرور الوقت بالموسيقى العربية واتقنت العزف على العود. وتلقى الدراسة الضوء على أفكار سمحة الخولى وعلاقتها بوالدها الشيخ أمين الخولى وبزوجها المؤلف الموسيقى الراحل جمال عبد الرحيم، وعن أستاذها العظيم الدكتور حسين فوزى، وأيضاً على مشوارها الأكاديمى فى التحليل الموسيقى لروائع أعلام الموسيقى العربية المعاصرين.

واشتمل باب الموسيقى موضوعاً بعنوان «هذا المايسترو نادر عباس: قل لى من أنت؟» حول الموسيقى الغربية الاوبرالية، ودور المايسترو فى قيادة العازفين، والذى لم تظهر الحاجة إليه إلا فى أوائل القرن التاسع عشر حين بلغت الموسيقى الغربية أوج عظمتها، واكتملت القدرة على أدائها بواسطة الفرق الكبيرة العدد.

Capital of the Mind: How Edinburgh Changed the World
(عاصمة العقل.. كيف غيرت أدنبرة العالم)
James Buchan
John Murray, 2004, £ 9.99



يتناول الكتاب دور العاصمة الأسكتلندية أدنبرة فى الثورة الفكرية والعلمية التى شهدتها أوروبا والعالم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بشكل خاص.

ويقول المؤلف أن مفكرى أدنبرة التنويريين خلقوا عالمًا أساسه المساواة والديمقراطية. وقد انتشرت أفكارهم فى شتى أنحاء العالم بفضل اللغة الإنجليزية وبفضل التوسع البريطانى والأمريكى.

ويطلق الكتاب على أدنبرة لقب أثينا الشمال وهى جديرة بهذا اللقب، فقد انتشرت فيها الجامعات التى كانت منارات للفكر والمعرفة والعلم وخرج منها مفكرون وأدباء وعلماء أشهرهم آدم سميث وديفيد هيوم وغيرهما، ومازالت المدينة تحتفظ حتى الآن باستقلالية جامعاتها وقدرتها على الإسهام العلمى فى الأبحاث والاكتشافات. وقد كان معهد علمى أسكتلندى قبل سنوات أول مؤسسة علمية تقوم باستنساخ الحيوان حيث جرى استنساخ النعجة الشهيرة دوللى.

The Bomb: A life
(قصة حياة القنبلة)
Gerard Degroot
Jonathan Cape, 2004, 397PP., £18.99



كان للرئيس الأمريكى الراحل ريتشارد نيكسون مقولة مشهورة حيث قال يومًا خلال رئاسته للولايات المتحدة: «أستطيع أن أذهب إلى مكتب وأرفع سماعة التليفون وأصدر أمرًا بإسقاط قنبلة على منطقة معينة وخلال ٢٥ دقيقة فقط سيموت ٧٠ مليون نسمة». وقد كان هذا التصريح مرعبًا لكن الرعب الذى يحيط بالقنبلة النووية تحديدًا لازال قائمًا.

إن الأمر المهم بالنسبة للقنبلة النووية، كما يقول بعض الخبراء، هو أنها نجحت فى جعل العالم آمنًا خلال نحو ٦٠ عامًا من الصراع بين العملاقين الأمريكى والسوفيتى وهذا وحده يبرر أن تنفق الولايات المتحدة وحدها ٥,٨ تريليون دولار على الأسلحة النووية، لكن منذ نهاية الحرب الباردة أصبح الحديث عن بقاء القنبلة النووية كرادع أقل تأكيداً، فالمخاوف تصاعدت من أن أسلحة الدمار الشامل يمكن أن تنتشر بشكل من الصعب التحكم فيه وأن تصل هذه القنابل بشتى أنواعها إلى أيد غير مسئولة.

وقد قدم مؤلف الكتاب وهو أستاذ للتاريخ الحديث فى الولايات المتحدة كشف حساب لأكثر اختراعات الإنسان دموية وهو يقول إن من الصعب إصدار حكم مطلق على القنبلة، فهناك من يدينها بشدة وهناك من يتحدث عن الفائدة التى أسدتها للبشرية.

ويتحدث المؤلف عن عديد من المآسى والانتهاكات لحقوق الإنسان تم ارتكابها فى الولايات المتحدة من خلال إجراء اختبارات على سجناء ومرضى لتجربة البلاتونيوم مثلاً كما تم تعريض سجناء للإشعاع لقياس مدى التأثير الذى يمكن أن تحدثه القنابل الإشعاعية.

Michael Moore is A Big Fat Stupid White Man
(مايكل مور رجل أبيض سمين وغبى)
David T Hardy and Jason Clarke
Regan Books, 246PP., £14.99



خلال السنوات القليلة الماضية ربما لم يحظ مخرج أمريكى بالشهرة والضجة والجدل كما حظى مايكل مور، فقد أثار مور عاصفة من التأييد والدعم له بعد سلسلة من الأفلام السياسية التى تميزت بالخروج عن الخط العام للمؤسسة السياسية الأمريكية خاصة المحافظة. وكان آخر أفلامه وهو حول أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد فجر ضجة كبيرة داخل وخارج الولايات المتحدة وصفق للفيلم كثيرون بينما سخرت منه إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش باعتباره نوعًا من الفانتازيا الفنية ورفضت عدة دول عرضه لأنه يهاجم بعض الدول.

وقد ألف مور كتابًا قبل عدة شهور بعنوان «رجل أبيض غبى» انتقد فيه بشكل كبير سياسات الرئيس بوش وشخصه وحقق الكتاب شهرة واسعة واحتل قائمة أفضل الكتب مبيعًا لأسابيع طويلة. وبينما نددت الدوائر المحافظة فى الولايات المتحدة بالكتاب ومؤلفه وكذلك أعماله السينمائية فإن التيار الليبرالى احتضن مايكل مور واعتبره أحد نجومه الصاعدين.

والكتاب الحالى يناقش مور وأعماله بشكل مختلف وهو مكون من عديد من المقالات والتحليلات حول مور وأعماله وتصريحاته. وأهم ما فى الكتاب هو أن مؤلفيه يتهمون مور بالتلاعب فى الحقائق والإحصاءات، وكذلك الصور لصالح تحقيق أهدافه. والكتاب يقول إن فبركة مور للحقائق والأرقام هى السر وراء جاذبية أعماله، وعلى غرار عنوان كتابه جاء عنوان الكتاب الجديد.

Gangs:A Journey into the Heart of he British Underworld
(عصابات.. رحلة فى قلب عالم الجريمة فى بريطانيا)
Tony Thompson
Hodder, 404PP., £18.99



يقول المؤلف فى كتابه أن المافيا الألبانية تتنافس مع نظيرتها الصينية فى بريطانيا للسيطرة على تجارة الهجرة غير الشرعية وأن اللصوص الجامايكيين هم ملوك السطو وأن المحتالين النيجيريين بارعون فى النصب بشأن أمور البنك.

أما مستوردو الهيروين من الأتراك فإنهم يستخدمون بعض البقالات التى يملكونها فى لندن كواجهات لعملهم. ويشير المؤلف إلى أنه كما أن بريطانيا أصبحت دولة متنوعة الثقافات والأعراق فإن الجريمة فيها أصبحت متعددة الأهداف والأغراض والأعراق كذلك.

وهناك من يربط الجريمة المنظمة أو التى يطلق عليها عابرة الدول والقارات بتهريب المخدرات. وفى هذا المجال فإن لندن أصبحت، كما ذكرت صحف بريطانية، عاصمة ترويج المخدرات فى العالم. لكن المخدرات عنصر واحد من عناصر عديدة فى عالم الجريمة المنظمة التى تتنوع أعمالها من تهريب البشر والمخدرات إلى تهريب الأموال وغسيلها والتجارة فى السلاح.

وقد تمكن المؤلف، وهو محرر صحفى متخصص فى تغطية الحوادث والجرائم وفاز بجائزة على عمله، من التسلل إلى هذه العصابات لكى يتعرف على كيفية عملها وطبيعة أفرادها وأحدث الوسائل التى تستخدمها، بل إنه أصبح صديقًا لبعض المجرمين واضطر إلى تعاطى المخدرات معهم، ولذلك فإن الكتاب يحتوى على لقاءات وأحاديث وحوارات مع أفراد من هذه العصابات بالطبع مع تغيير فى الأسماء ضمانًا للسرية وحفاظًا على مصادر الصحفى.

Cities
(المـــدن)
John Reader
Heinemann, 2004, £20.00



كيف ظهرت المدن؟ هناك إجابات كثيرة لكن البعض يقول إنها بدأت كأماكن أو تجمعات يقيم فيها الناس على أرض طينية مستوية بعيداً عن الغابات أو الجبال. وهى تعبير عن العبقرية الإنسانية وتطورها.

وقد ارتبط ظهور المدن بالناحية الدينية ولذلك أطلق البعض أسماء دينية على المدن لكن التطور استمر وأصبحت المدن تعبر عن عقل وتطور الإنسان وتحولت إلى مخزون للتقدم البشرى على مدى العصور.

وفى هذا الكتاب يحاول المؤلف أن يفهم ظاهرة المدن ومدى الاهتمام الإنسانى بالكتابة عن هذه الظاهرة ويورد الكتاب ٥٠٠ عنوان لكتب عن المدن منها كتاب لويس مافرود عن «المدينة فى التاريخ»، وجين جاكوب عن «اقتصاديات المدن»، والسير بيتر هول عن «المدن والحضارة».

ويورد المؤلف إحصاءات وأرقامًا طريفة عن المدن وسكانها ويشير إلى أنه على سبيل المثال فإن البطاطس نضجت وأصبحت صالحة للأكل فى مدينة هيروشيما اليابانية بسبب القنبلة النووية التى ضربت بها الولايات المتحدة المدينة، ويقول إن لندن عاصمة بريطانيا أنتجت عام ٢٠٠٣ حوالى ١٠٪ من عسل النحل الذى يأكله سكانها.

ثم تحدث المؤلف عن قضايا أكثر جدية فيشير إلى أنه فى الفترة من ١٩٥٠ حتى ٢٠٠٠ ارتفع عدد سكان الحضر أو المدينة فى أفريقيا من ٣٢,٧ مليون شخص إلى ٣٠٩,٦ مليون. وأكبر المدن سكانًا حاليًا هى تلك المدن التى تنتشر حولها الأحياء العشوائية فى دول العالم الثالث.

Kate Rememberd: Katharine Hepburn, A Personal

(كاترين هيبورن ـ سيرة ذاتية)

Ascott Berg

Pocket Books, 2004, £ 7.99



عندما قبل مؤلف الكتاب تكليفًا بالكتابة عن النجمة العالمية كاترين هيبورن لم يكن يتخيل أن إجراء مقابلة معها سيتحول إلى قصة صداقة استمرت ٢٠ عامًا ودامت حتى توفيت هذه النجمة.

ولأن المؤلف يعرف موضوعه جيدًا فإنه يغوص فى أعماق شخصية كاترين هيبورن وعلاقاتها بالوسط الفنى وأدوارها السينمائية الشهيرة وكذلك سر الشخصية الآسرة والكاريزمية التى كانت تتمتع بها هيبورن. ويحتوى الكتاب على أسرار ولحظات حميمة لا يعرفها سوى شخص اقترب كثيرًا من الشخصية التى يكتب عنها وعلى سبيل المثال يصف المؤلف بشكل ساخر وكوميدى الليلة التى جاء فيها مايكل جاكسون للعشاء مع كاترين هيبورن لكنه جلس أمام الباب وكتب رسالة إليها يكاد يستجدى فيها هيبورن بأن توقع عليها كتذكار.

American Sucker

(مغفل أمريكى)

David Denby

Viking Penguin, 2004, 337PP., £12.99



ديفيد دينبى مؤلف هذا الكتاب ناقد سينمائى لمجلة النيويوركر فى عام ١٩٩٩ أبلغته زوجته الروائية أن زواجهما انتهى وكان لهما ولدان مراهقان وكذلك شقة واسعة فى حى مانهاتن فى نيويورك. وقد قرر دينبى أن يشترى نصيب مطلقته من الشقة، ولكى يحصل على ذلك، كان عليه أن يدفع مليون دولار، فماذا يفعل؟ وجد دينبى أن أسرع وسيلة لذلك هى الاستثمار فى أسهم التكنولوجيا التى قال الخبراء إنها سريعة الربح بشكل قياسى ولسوء حظه، قرر المؤلف أن يدفع ما يملك فى شراء أسهم تكنولوجيا، وبدلاً من أن يحصل على المليون دولار المطلوبة خسر ٩٠٠ ألف دولار، وعندها قرر أن يضع كتابًا يحكى فيه قصته ربما يستطيع من خلال مبيعات الكتاب أن يعوض خسارته.

والكتاب مشوق ومكتوب بشكل جيد وعباراته واضحة سلسة، لكن المؤلف لا يوضح لقارئه بشكل منطقى وعلمى سبب خسارته لأمواله.

Losing America.. Confronting Areckless and Arrogant Presidency

(أمريكا الخاسرة.. مواجهة رئاسة طائشة ومغرورة)

Robert C. Byrd

Norton, 2004, 263PP., $19.95



عندما غادر بنيامين فرانكلين مكان اجتماع المؤتمر الدستورى الأمريكى عام ١٧٨٧ سأله أحد معجبيه:

د. فرانكلين.. ماذا أعطيتنا؟ فالتفت فرانكلين إلى السائل وقال.. «أعطيتكم جمهورية.. إذا حافظتم عليها». وبعد ٢١٧ عامًا مازالت الولايات المتحدة تناضل من أجل بقاء هذه الجمهورية كما أرادها الآباء المؤسسون. وطبقًا لمؤلف هذا الكتاب روبرت بايرد وهو السيناتور البارز عن ولاية ويست فرجينيا، فإن الأمريكيين يخسرون معركة الحفاظ على الجمهورية منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

ويقول إنه تحت رئاسة جورج بوش زادت التهديدات التى يواجهها الدستور ويستطرد قائلاً: لم أر فى حياتى رئيسًا خطيرًا كما هو الأمر مع بوش.

ويعدد المؤلف السيناتور نواحى الاعتداء على الأسس الدستورية فى الولايات المتحدة فمن التعدى على الحريات المدنية إلى الهجوم على الكونجرس ثم فرض أشد أنواع السرية على أعمال الحكومة وكذلك ابتكار عقيدة الحرب الاستباقية.

ويحذر الكتاب من عواقب وجود رئاسة أمريكية طائشة ومغرورة. وينقل عن أحد المؤرخين قوله: «من سوف يقيم من جديد أعمدة الحرية الدستورية المؤسسة جيدًا.. إذا سقطت تلك الأعمدة فلن يرفعها أحد بعد ذلك».

ولأن الجمهورية الأمريكية تعتمد على نظام سياسى قائم على التوازن بين السلطات فإن انتقادات سياسى بارز مثل بايرد لتزايد سلطات الرئاسة على حساب السلطات الأخرى تستحق الاهتمام. وكذلك آراء المحكمة العليا، ففى شهر يوليو الماضى عارض ٨ قضاة فى المحكمة بما يقرب الإجماع ادعاء إدارة بوش بأنه باسم محاربة الإرهاب فإن الرئيس يمكنه أن يحرم مواطنًا أمريكيًا من حقوق أساسية نص عليها الدستور.

ويلاحظ أن من النادر أن تصدر المحكمة العليا مثل هذا التوبيخ لسلطة رئاسية خاصة فيما يتعلق بإحدى الحريات المدنية.

ويقول المؤلف مذكرًا إدارة بوش بأن الأساس المتين للحرية الأمريكية هو حظر قيام السلطة التنفيذية بإيداع شخص ما السجن إلى أجل غير مسمى دون توجيه أى اتهام ضده.

ويوجه السيناتور بايرد سهام نقده كذلك إلى المؤسسة السياسية الأمريكية التى قضى فيه سنوات طويلة من حياته.

ويشير إلى أن الكونجرس بدا منذ ١١ سبتمبر غير راغب أو قادر على تأكيد سلطته وتراجع وتعرضت حركته للشلل تقريبًا مقابل سلطة رئاسية تتغول على سلطته. ولا يجد السيناتور مثالاً على ذلك أوضح من الحرب على العراق، ففى أكتوبر ٢٠٠٢ كان غالبية الأعضاء متحمسين لإعطاء بوش حرية كاملة فى استخدام القوات المسلحة الأمريكية بالطريقة التى يراها ضرورية.

وفى هذا حسب المؤلف تخلٍ من الكونجرس عن سلطته الدستورية مما يمثل حالة غير مسبوقة من الضعف الشديد.

The Fixer: A Story from Sarajevo

(قصة من سراييفو)

Joe Sacco

Jonathan Cape, 2004, 112PP., £12.99



مازال العالم لم يستوعب حتى الآن كارثة حرب البوسنة التى وقعت قبل حوالى ١٠ سنوات.

فما حدث فى هذا الجزء من أوروبا من تطهير عرقى وتدمير واغتصاب وتعذيب ومحاولة للقضاء على الهوية الإسلامية فى هذه الحالة، من الصعب أن نجد له تفسيرًا بسيطًا ثم إن رد فعل العالم كان سيئًا، فقد ترك المذابح تحدث وهو يتفرج ثم تدخل بعد فوات الأوان.

وهذا الكتاب يركز على مأساة شخص عمل مترجمًا للمؤلف خلال سنوات الحرب وتحول إلى صديق حميم. يقول المؤلف إن هذا الشخص ولد فى المدينة الخطأ وفى الزمن الخطأ.

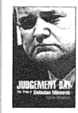
إن أهمية هذا الشخص هى أنه بالإضافة إلى كونه مترجمًا إلا أنه كان يحصل على مواعيد لإجراء مقابلات مع الرئيس البوسنى وقد نجح فى تكوين صداقات كثيرة مع الصحفيين الغربيين الذين كانوا يغطون الحرب. ومن خلال قصة حياته خلال سنوات الحرب، فإن القارئ يتعرف بشكل مثير على تراجيديا سنوات الجنون فى البوسنة.

Judgement Day: The Trial of Slobodan Milosevic

(محاكمة سلوبودان ميلوسيفيتس)

Chris Stephan

Atlantic Books, 2004, 420PP., £14.44



مؤلف الكتاب صحفى تابع عن قرب محاكمة الرئيس اليوجوسلافى السابق سلوبودان ميلوسيفيتش فى لاهاى. وقد قام بتوثيق المحاكمة وجمع المعلومات عن سير محاكمة ميلوسيفيتش التى لم تنته بعد.

والكتاب ملىء بالتفاصيل عن محاكمة ميلوسيفيتش وموقف وزارات الخارجية فى الدول الغربية الرئيسية منها، كما أنه يحتوى على تفاصيل عن كيفية عمل المحكمة وسير أعمال محاكمة السجين رقم ١٠١٩٨٠ وهو سلوبودان ميلوسيفيتش.

ويتخذ المؤلف موقفًا مبدئيًا ضد ميلوسيفيتش ويورد الكثير من الاتهامات ضده.

الأمر الذى يوحى للقارئ بأنه بالفعل جرت المحاكمة بل وهناك إدانة فى النهاية لميلوسيفيتش، الأمر الذى جعل بعض الخبراء يقولون إن المؤلف بدا فى كتابه كما لو كان قد استبق الأحداث لأن هناك من يقول إن المحاكمة قد تصل فى نهاية المطاف إلى تبرئة ميلوسيفيتش ليس لأنه غير مذنب ولكن لعدم كفاية الأدلة.

كتب فرنسية

Mozart,la luniere du dieu
(موتسارت، نور الرب) Mildred
clory
Ed.Gerard waralet Pygmalion, 22 euros

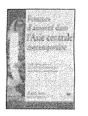


كانت اللحظات التى أمضتها المؤلفة ميلدريد كلورى مع الموسيقار العالمى موتسارت ، لحظات اقرب إلى الأساطير، لمست فيها بريق عبقريته الذى كان يحرقه هو أحيانا، وعرفت عنه اكثر معتقداته رسوخا وعمقا، تذوقت حس السخرية لديه، ورأته بكل تناقضاته وقصص حبه الملتهبة، وكل مراحل ارتقائه بذاته وارتقائه بموسيقاه. شاهدت معه لقاءاته التى لا تحصى بأشخاص لا يعرفهم من خلال رحلاته العديدة، وكل ما صادف فيها من انكسارات وانتصارات.

رسمت ميلدريد فى كتابها صورة شديدة التعقيد والثراء لذلك المؤلف الموسيقى الأسطورى الذى نزع عنه كثير من الأدباء والمفكرين ثوبه الإنسانى وحولوه إلى مجرد آلة تصدر أصواتا موسيقية لا يمكن أن تصدر من بشر. فجاء كتاب ملدريد احدث محاولة لرسم عبقرية موتسارت بملامحها المتقلبة، التى تضم كل تناقضات ضعفها الإنسانى.

■

femmes d autorite dans l asie centrale contemporaire'
(نساء السلطة فى آسيا الوسطى المعاصرة)
habiba fathi
ed.maisonneuve et larose, 26 euros



ترسم المؤلفة فى ذلك الكتاب صورة مناقضة لما يتصوره الناس عن مكانة المرأة فى الإسلام، فهى تؤكد انه ، على العكس مما يتصوره كثيرون من أن المرأة المسلمة تحتل مكانة متدنية فى الدين، إلا أن مجرد إلقاء نظرة اكثر عمقا على الممارسات الدينية الإسلامية تؤكد على إن المرأة لا يمكنها المشاركة فى الحياة الدينية والاجتماعية فحسب، وانما يمكنها أيضا أن تتولى مواقع السلطة.

لقد جاء هذا الكتاب كثمرة لتجربة المؤلفة ، أستاذة العلوم الإنسانية والمتخصصة فى الشئون الإسلامية فى اسيا الوسطى المعاصرة، بعدما قررت أن تقوم بإجراء تحقيق ميدانى فى ٥ بلاد فى آسيا الصغرى فى مرحلة ما بعد السيطرة السوفيتية عليها، وهى بلدان اوزباكستان وكازاخستان وطاجيكستان وتركمانستان وكيرجيكستان، لتخلص فى النهاية إلى أن بلدان آسيا الوسطى تمثل نموذجا للبلدان التى تتفهم مكانة المرأة الحقيقية فى الاسلام.

■

les agha khan
(ملوك أغاخان)
yann kerlau
ed.perrin, 22 euros



من باريس إلى نيويورك، ومن جنوب أفريقيا وحتى الهند وباكستان ، امتدت الإمبراطورية القديمة لملوك أغاخان الذين تنحدر أصولهم من فارس القديمة، أما إمبراطوريتهم الحديثة فتتناثر ما بين آبار البترول والفنادق الكبرى، بينما تنتشر أراضيهم المقدسة فى تنزانيا وباكستان ومصر وسوريا وسنغافورة والهند.

إن هناك اكثر من ٢٥ مليون شخص على امتداد القارات الخمس ، يدينون بالولاء لأسرة أغاخان التى يقال إنها تنحدر من نسل الرسول، هؤلاء الأفراد يقدمون وجها مختلفا للإسلام ، هم الذين يمثلون مزيجا من عدة ثقافات ويشكلون بدورهم ثقافة بلا وطن، تربطهم بأكثر العائلات نفوذا وثراء فى أوروبا كلها ، ويلقى الكتاب مزيدا من الضوء على شخصية كريم أغاخان ، الامام التاسع والأربعين لطائفة الاسماعيليين.

■

Un arabe face a Auschwitz: le combat d enile shoufani pour la memoire er pour la paix
(عربى أمام اوشفيتز: معركة اميل شوفانى من أجل التاريخ ومن أجل السلام)
Jean mouttapa
Ed.albin michel, 19euros



يلقى هذا الكتاب الوثائقى الضوء على المبادرة الجريئة التى قام بها اميل شوفانى عام ٢٠٠٢، فى أوج الانتفاضة الفلسطينية الثانية واشتعال الموقف الإسرائيلى فى الشرق الأوسط، عندما قرر شوفانى تنظيم رحلة يهودية عربية مشتركة إلى معتقل اوشفيتز الذى كان أحد أهم مناطق المحارق النازية لليهود كما يقولون.

أطلق شوفانى على هذه الرحلة لقب «مذكرة للسلام»، وضمت ما يقرب من ٥٠٠ فرد، جاءوا من إسرائيل وفرنسا وبلجيكا، مسلمين ومسيحيين ويهود وملحدين، وتتبع المؤلف مراحل هذه المغامرة التى سعى فيها شوفانى إلى تجاوز العديد من الصعاب ، والأساليب التى اتبعها لتقليل العداوة المتبادلة بين اليهود والعرب ، مركزا على الصور الجديدة لمعاداة السامية فى أوروبا، ومؤكدا فى كل خطوة يخطوها على أن الرفض العنيف للآخر، هو اقصر الطرق لتدمير العالم كله.

■

Dieu et la science
(الله والعلم)
Jean guitton et igor bogdanovEd. L.g.f. livre de poche, 6 euros

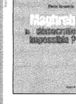


هل تلاشت تلك الفوارق القديمة بين العلم والإيمان مع بدايات القرن الحادى والعشرين؟ هل صار الإيمان بالغيبيات وسيلة جديدة لتفسير العديد من ظواهر الكون الغامضة دون أن يتنافى ذلك مع المنطق العلمى السليم؟ .يراهن المؤلفان فى هذا الكتاب على وجود عدة مسائل بسيطة لم يستطع العلم حسمها بدقة حتى الآن، ومنها مثلا: من أين بدأ الكون؟ ما هو الحقيقى فيه؟ ما هى العلاقة بين العلم وبين الواقع والوعى؟ إن الإجابة على كل هذه الأسئلة تقود أحيانا إلى التسليم بأن ما هو غيبى يمكن ان يصبح جزءاً من العلم، وان ما هو غير مادى وغير محسوس يمكن أن يصبح جزءاً من قوانين الفيزياء إذا لم يكن هناك غيره لتفسير الظواهر الغامضة فى الكون.

وتلك هى نقطة البداية الحقيقية التى يمكن أن ينطلق منها أى حوار معاصر بين المتدينين والعلماء، وهو الحوار الذى يدعو إليه المؤلفان بكتابهما، على اعتبار انه ليس مجرد تحاور فكرى، ولكنه محطة محورية لتبادل الآراء ، حول مسألة تحدد ماهية الإنسان ، وموقعه الحقيقى فى هذا الكون.

■

Maghreb,la democratie impossible
(المغرب، الديمقراطية المستحيلة)
Pierre vermeren
Ed. Fayard, 22 euros

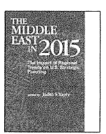


يحاول المؤلف أن يرد على تساؤل:هل من الممكن أن تجد الديمقراطية طريقها إلى النور فى المغرب العربى ، وسط التهديدات التى يفرضها التطرف الإسلامى والسلطة الحاكمة؟ يرى المؤلف أن المغرب العربى يمثل الغرب بالنسبة للعالم العربى بينما يمثل الشرق الأدنى بالنسبة للفرنسيين .. عالماً قريباً عند القيام بتحديد موقعه الجغرافى، بعيداً عن محاولات فهمه أو تعريفه.

ويرسم المؤلف بدقة ملامح دول المغرب العربى الثلاث من خلال كل الصراعات التى صهرته على مدى ٢٠ قرنا من الزمان ، محاولا بذلك أن يستشرف الموقع الذى يمكن أن تحتله كل من الجزائر والمغرب وتونس فى المستقبل، وفقا للدور الذى سترسمه لها قوى العالم الكبرى المقبلة. ويرى المؤلف فى كتابه أن مفاهيم الديمقراطية الأمريكية لا تتلاقى مع مثيلاتها العربية أو الأوروبية، حيث ترى النخبة العربية المحافظة الجديدة فى المنطقة أن هذه المفاهيم كلها أمور لا يمكن تقبلها . لأنها تهدد امتيازاتها وحرياتها الأساسية من وجهة نظر المؤلف.

سيناريوهات أمريكية للشرق الأوسط عام ٢٠١٥

The Middle East in 2015: The Impact of Regional Trends on U.S. Strategic Planning
(الشرق الأوسط عام ٢٠١٥)
Judith Yaphe (editor)
Washington D.C, National Defense University Press, 2002



إذا كان المثل الشعبى لدينا يقول: «الجواب بيبان من عنوانه»، فبإمكاننا سحب هذا الكلام على الكتاب لنقول إن «الكتاب بيبان من عنوانه» أيضاً. عنوان الكتاب «الشرق الأوسط عام ٢٠١٥» مع عنوان فرعى «أثر التوجهات الإقليمية على التخطيط الاستراتيجى الأمريكى». تعمل محررة الكتاب د. جوديث إس. يافى الآن كأستاذة باحثة ومديرة لمشروع الشرق الأوسط فى معهد الدراسات الاستراتيجية الأمريكية بجامعة الدفاع القومى الأمريكى، كما عملت أيضاً كمحللة سياسية بمكتب الشرق الأدنى وجنوب آسيا التابع لوكالة الاستخبارات الأمريكية (سى. آى. إيه). الاستنتاج الأول الذى لابد أن ينصرف الذهن إليه هو أن موضوع الكتاب ينتمى إلى التخصص الدقيق لمحررة الكتاب. هذا أمر له دلالات متعددة أبسطها، أو لعله أوضحها، الإيهام بأن ما يذكره هذا الكتاب هو «الحقيقة» ليتحول بذلك من مجرد كتاب فى المستقبليات أو تنبؤات يصيب أصحابها حيناً ويخطئون أحياناً إلى «كتاب حقائق» Factbook يتناول ما سيكون عليه الشرق الأوسط بعد حوالى عقد أو أكثر من الزمان!

نُشر هذا الكتاب ضمن أدبيات «الحرب على الإرهاب»، تلك الحرب التى شنتها الولايات المتحدة فى أعقاب الهجمات الإرهابية التى استهدفت برجى مركز التجارة العالمى بنيويورك ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) وراح ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف شخص لتشير أصابع الاتهام (الأمريكية) إلى تنظيم القاعدة بزعامة المنشق بن لادن. وإذا كانت إدارة بوش الابن قد جعلت من «الحرب على الإرهاب»، كما يطلق عليها، أهم أهدافها الاستراتيجية بل وفى أعلى القائمة فى أجندة السياسة الخارجية، فمن البديهى أن يتساءل مجلس الاستخبارات القومى التابع للسى. آى. إيه عن مستقبل الشرق الأوسط خاصة أن منفذى هجمات سبتمبر الإرهابية التسعة عشر ينتمون - جميعاً - إلى هذا الشرق الأوسط.

طرح السؤال كالتالى: ماذا سيكون حال الشرق الأوسط بعد حوالى عشر سنوات؟ وجاءت الإجابة مكونة من اثنى عشر فصلاً - أو بالأحرى ورقة بحثية - تتناول الجزائر والمغرب ومصر وإسرائيل وفلسطين وإيران والعراق ودول الخليج بالإضافة إلى فصلين عن السيطرة على انتشار الأسلحة فى الشرق الأوسط والعلاقات التركية الإسرائيلية.

تقول جوديث يافى إن العمل بدأ فى هذا الكتاب عام ١٩٩٩ أى قبل أحداث سبتمبر بعامين، ورغم ذلك لم يتعرض أى من المؤلفين إلى الشرق الأوسط كمَصدر أو مُصدر للإرهاب إلى أمريكا/ العالم. كما يعتبر الفصل الثامن المخصص لبحث مستقبل العراق دليلاً آخر يهدم أسطورة «كتاب الحقائق» التى لا تكاد تبرح نبرتها شديدة الثقة بنفسها فقرة واحدة من الكتاب كله؛ فعنوان الفصل/ الورقة البحثية «العراق: هل هناك صدام آخر فى الأفق؟» مراوغ حيث يتوقع القارئ أن تفرد مساحة أكبر لما يتوقع أن يحدث فى العراق فى المستقبل وفقاً لرأى «عديد داويشة» و«جوديث يافى» مؤلفى الفصل. يركز الفصل بدلاً من ذلك على العراق عام ٢٠٠٠ (سنة تأليف الورقة البحثية) متناولاً بالتحليل أموراً اكتظت بها الكتب والدوريات مثل الظروف التى أحاطت بسيطرة صدام حسين على السلطة فى العراق فى السبعينيات وخلفية عن حزب البعث العراقى وطبيعة التكوين الديموجرافى للعراق، إلخ. رأى داويشة ويافى أن صدام سيظل فى السلطة حتى عام ٢٠١٥ أو ستنتقل السلطة إلى ابنه قصى. هذا الطرح أضعف نقطة - بطبيعة الحال - فى كتاب يتحدث عن المستقبل السياسى لدولة من دول الشرق الأوسط بعد أن اغتصبت الولايات المتحدة نفسها مقاليد السلطة من يد حاكمها وقتلت قواتها أو قوات حلفائها ابنيه!

تبدأ يافى مقدمة الكتاب بالحديث عن نظرة الأمريكيين «المقولبة» (الراهنة) إلى الشرق الأوسط شعوباً وحكومات التى تختزل هذا الفضاء الجيوسياسى إلى دول صغيرة غنية بالثروات (النفط غالباً) وفقيرة فى الموارد البشرية، ودول كبيرة غنية بالموارد البشرية وفقيرة فى الموارد الطبيعية. الحاكم فى هذه الدول رجل تقليدى «ينتخب» بالإجماع من أسرته أو قبيلته أو حزبه. يعانى هذا الشرق الأوسط من تضخم سكانى خاصة فى ظل تزايد أعداد الأطفال والشباب مقابل كبار السن. النساء لازلن يعانين من عدم وصولهن إلى التعليم العالى. التعليم بشكل عام دينى اختزل أيضاً فى «كتاتيب» تحفيظ القرآن الكريم مما أدى لإهمال المهارات العملية اللازمة لدخول السوق العالمية.

يقسم الكتاب بلدان الشرق الأوسط التى اختار تناولها إلى ثلاثة أقسام على أساس جغرافى هى: بلاد «المغرب» وهى الجزائر والمغرب ومصر (لاحظ أن إدراج مصر ضمن بلاد «المغرب» بدلاً من «المشرق» إهدار للبعد التاريخى والجغرافى والدور السياسى الذى تريد ولابد لمصر أن تلعبه فى الصراع العربى الإسرائيلى)، وبلاد «المشرق» وهى إسرائيل وفلسطين وإيران والعراق، ودول «الخليج» العربى.

بالنسبة لما يتوقع حدوثه فى بلاد «المغرب» فإن محررة الكتاب ترى أن مصر هى الدولة الأكثر تماسكاً وبعثاً على التفاؤل. تظهر قوة الجيش بالتعاون مع رجال الأعمال لتحدد أية سلطة سياسية فى المستقبل. وفقاً للمبدأ الاستدلالى وليس الاستقرائى، يتوقع أن ينهمك الجيل المقبل عام ٢٠١٥ فى مشكلاته ومصلحته الذاتية ليبتعد عن اهتمامه بالصراع الفلسطينى الإسرائيلى. وفى ظل سعى القيادة السياسية المستقبلية للريادة الإقليمية، فإن الولايات المتحدة ستنظر إلى العلاقات الأمريكية المصرية باعتبارها علاقات تكتيكية وليست استراتيجية. المثير فى هذا المقام إلحاح التخطيط الاستراتيجى الأمريكى على مستقبل مصر، لن يعتبر مستقبلاً «واعداً» إلا فى ظل المزيد من الاستقرار السياسى والخصخصة وفتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية.

الانفجار السكانى المتوقع فى الجزائر سيجعل خلق المزيد من الوظائف للشباب الهم الأول والأخير للحكومة الجزائرية عام ٢٠١٥. من المتوقع - فى ظل هذه الظروف - أن يزيد العنف والمطالبة بالإصلاح السياسى. لذا، يحتمل أن تبتعد الجزائر عن الصراع العربى الإسرائيلى لتتجه نحو الغرب والشمال. أما بالنسبة للمغرب، فرغم الآمال المعقودة على الملك محمد السادس للقيام بالإصلاحات السياسية والاقتصادية، لم يبد حتى الآن أى تقدم ملموس فى تغيير ما كان عليه الوضع فى عهد أبيه.

رغم نبرة التشاؤم التى تطفو على السطح هنا وهناك، يرى الكاتب أن القضية الفلسطينية ستكون فى طريقها إلى حل بما لا يجعل الصراع العربى الإسرائيلى عاملاً محورياً فى التوجهات الإقليمية وبالتالى فى التخطيط الاستراتيجى الأمريكى. يأتى هذا الطرح من خلال توقع ميل الشباب الإسرائيلى (خاصة المهاجرين الروس) إلى تحقيق المكاسب الاقتصادية والاجتماعية بدلاً من الصراع على الأرض. إلا أن جهود السلام التى يؤيدها الفلسطينيون المعتدلون واليهود الليبراليون يمكن أن تتحطم على صخرة التطرف من كلا الجانبين.

بالنسبة لدول الخليج، فإنها ستظل تعتمد على موارد النفط والغاز الطبيعى. من الطبيعى أن يرسم الشباب الخليجى - وفقاً لرؤية الكتاب - نظرته للمستقبل من خلال الاستفادة من عوائد النفط. يسيطر على الدول الخليجية اتجاه نحو زيادة عدد السكان مما سيؤدى عام ٢٠١٥ إلى زيادة معدل البطالة وعدم التمتع بمستوى الرفاه الاجتماعى الذى تمتع به جيل الآباء. من جانب آخر، يؤدى غياب «البعد التاريخى» - أى جهل الخليجيين بفترة ما قبل ظهور النفط وجهل الشباب العراقى بمرحلة ما قبل صدام وجهل الشباب الإيرانى بما قبل الثورة الإسلامية - إلى ضعف الرؤية السياسية وزيادة الشعور بالإحباط.

التغير ليس حتمياً فى إيران ٢٠١٥. ولن يشكل التوجه المعتدل فى السياسة الخارجية والدفاعية الإيرانية أى تهديد إذا استمر فى المستقبل على المصالح الأمريكية فى المنطقة. الوضع الأمثل للعلاقات الأمريكية الإيرانية هو التعاون البناء خاصة فى ظل سيطرة الإصلاحيين على مقاليد السلطة فى العقد القادم إلى جانب زيادة التعاون السياسى مع أوروبا. أما فى الفصل المخصص لمناقشة العلاقات التركية الإسرائيلية، فيرى آلان ماكوفسكى أنه رغم وصف تلك العلاقات بأنها «استراتيجية» أكثر من وصفها «بالتحالف» فإنه يتوقع أنها لو تجاوزت نقاط الخلاف الاستراتيجية خاصة قضية الأكراد وتقسيم العراق والعلاقات مع إيران، فسوف تعتبر نموذجاً يحتذى به لباقى دول الشرق الأوسط فى ظل سلام وتطبيع شامل مع إسرائيل.

إلى جانب تعبيره عن توقعات كتّاب وباحثين لهم وزنهم، فإن هذا الكتاب لا يجب قراءته على أنه مصدر للمعلومات - سواء عن الوضع الراهن أو المتوقع فى الشرق الأوسط - أكثر من قراءته ككاشف عن العقل الأمريكى فى ثوبه الليبرالى المحافظ الجديد!

علاء الدين محمود عبدالرحمن

قــــــــراءة ..

الحبـــــل المشـــــدود

ربما كانت السياسة ـ بالتعريف ـ هى فنّ اللعب بالمتناقضات أو السباحة «أمنًا» بينها. ولكن لعلها لم تكن يوما كما نراها اليوم فى العراق أو بسببه «حبلا مشدودا» فوق الجحيم. فالجميع: حكاماً ومحكومين، ساسة ومسوسين، متورطين ومتفرجين، قريبين أو بعيدين، مجاورين أو على الطرف الآخر من العالم. يسيرون مرغمين على حبل العراق المشدود. أملاً فى ألا يصطلوا بناره، أو ينالهم بعضٌ من شرره. هكذا الحال فى «دول الجوار».. العراقى هذه المرة، بعد أن كان للفظة معنى آخر لعقود. وهكذا هو فى دولٍ رغبت أن تصبح فى معية سيد العالم الجديد، فقفزت فى وجه حكوماتها أسئلة العراق الصعبة، مع تزايد حالات الاختطاف و إحراجات مطالب الخاطفين. وهكذا الحال حتى داخل العراق نفسه: حكومته المؤقته، وجنود جيشه المتمركزون فى معسكرات تدريب تابعة «لمن كنا نحاربه عدواً غازيًا قبل عام..!!»، وساسته موزعو الولاء طائفيا وحزبيا وعشائريا.. وبالطبع مقاومود متعددو الأهداف والانتماءات .. والحسابات. وقبل كل ذلك مواطنوه: الذين أنهكتهم سنوات القمع والحصار .. والحروب. والذين يبحثون عن طريق مستقبلهم بين تجاذبات ماضٍ مستبد وحاضرٍ محتل.



فحكومة «المحتل» المؤقتة، والتى يرى كثيرون أنها الطريقُ الوحيدُ «المتاح» لولادة عراق جديد، يطلبون منها أن تثبت أن العراق يستطيع أن يحكم نفسه. وهو أمر لو أنصفوا لا يحتاج إلى إثباتٍ فى بلد كان هو الذى اخترع القانون قبل آلاف السنين. والإثباتُ عند طالبيه يعنى ابتداء بسط الأمن. وهى مهمة إن حاولتها فى بلد محتل، تسير حتما على حبلٍ مشدود، تتجاذبك شرعيتان: شرعية الحكم.. وشرعية المقاومة.

وكذلك حال المقاومين، على اختلاف أطيافهم وأهدافهم. والصدر أبرز رموزهم. تتجاذبه من ناحية تقاليد الحوزة القاضية بالابتعاد عن العمل السياسى المباشر، ومن ناحية أخرى ارثه.. وتجاوب الكثيرين مع خطابه المناهض للاحتلال، ومابدا أمامه من طريق للزعامة. ولكنه بالضرورة يعرف أن طريقه هذا ماهو إلا حبلٌ مشدودٌ عليه إن انتهجه أن يوازن ويراعى قوى المرجعيات من ناحية، ومذكرةً قانونيةً بحقه من ناحية أخرى، وسؤالا ربما تسلل إلى عقول بعض أتباعه عن البرنامج والرؤية.

وهكذا حال الشيعة: القوة الأولى فى العراق؛ ساسةً ومرجعيات وأتباعاً و«مقلدين». تتجاذبهم جميعا على «الحبل المشدود» أحلامٌ وحقائقُ على الأرض. ففى الأفق يبدو بازغًا حلمٌ لم يكن بالمنظور أبدا أيام صدام: أن تصبح لهم «الغلبة» التى تعكس ما يحاجون به على الدوام من «أغلبية» عددية. فرئيس الحكومة «القوى» جاء منهم. رغم أن أكثريتهم يودون التبرؤ من تاريخ عمالته، ويتغافلون «تقية» عن حقيقة أنه الوجه الدموى الآخر لصدام، وعن حقيقة أنه لم يكن ليتورع عن «سحق» تمرد فقرائهم. كما قال بذلك صراحة وزير دفاعه مذكرا ـ وإن لم ينطق ـ بما جرى لمتمردى الشيعة على يد جيش صدام عشية حرب الكويت (١٩٩١).

على الحبل المشدود يمضى السيستانى: المرجعُ «الأعلى» إلى لندن.. مريضًا أو متمارضًا أو متفاهمًا .. لا يهم. ولكنه فى جميع الأحوال «مبتعد».. حتى بدا أن النيرانَ ستطول طرفَ عباءته فى المدينة «المقدسة». فكان لابد من العودة فى اللحظة ذاتها التى تقولُ فيها عودتُه أنه ـ لاغيره ـ قادرٌ على حسم مالم يقدر جموحُ الصدر ولا دهاءُ علاوى ولا القوةُ الأمريكية الطاغية على حسمه. وحده بحكمة السبعين، بعث «السيد» من خلف لحيته البيضاء الوقور برسالة «إلى من يهمه الأمر».

على الحبل المشدود ذاته يمضى «ساسة الشيعة» فى العراق. تتجاذبهم رغبةٌ فى إنهاء التيار الصدرى، الذى يرون استحالةَ ترويضه. ولكنهم فى نفس الوقت لا يستطيعون إغفالَ أن هذا تيار «شيعى» ساهم بتمرده ـ شاءوا أم أبوا ـ فى إعطاء رقم الشيعة وزنا أكبر فى المعادلة العراقية التى يتم صوغها. وأنه فى اللحظات «المائجة» كما فى العراق، تصبح للذراع القوية أهميتها ويصبح لإبراز «الثقل» الشعبى دوره. ولكن على «الحبل المشدود» ومع حساب كل «التجاذبات» الإقليمية والمحلية يبقى «اللعب بالثقل» مغامرة.

يعرفُ ساسةُ الشيعة ـ لأنهم ساسةٌ ـ ذلك. ولأنهم لا يهدفون إلا لتحقيق الانتقالات السياسية المطلوبة يخشون من أن يهدد جموحُ التيار الصدرى (بتوليفته الخطرة من الفقر واستشهادية العقيدة) بانقلاب على المسرح الشيعى بل العراقى برمته. مهددا ـ وهذا بيتُ القصيد عند الساسة ـ مكاسبَ تبدو مضمونةً عندما يذهب العراقيون إلى صناديق الاقتراع.

فى الطريق إلى صناديق الاقتراع تبدو إدارة بوش الأمريكية أيضا تسير على حبل مشدود.

ففى الطريق، وفى وسط ساحة «تايمز سكوير» فى نيويورك ينتصب عدادُ إلكترونى ضخم (ارتفاعه ١٧ مترا) يهدف إلى تسجيل نفقات الحرب التى تتزايد يوميا فى العراق.

وتقول الأرقام الصادمة لعابرى الطريق أن «الحرب فى العراق كلفت دافعى الضرائب الأميركيين مبلغ ١٣٤ . ٥ مليار دولار حتى الآن». ويزداد هذا الرقم بمعدل ١٧٧ مليون دولار يوميا و٨٢٠ . ١٢٢ دولارا فى الدقيقة. وانتخابات نوفمبر الأمريكية ـ رغم حقيقة أن لا اختلاف فعليا بين المتنافسين ـ ستجرى حتما فى ظلال ما يحدث فى العراق. فرغم حقيقة أن «العراقيون يذبحون الرهائن على الانترنت» كما قال مانشيت فى جريدة أمريكية قبل أسابيع، إلا أن البنتاجون لا يستطيع أن يدافع أمام الناخب الأمريكى عن سلوكيات جنوده فى سجن أبو غريب. كما أنه ورغم حاجة بوش الانتخابية الماسة لأن يستقر الوضعُ فورا فى العراق «الحر»، إلا أن العنفَ المفرط فى قمع انتفاضات شعبية يبقى مُربكًا إعلاميًا. خاصة إذا طال هذا العنف الطائفة الشيعية التى طالما قال الأمريكيون أنها عانت أيام صدام.

ماذا يفعل الأمريكيون؟ تبقى كل الخيارات مرة حتى وإن كان الضرب بـ «يد علاوى الحديدية». فالخدعة «لا تنطلى طوال الوقت على الجميع» كما يقول المثل المعروف. و«عميلنا السابق قضى على ما بقى من أهدافنا الخيرة فى العراق..» كما قالت النيوزويك الأمريكية فى افتتاحيتها قبل أسابيع



العربُ أيضًا: بدا وكأن الزلزال العراقى ـ رغم انه كان متوقعًا ـ أصابهم بالصدمة. والصدمةُ بحكم طبيعتها تؤدى إلى حالةٍ من عدم الاتزان.. فالحيرةِ والارتباك. ثم وبعد أن تبين للجميع ـ ورغم الأمنيات ـ أن ما حدث قد حدث وأن «الظن لا يغنى من الحق شيئا» ـ راجع تصريحات زعماء عرب قبل اجتياح العراق بأن لديهم تأكيداتٍ أمريكية بأن واشنطن لن تفعلها (!) ـ بدا وكأن العرب لم يجدوا لديهم غير بديلين:

١ . القعود فى انتظار ما لا يأتى. أو بتوهم أن «ليس لنا علاقة».

٢ . التخبط بين الترحيب والتنديد؛ تقريباً بكل ما له علاقة. راجع نشرات الأخبار فى الإذاعات «الرسمية» العربية. ولاحظ تضارب الأوصاف والمسميات. فالقواتُ الأمريكية مثلاً هى قواتُ «الاحتلال» فى نشرة الصباح، ثم«الائتلاف» فى نشرة الظهيرة.. فـ«متعددة الجنسيات» فى نشرة المساء.. وربما ـ ولا أبالغ ـ تصبح الشرطة العراقية «المدعومة» فى موجز منتصف الليل.

وصار الموقف غريباً وصعباً. فالذين لا يطيقون، أو لا يريدون ـ ولذلك منطقه ـ الحلَ الزرقاوى أو الصدرى، بات وكأن ليس أمامهم غير الترحيب، أو على الأقل الرضا ـ وان على مضض ـ بالاحتلال، والأفاقين القادمين فى ظلال مدافعه. والأهم من ذلك اعتماد «صيغة المشرط الأمريكى». ولم يكن ذلك بأى المقاييس سهلاً.

حاول العربُ إذن: حكوماتهم، بل وبعضِ مفكريهم، أن يلوذوا بحكمةِ الصمت أو أن يختفوا وسط جلبة الزعيق والصراخ والضجيج. ولكن إنْ كان الحريقُ على الأبواب لم يكن الصمتُ لينفع.. و إن كان حكمةً، ولا الصراخ.. وان كان شكوى أو حماسةً. هذا وقت الخيارات الصعبة. والتوازناتِ الدقيقة. واسألوا رجالَ الإطفاء، أو لاعبى السيرك.

حتى المواطنين العاديين لم ينجوا من لعنة الحبل المشدود فوق الجحيم. بعد أن اختلطت المفاهيم، وغامت الرؤى وفقدت اللغةُ معانيها التى استقرت عليها لقرون. فضاعت ـ أو كادت ـ المسافاتُ الفاصلةُ بين «التحرير» و«الاحتلال» .. و «المقاومة» و «الترويع» (يسمونه رغم أنف اللغة «إرهابا» بعد أن أصبحت اللفظة ـ رغم أنف اللغة مرة أخرى ـ الجريمةَ الأولى التى تبيح كل «الجرائم الاستباقية»).

فالذين يقفون «مبدئيا» ضد الاحتلال، وما يترتب على باطله، وجدوا أنفسَهم وكأنما هم يدافعون عن التفجيرات العشوائية ومسلسلات الذبح «الانترنتية» بعد أن استباحت حربُ الصدمة والترويع فائقةُ العنف والجبروت كلَ المحرمات. وبعد أن حرثت القنابلُ الذكية الأرضَ لكل بذور الفتنةِ والعنف.



الحاصلُ أن العراقَ؛ الذى هو مهيأ أصلاً ـ بحكم تاريخه وجغرافيته وتركيبته ـ للانفجار، اشتعلت فيه النيران. وبدا وكأننا أمام كومةٍ من القش تراكمت عبر سنوات من كبت القهر «الصدامى» وظلم الحصار «الأمريكى». ثم كان أن أشعل أحدهم، متغطرساً بقوته متباهياً بسطوته المتفردة، عودَ الثقاب الأرعن فى كومةِ القش العائمة على بحر من النفط.. فكان ما كان. وبتنا جميعا نتراقصُ ـ أو نتوازنُ ـ على الحبل المشدود. ولا عزاء لمن يقع.

أيمـــن الصيـــاد

ضاعف مدخراتك

من خلال

الوثيقة ذات العائد المدفوع مقدماً



عائد شهرى لمدة ٣ سنوات

وثيقة الأمان



إدخر وأمن مستقبلك

الوثيقة ذات العائد المتعدد العملات



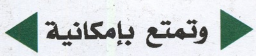
أعلى عائد مع ضمان صرفه
بالعملات الأجنبية

وثيقة الإدخار الذهبية



جنيه ذهب لكل ٢٥ ألف جنيه

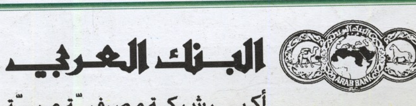
RESALA



الإقتراض



إصدار بطاقات البنك العربى



إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءً
www.arabbank.com